BENITO MUSSOLINI

مذكرات قادة الحرب العالمية الثانية

مذكرات موسوليني

مكتبة النافذة

مذكرات موسوليني

عرض وتحليل
هشام خضر

الناشر
مكتبة النافذة

مذكرات موسوليني

هشام خضر

الطبعة الأولى 2008

رقم الإيداع: 2008/15608

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

كل الحقوق محفوظة

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢ شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثينى (ميدان الساعة) - فيصل

Tel: 37241803 Fax: 37827787
Mob: 012 3595973
Email: alnafezah@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

نافذة الكتاب

تعتبر قصة حياة الدوتشى بنيتو موسولينى تجسيدا حيا لكفاح رجل عاش بين أحضان الفقر وافترش البؤس والتحف الأمال والأحلام رغم غائلة الجوع وأنيابه المفترسة.

ربما نختلف مع هذا الرجل الأسطورة الذى استطاع بكفاحه أن يبرهن على أن من جد وجد ومن زرع حصد، بغض النظر عن مفاهيمه الإلحادية والثورية والاشتراكية الجريئة والصارمة.

صحيح أن نشأة الدوتشى لم تكن أبداً مدعاة للتفاؤل ومبعثاً للآمال، بل على العكس كانت تؤكد يوما بعد آخر أن مصير هذا الطفل المشاكس المشاغب حتما سيكون رئيسا لعصابات المافيا الإيطالية الشهيرة، أو سيكون قواداً للنساء أو لصا محترفا.

لكن أن يتحول هذا الفوضوى العربيد الثمل العنيف من مجرد شاب ساخط ناقم حاقد إلى زعيم إيطاليا وأسطورتها ورئيسها وحديث أوروبا فهذا ما يستحق أن يروى ويحكى حتى يعتبر من أراد أن يعتبر، ويتعلم من ابتغى العلم، ويسعى من فاض صبره وضاق صدره من السعى والنضال دون أن يجنى ثمار عمله الشاق.

بنيتو موسولينى كان شابا مفعما بالحيوية زاخراً بالآمال مبشراً بما سوف تحصده يداه بعد سنوات طويلة، ومن ثم لم يكن مستغرباً حين قال مقولته الشهيرة لوالدته بعد أن ضاقت به السبل ونضبت فى رأسه الحيل أنه سوف يثير دهشة العالم يوما ما.

أما المثير للانتباه حقا.. أن والدة الدوتشى الأم الرائعة «روزا» لم تكن تسخر من أقوال ولدها أو تستخف بما يتفوه به، بل على العكس كانت تتأمله وهى تربت على كتفيه، وتؤكد أمامه أنها بالفعل فى انتظار هذا اليوم الذى سيثير فيه دهشة العالم أجمع، بيد أن القدر لم يمهل هذه الأم العظيمة أن تبقى على قيد الحياة لترى ما صنعه ابنها الدوتشى بنيتو موسولينى.

والواقع أن هذا الرجل المستبد الذى أشاع الظلم والطغيان والفساد فى إيطاليا لم يكن مجرد بائس فقير لا يجد قوت يومه فحسب بل كان يتضور جوعاً ويكاد يموت من شدة البرد القارص حين هاجر بمفرده إلى سويسرا ولم يجد ملاذا له سوى أحد الجسور التى تمدد على أعشابها مزاحماً جرذانها وقوارضها وأفاعيها أملاً فى استقطاع ساعة يلتمس خلالها راحة واسترخاء بعد عناء يوم شاق من العمل فى مجال المعمار.

صحيح أن أغلب الزعماء ولا سيما الطغاه قد كابدوا وعانوا من نكد الدنيا عليهم، وربما لم يكن الدوتشى منفرداً بتلك النشأة البائسه بل سبقه إليها الزعيم محمد على ونابليون بونابرت وهتلر وغيرهم من الذين سطروا بكفاحهم أروع الانتصار.

لكن الأغرب من ذلك أن نهاية هؤلاء جميعا تشابهت كما توحدت نشأتهم حيث لم يكن منهم من اتعظ واعتبر ممن سبقه، ومنذ متى يتعظ الطغاة؟ وأين فطن هؤلاء لما هو قادم بعد أن زينت الدنيا فى أعينهم بزخارفها ومباهجها وغوايتها فظنوا أن لن يقدر عليهم أحد.

تأمل نهاية الدوتشى المأساوية المؤلمة المفجعة حين علقه الإيطاليون من رجليه فتدلت رأسه فى مشهد رهيب ومثير لا يزال محفوراً فى ذاكرة الأمم الحية تأمل كيف انتهت حياة نابليون وهتلر وغيرهم من الطواغيت والذين أثاروا فزع شعوبهم من أجل سلطة ظنوا أنها خالدة وأبدية بعد أن أسكرتهم وأعمتهم عن رؤية الحق وإدراك العدل واستشراف آفاق المستقبل.

هشام خضر

الفصل الأول
من الطفولة إلى الصبا

تنحدر عـائلة بنيتو مـوسوليني إلى جذور ذات أصـالة وعراقة مـضروبة فى أعماق التربة الإيطالية القديمة قدم الحضارة والتاريخ والحياة.

ولم تكن قرية (دوفـيا) إحدى قـرى مقاطعة دومـانا تختلف عن بقيـة القرى الريفيـة، بيد أنها قد تجـلت فى نهائيات القرن التـاسع عشر حـيث كانت على موعد مع القدر.

ففى ظهر يوم الـتاسع والعشرين من شهـر يوليو عام ١٨٨٣ استـقبل كوخ قارنا نودى كوسا الذى تقيم داخله أسرة موسوليني طفلها الوليد بنيتو الذى صار مع مرور الزمن رجـلا يافعاً سرعان مـا تحول إلى أسطورة قلما تشهـد إيطاليا المعاصرة لها مثيلاً

ولو كانت قرية «دوفيا» قد أنجبت مـجرد رئيس اعتلى عرش السلطة الحاكمة لهان الأمر، لكنهـا ودون أدنى قدر من المبالغة قد أنجبت من أمـسى فى عيون الأمة زعـيما تحيط به هالة من القـداسة ألقت بظلالها على الشـعب الذى كان مسحـوراً مبهوراً يصيح إعـجابا وذهولاً مقاطعاً خطبـه النارية قائلاً دوتشى. . دوتشى. . دوتشى.

وفى خـضم تلك الأجواء السـاخنة التى كـان يطل خلالهـا الدوتشى على جماهير أمته بطلعته البهية وطلته الندية وسحنته الشجية تدمى الأكف من حرارة

التصفيق، وتفيض الدموع من المهاطل وتنطلق الصيحات والصرخات والآهات من الحناجر لفرط سحره وقوة بيانه.

كانت الجماهير الغفيرة تنساق وراءه كالعميان فى تجسيد جلى يبرهن للقاصى والدانى مدى خضوع جماهير الأمة الإيطالية وإيمانها المطلق وثقتها العمياء بهذا الذى كان يترجل منتشيا منتفخا مزهوا كالطاوس حتى كان يظن من علو عيلائه أنه قد بلغ برج بينترا طولاً وروما عرضاً.

ومن ثم لا أرانى مستغربا صيحته التى أطلقها ذات مرة لمن حوله وهو مختال بنفسه فخور بمجده قائلاً: «كم أوثر أن أكون زعيما مهابا على أن أكون قائداً محبوباً»!!

وظنى أن الدوتشى قد استطاع بفضل حنكته أن يسكن القلوب، ولجسارته تعملق فى عيونها فألقى الرعب فيها، فكم كان يطمع ويتطلع أن يكون مهابا ومحبوبا، أو إن شئت الدقة - مرهوبا ومعبوداً، شأنه فى ذلك شأن الطواغيت وذوى العروش والتيجان المستبدة أمثال نابليون بونابرت ومحمد على وأدولف هتلر وجوزيف شتالين وجمال عبد الناصر وصدام حسين ومعمر القذافى وفيدل كاسترو.

* * * *

الشاهد أن فتانا بنيتو قد نشأ ونما وترعرع فى كنف أسرة فقيرة بائسة متواضعة تشكو سوء الحال وندرة المال حيث كان الكوخ الذى يلفها ويحتضنها وكأنه متواطئ مع الفقر والشقاء يرهب شباح الثراء فكان علامة مسجلة لدى أهالى القرية بوصفه أشهر أكواخها بؤساً وضياعاً.

فى تلك السنوات الجافة القاسية التى شهدت قدوم بنيتو كان والده ويدعى إليساندرو يعمل حداداً لكنه كثيراً ما أهدر أوقات عمله فى مطالعة الصحف والانكباب على قراءة الكتب والنشرات الثورية والاشتراكية حتى وجد نفسه غارقا حتى أذنيه فى بحار السياسة العتيقة فتقاذفته أمواجها المتلاطمة حتى خيم شبح الإفلاس والجوع على محيط أسرته.

كان الرجل يعشق السياسة، ويهوى الاشتغال بها وتبادل أحاديثها مع من حوله غير عابىء بالحدادة التى كانت مصدر رزق أسرته الوحيد، حتى ضاقت الأم روزا ذرعاً بما اتصف به زوجها من إهمال وعبث ولامبالاة .

الأمر الذى دفعها قسراً للعمل فى مجال التدريس لأطفال قريتها مقابل حفنة من الفرنكات لمواجهة أعباء الحياة المتزايدة يوما بعد آخر لعلها تفلح فى إطعام أطفالها الثلاث بنيتو وأرنال وشقيقتهما إيدفيج الصغيرة التى ولدت عام ١٨٨٨ ميلادية.

كانت الأم «روزا» قد تميزت بين نسوة القرية بقدرتها على القراءة والكتابة ومطالعة الصحف والكتب وكأنها تقتفى خطى زوجها، ولولا أنها تتصف بالجدية والطيبة والشعور بالمسئولية إزاء بيتها لكانت أسرة موسولينى قد هبت عليها ريح عاصفة.

ومن ثم تمكنت الأم بذكائها وشجاعتها من أن تحمل على كاهلها أعباء أفراد أسرتها دون أن تتوكأ على عصا الأب البلاستيكية فأطعمتهم بعد أن كاد الفقر يعصف بهم ثم تدثروا بمشاعرها الدافئة من غيلة البرد القارص، حيث كان

الأب الذى جرفته أمواج السياسة قد ارتمى فى أحضان بعض غانيات القرية اللعوب ينفق عليهن ما تكسبه يداه.

ويروى المؤرخون أن الأب قد أطلق اسم بنيتو على أكبر أبنائه تيمنا به وإعجابا بسيرة الزعيم الثورى المكسيكى بنيتو خواريز المناضل الشهير الذى تصدر ثورة الأمة المكسيكية ضد الإمبراطور المستبد مكسمليان حتى تولى بدعم الشعب المكسيكى رئاسة جمهورية المكسيك عام ١٨٥٨ بعد حياة مريرة من الكفاح والنضال حافلة بالصعاب والتحديات.

كان الأب أليساندور قد تنبأ بمستقبل باهر ينتظر طفله الأول بنيتو ومن ثم لم يدخر جهداً فى أن يطلق عليه اسم الزعيم الثورى وأحد ألمع دعاة التحرر والاستقلال.

وكان لافتا للانتباه ومثاراً لدهشة المؤرخين أن يتصدر بنيتو المشهد السياسى فى إيطاليا ليصبح رئيسها، بل أهم وأبرز وأخطر وأشهر رؤسائها على وجه الاطلاق ودون أن ينازعه أحد فى ذلك حتى كتابة تلك السطور.

أما فيما يتعلق بشأن لقب العائلة موسولينى فيعود إلى اشتغال أسرة بنيتو بالعمل فى الحرير الموسولينى، حيث أكدت تحريات المؤرخين وعلماء الأنساب أنه لا يوجد من بين أجداده من يحمل اسم موسولينى، وهو ما دفع المؤرخين إلى نسبة اللقب إلى «الموسولين».

وللتأكيد على ما سبق قوله فقد توفى أحد أجداده الأوائل عام ١٧٢٧ فى مدينة كابولى، وكان هذا الجد يدعى فرنسيسكو، ثم مات الجد الثانى عام

١٧٧٩ فى مدينة كابولى ويدعى باولو، فيما توفى الجد الثالث جياكومو أنطونيو فى مدينة مونتيما جيورى وذلك عـام ١٨٢٢، أما شقيقه لويجى فقد لحق به فى عام ١٨٢٩ ثم رحل الجـد لويجى أجوسيـتوجاسبـارى فى مطلع عام ١٩٠٨، بينما رحل والد بنيتـو عام ١٩١٠، وهكذا يتبين من شجـرة العائلة أنه لا أحد من أجداده لقب موسولينى، مما يعزز قول المؤرخين بأن الأسم مستق من حرير الموسولينى.

* * * *

فى كوخ فارانو عاش بنيتو حياة اتسـمت بالقسوة والغلظة والجفاف والخشونة حيث كان الكوخ البائس يتكون من غرفتين؛ اتخـذت الأم غرفة منهما حولتها إلى مدرسة خاصة لـتعليم أطفال القرية بينما احتوت الغرفـة الأخرى والد بنيتو ووالدته وشقيقته.

أما فتانا بنيتو فقد كان يفترش أرض المطبخ مستلقيا على ظهره وبجانبه يتمدد شقيقه الصغير أرنالدو.

ومع مرور الوقت انخرط الطفل بنيتو فى العمل مع أبيه داخل ورشة الحدادة لمساعدته ودعمه بعد أن وهن عظمـه، وخط الشيب شعر رأسه وتقوس ظهره وبات فى حاجة لمن يشد من أزره ويقوى عزيمته.

وكان بنيـتو رائعـا فى أداء المهام التى يكلفـه بها والده من حـين لآخر رغم شدتها وقسوتها وحدتها، وهو ما أكسب بنيتو صفات الرجوله المبكرة التى ميزته رغم حداثته بين أقرانه وزملائه من الأهل والجيران.

ورغم امتثال بنيتو لاوامر والده وبراعته فى إجادة عمله فكثيرا ما استقبل وجهه أعنف اللطمات واللكمات والصفعات التى كان يسددها له والده الذى كان يتميز غيظا إذا ما قصر بنيتو ابنه فيما هو موكول إليه، أو لمح شروده وذيغ نظراته، وكان الدمع ينساب ساخنا على وجنتيه ألما وحزنا من قبضة الأب المتوحشة والطائشة.

كانت الحياة حينئذ فى عيون الطفل بنيتو تخلو من النعومة والرفاهية والتلذذ بخيراتها حيث تعذر على أسرته تناول ألذ المأكولات وأشهاها، وكأنهما من المحرمات والممنوعات، بيد أن حساء الخضار المصحوب ببعض فصوص الثوم البرى والبقلة والخبز الجاف من أهم الوجبات الأساسية التى اعتمدت عليها الأسرة اعتماداً كلياً.

وما من شك أن لتلك النشأة المتواضعة أبلغ الأثر فى تكوين الطفل بنيتو الذى عانى الجوع والحرمان، حتى كانت ثيابه الرثة والمهلهلة كثيرا ما تدعو للشفقة والرثاء.

وللإنصاف لم يكن أفراد تلك الأسرة ممن يستجدون عطف الأخرين أو يقبلون صدقاتهم ومساعدتهم، بل على العكس اتصفت الأم روزا بالثقة والاعتزاز بالنفس، ومن ثم تحلى بنيتو بالشموخ والعزة والرفعة والكبرياء منذ نعومة أظفاره، وكأنه على يقين مما ينتظره مستقبلاً.

صحيح أن شظف العيش وندرة الموارد كانت لها تداعيات سلبيه ألقت بظلالها القاتمة على بنيتو الذى كان قد نما بداخله شعور جارف بالسخط

والضيق، وكـان التذمر قد استقر فى نفسـه وتمدد بها واستـولى على سلوكه وتصرفاته التى كانت مدعاة لضيق الآخرين واستفزازهم.

الحاصل أن بنيتو الذى كان يموج فى صراعات نفسية عنيفة قد اكتظ صدره وفاض بحقـد دفين وكره لا نظير له لكل من كان له نصـيب من العيش الوافر ومن ثم امتـلأ صدره بالغل والنفـور من كل الذين يجاورنه فكان ناقـما على الفقراء الذين يتشابهون معه، وحـاقداً على الأغنياء الذين كانوا يترفعون عليه، فعاش كالحديد المنصهر بين هؤلاء وأولئك ينتظر اللحظة.

والواقع أن بنيـتو الناقم الحـاقد كـان يتصف دون أقـرانه بفصـاحتـه وذكاءه وعبقريته وبلاغته ورصانته وقوة بيانه وروعة ذرائعه ومنطقية حججه، الأمر الذى ساعـده على التأثيـر المباشر على زمـلائه فانسـاقوا من ورائه يهتـفون بحـياته ويصفقون لخطبه التى اشتهر بها مبكراً.

فى تلك الأثناء كانت الأم روزا تترقب خطى فتـاها الحالم وكأنها تشاطر أباه فيـما ينتظره بعد عـقد من الزمان، ومن ثم كانت تـصدق ما يتفـوه به ابنها، وتتجاذب معه أطراف حديث حالم لتقف على حقيقة أحلامه وآماله وتطلعاته.

وكان الابن بنيتو لا يدخر وسعـا فى الإفصاح لوالدته عما يكتنفه ويحلم به، حيث كثيرا ما كان ينبئها إذا ما ضاقت به السبل وتكالبت عليه الهموم وحاصرته الصعاب وأثقلته المحن أنه سوف يثير دهشة العالم وإعجابه يوما ما!!

وكأن هذا الصـبى العنيد قد منحـه الله القدرة على قراءة الغـيب، وهو ما جرى لبعض العبـاقرة والعظام والأفذاذ الذين كانوا يتصفون بأحـاسيس مرهفة تنير لهم طريق المستقبل.

وكانت والدة الفيلسوف الألمانى العظيم سوبنهـور سيدة من سيدات المجتمع الألمانى الراقى، وكـثيرا مـا استقـبلت فى صالون بيـتهـا رموز الفكر والأدب والفلسفة الألمان وكان فى طليعتهم الفيلسوف الأشهر جيته.

وما إن علم الابن شوبنهور بنبأ قدوم جـيته إلى صالون والدته حتى بادر إليه حامـلاً مؤلفاته وإبداعـاته التى اطلع عليهـا جيتـه وأبدى إعجابه بهـا وتنبأ بأن لشوبنهور مستقبلاً مـرموقاً فى العلوم الفلسفية، الأمر الذى أثار غضب والدته التى كانت تتملكها مشاعر دفينة تملؤها الغيرة من ولدها شوبنهور.

وحيث إن الغيظ قد استولى على الأم فقد نهضت من مكانها وطردت ابنها أمام ضيوفها دون أن تعبأ بتداعـيات هذا التصرف الأحمق على مشاعر ولدها شوبنهور ونظرات الاستنكار التى كانت تتناقلها عيون ضيوفها.

الشاهد أن شوبنهور الجريح صـاح بأعلى صوته قائلا وهو يهبط درج سلم بيت والدته: «لن يكون لك شأن بدونى.. سوف تعيشين وتموتين على أنك أم الفيلسوف العظيم شوبنهور»!!

وكان...

أما نابليون بونابرت فقد تنبأ عمه بأنه سوف يكون ذا شأن عظيم فى فرنسا، حتى كان يقول لأبنائه وأشقاء نابليون وهو يحـتضر اتبعوا نابليون، فسوف يكون زعميا وكان.

وكان محمد على باشا الكبير قد تنبأ له أهل مدينة قولة مسقط رأسه وشبابها بأنه سوف يتبوأ مكانة رفيعة فى مسـتقبل أيامه، حتى أطلق عليه لقب «الزعيم»

منذ صباه، وتوالت الأحـداث ومرت السنوات وإذا بالباشا محـمد على يتولى زعامة مصر والعالم العربى، فكان.

وقس على ذلك نماذج وصوراً لا حـصر لها ظهـرت وتجلت طوال القرون المنصرمة لتتأكد بأن ما استقـر فى قلب بنيتو موسولينى لم يكن من قبيل الهذر أو الدعابة أو مجرد إطلاق الكلام على عواهـنه، بل يقين أودعه الله فى نفسه فصارح به والدته، وكان.

* * * *

نهايته.. لقـد استطاعت الأم «روزا» مع سنوات كفاحها وشـقائها أن تدخر ملبغا مـن المال لتأمين مستـقبل أسرتها والحـرص على تعليم أولادها والإنفاق عليهم .

لكن «روزا» التى تميزت بالذكاء وحسن التصرف تمكنت من اقتطاع جزء من المبلغ الذى ادخرته لشراء مزرعة عنب صغيرة تتألف من حوالى ستة قراريط.

وكان بنيتـو يرافق والدته وشقيقـه لزراعتها ورعـايتها، وقد شـهدت الأسرة أجمل أيامـها خـلال تلك الفترة، وقـد أتى يوم اجتمـعت فيـه الأسرة داخل المزرعة وصاحت الأم تشدو بأعلى صوتها تغنى أغنية الجيش الإيطالى الشهير.

لقد نبه بريق السيوف الخاطف

عروشا وشعوبا

هيا أيها الإيطاليون إلى الميدان.. إلى

الميدان فقد دعانا الوطن

وكانت عائلة مـوسولينى سواء أشقاء والدته أو ولدتـه يمتلكون مزارع عنب داخل القرية، الأمر الذى كان يدعـو موسولينى فيما بعد للتـفاخر والمباهاة بأنه خرج من صلب الشعب، ومن ظهر العائلات الريفية البسيطة.

وقد ورد أنه كـان كثيـرا ما يقول فى خطبـه: إننى أفهم ما الـذى تتطلع إليه الجماهيـر وما تريده؛ لأننى ببساطة يا سادة واحـد من أبناء هذه الأمة. ولكى يبرهن على أصالته وبساطة نشأته وتواضعـه أمر أتباعه بوضع لافتة على مزرعة بمسقط رأسه تنتسب لعائلته، كتب عليها :«فى داخل هذه المزرعة عاش أجداد الزعيم بنيتو موسولينى من المزارعين البـسطاء». وببلوغ بنيتو سن التاسعة قررت والدته روزا إيفاده للالتحاق بمدرسة فاينيزا المقدسة الداخلية.

والواقع أن فتانا كان يضيق صدره من سماع التـراتيل الإنجيلية كما كان يتقيأ إذا ما شم رائحة بخور الكنيسة عندمـا تصطحبه والدته إلى الكنيسة لأداء صلاة الأحد.

بل الأدهى من ذلك أن بنيـتو لـم يكن يطيق رؤية رجال الكـنيسـة بثيـابهم السوداء، وكان يتحايل ويتذرع بالحجج الواهـية للخروج أثناء الصلاة غير عابئ بالعيون التى كانت ترمقة بنظرات شذرة ساخطة.

وامعانا منه فى التـعبير عن عدم ارتياحه للطقـوس الدينية كان لا يكف عن إلحاق الأذى بأطفال قريته الذين كانوا يـحرصون على الذهاب صباح كل أحد للكنيـسة، وكان يقـذفهم بالحـجارة والطوب وهو يعـتلى فروع الأشـجار التى يتسلقها فى رشاقة وخفة ومرح.

ورغم غلظه الأب وقسوته مع بنيتو فقد أفلت زمام الابن من بين يديه، ولم يعد يقوى على تأديبه وتهذيبه وتعنيفه، حيث إن بنيتو قد توحش وبات حاد الطباع غليظ السلوك عنيف اللسان همجي التصرف.

ويقال أن والده الذى كان ملحداً لا يؤمن بالله استبد به اليأس فى أن يبعث به إلى المدرسة الدينية الداخلية للتخلص من مشاكله وأزماته التى كان يفتعلها مع جيران القرية ورواد الكنيسة.

ولولا أن حادثة قد أصابت بنيتو بجرح غائر فى كف يده لامتنع عن مرافقة أبيه فى الذهاب إلى المدرسة، حيث إنه قد تشاجر فى الليلة السابقة لذهابه إلى المدرسة مع أحد زملائه، وحين أراد أن يسدد له لكمه عنيفة فى وجه زميله أخطأ التسديد بعد أن تمايل زميله جهة اليسار ليجد قبضة يده قد هوت بكل ما أوتيت من قوة فى جدار حديدى أصابته بجرح نازف تداعى تضميده وحمايته بالمستحضرات الطبية.

ولأن بنيتو لم يكن ممن يقبلون الهزيمة ويلعقون مرارتها فقد أثر الانصباع لرغبة والده واستجاب لدعوته فى مرافقته إلى المدرسة لينخرط فى صفوفها حتى لا يرى أحد جرحه ويصبح على أثرها مسخة تتحاكى عنها الأفواه وتتضاحك من حوله استخفافا به وتشمتا فيه.

وفى العشرين من شهر أكتوبر سلم الأب أليساندرو ابنه إلى مدير المدرسة بعد أن احتضنه وطبع قبله على جبينه فى عذوبة الأب ورقته.

وفى أعقاب انصراف الأب إليساندور اصطحب أحد الأساتذة التلميذ الجديد إلى فناء المدرسة كى ينخرط فى صفوف وحلقات اللعب واللهو التى لا يكف الطلاب عن ممارستها أثناء أوقات الراحة والاستجمام.

كان بنيتـو ذو الطباع الجافة الخشنة ينـظر إلى التلاميذ شذراً يتـعجل الصدام معهم، ونصب مناصبتهم العداء السافر بسلوكه الاستفزازى الطائش.

لم يكن بنيتو على استعداد للاستذكـار والتحصيل حيث كان يمقت المدرسة ويكره أساتذتها ،ولا يطيق رؤية كهنتهـا، ولا يسعى إلى التعارف مع زملائه أو مشاركتهم المزاح واللهو والحفظ والاستذكار.

ويقال أن التلميذ الوحيد الذى توطدت العلاقـة بينهما كان يتصف بضخامة بنيانه الجسدى ورأسه الكبير، وكان يسمح لبنيـتو فقط بضربه بالعصا للترفيه عن نفسه وإهدار الوقت!!

كان موسولينى قد ضاق ذرعا بالمدرسة لما تميزت به من صرامة وانضباط ولم يكن هو من الذين يألفون ذلك، وفضلا عن مظاهر الثراء الفاحش البادى على ثياب ومـأكولات ومـصروفات طلابهـا فيـما كان هو يتـضور جـوعاً ويشكو إفلاسا، الأمر الذى دفعه للبحث عن مهرب من هذا المكان على نحو عاجل.

لكن حالت القيود الصارمة والحراسات المشددة والرقابة الجادة فى دون نجاح مخططات بنيتـو، ومن ثم ألزمته بالبقـاء قسراً بداخلها يعتـصر ألما ويكتوى من نيرانها الملتهبة على أمل قدوم إجازة الصيف.

وحين ضاقت به السبل ولم يعد هناك بـصيص أمل يدفعه لنجاح خططه فى الهرب قرر بنيتو المشاكس العنيف اللجوء إلى ممارسة الشغب وافتعال المشاجرات والمشكلات، وإشعال الخلافات لأسباب ساذجة لعله بذلك يدفع إدارة المدرسة إلى فصله وطرده منهـا، وكان أن تلقى ذات مرة صـفعة على وجـهه على يد

أحد الكهنة، الأمـر الذى ألهب مشاعـره وأجج أحاسيسـه، وثار وفار، وراح يقذف الكاهن بإحدى المحابر رداً على صفعته!!

لكن إدارة المدرسة اضطرت إلى مـعاقبة الكاهن لما اقتـرفه فى حق الطالب وألحق به الأذى بين زملائه، ومن ثم برأت الإدارة ساحـة بنيتو الذى تضايق، حيث كان يتطلع إلى فصله وشطبه من قائمة طلابها.

وبعد أسبوع من تلك الواقعة افتعل بنيتو مشاجرة مع أحد زملائه ربما تنتهى أحداثها بفصله، وكان أن أخرج مـوسى من سترته وطعن به زميله الذى سقط مدرجاً فى دمائه مما أثار الفزع والهلع فى أرجاء المدرسة.

كان الطلاب والأسـاتذة والكهنة قد اجتـمعوا فى حلقـات نقاشيـة يطالبون الإدارة المدرسية بفصل بنيـتو والتخلص منه إلى غير رجعـة، حيث إن أخلاقه السيئة وتصرفاته المشينة لم تعد تحتمل بعد أن كثرت وتعددت.

وفى اجتماع عـاجل قررت إدارة المدرسة فصل بنيتو واسـتدعاء أحد أبويه لشرح الأمر واسـتلام ابنهما، بيـد أن سحابة من الحنان قد مـرت على مدير المدرسة الذى وجد نفسه غير مطمئن لهذا القرار الخطير، لما له من تداعيات قد تدفع الطالب إلى ممارسة العنف والإجرام، وربما يتحول إلى شخص غير مسالم إذا لم يتكاتف الجميع ويتعاونوا معاً لمسـاعدته ومعاونته والقضاء على العوامل التى تدفعه لانتهاج هذه التصرفات الطائشة.

لكن بنيتو لم يكن لينصاع ويستجـيب وينجذب لمن حوله، حيث كان عنيداً صلبا لا يمـيل إلى الهدوء والوداعة بل كـان يتلذذ بممارسة كافـة صور العنف

والبلطجة لافتـا بذلك أنظار الآخرين، وقد صار حدوتة تـتناقلها أفواه الطلاب ويرويها الأساتذة بين مستغرب ومستاء.

ومضت أيام بنيتـو على هذا النهج الشاذ القبيح حـتى انتهى العام الدراسى فقـررت الإدارة المدرسية عدم قـبوله مرة أخـرى، وتسليم ملف أوراقه لوالده الذى لم يكن ذلك القرار مفاجئا له بل إنه استغرب تأخر صدوره!!

وكان خروج بنيـتو من المدرسة مدعاة للبـهجة ومصدراً للارتيـاح والشعور بالرضا بين صـفوف المدرسين والطلاب على حـد سواء، حيث اتفق الجـميع على أن المدرسة لم تشهد لهذا الطالب مثيلاً من قبل منذ تأسيسها.

وعلى أثر القـرار المدرسى حمل الأب المسكين أليـساندرو ملف ابنه بنيـتو وتوجه به إلى مـدرسة أخـرى تسمى جيـوسوى كاردوسـى (وهى تحمل اسم أشهـر شعراء إيطاليـا كاردوسى الذى نال جـائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٠٦) لكن مشاجـراته ومعاركة التى مـارسها وانتهت إحداها بطعـن أحد زملائه بآلة حادة كـادت تصرعه حـتى أصدرت الإدارة المدرسية قـراراً عاجلاً وصـارما يقضى بطرده وفصله نهائياً من المدرسة.

لكن توسـلات الأب واستـجـداء عطف المسئـولين كـان له أبلغ الأثر فى التراجع عن تـنفيذ قـرارها، ومن ثم عاد بنيـتو يلتحق فى فـصولهـا، بيد أن الإدارة اشترطت على الأب أن ينضم إلى الفصـول النهارية، حيث كان وجوده ليلاً داخل المدرسة يشكل خطراً قادحـاً على أرواح التلاميذ وأساتذتهم، وهو ما استجاد له الأب ولم يجرؤ على إبداء رفضه واعتراضه.

أما الطـريف فى كل هذه الأحداث التى مـرت خلال مرحلـة الدراسة أن بنيتو المشاغب العنيف كان يملك القدرة الفـذة على سرعة التحصيل والحفظ، ومن ثم كـان يحصل فى نهـاية كل عام دراسى على درجـات مرتفـعة تثـير الدهشة والاستغراب والذهول .

ولكن بنبتو كان يعرف ما يختزنه مـن مواهب ومعارف تعذر عليه البوح بها والكشف عنهـا أمام الآخرين رغم مـا اشتـهر به فى قـريته منذ صغـره بميله الشـديد للوقوف طويلاً على رابيـة قريبـة من قريتـهم، حيث كـان يلقى من خلالها خطبه الحماسيه أمام أقرانه وزملائه.

كان بنيتو أيضا يميل إلى القراءة والاطلاع لتثقيف نفسه، بل كان لا يمل من قراءة الشعـر وحفظ أبياته سواء كانت وطنيـة أو حتى عاطفية بيد أن بنيـتو كان رغم ما اشتهر به من عنف وغلظة فقد كان فى حاجة ماسة لمن ينفض عنه غبار سلوكه ويميط اللثام عن مواهبه الخطابية وميوله الأدبية التى تسكنه منذ صغره.

صحيح أن أفراد أسرته وبعضاً من أهالى قريته كانوا يرقبون مواهبه وينشدونه فى إخلاص ضرورة التعبير عنها لأساتذته إذا لاحت أمامه اللحظة المناسبة دون تردد أو تخوف من مردوداتها إذا أخفق أو حتى فشل.

وحدث أن جاءت اللحظة وتجلت الفرصة حين وقع عليه اختيار أستاذه لكى يلقى بصوته الجـهورى خطابا حماسـيا وبليغا بمناسـبة إحياء البـلاد لذكرى وفاة الموسيقار العـبقرى الإيطالى الشهير جيـوسيى فيردى (١٨١٣ - ١٩٠١)، الذى قـدم للمسـرح الغنائى والموسـيـقى أروع وأجـمل إبداعاته ومـؤلفـاته، والتى

تتصدرها موسيقى أوبرا (عايدة) التى تعرضها مصر لجذب أنظار العالم للتاريخ المصرى القديم.

وبالطبع استطاع بنيتو توظيف هذه الفرصة وراح بملابسه الأنيقة، وطلاقة لسانه ،وحلاوة بيانه يلقى خطابا مطولاً استعرض خلاله تاريخ الموسيقار فريدى وأعماله الرائعة التى شغفت القلوب وأرهفت الآذان وسحرت الألباب، حتى لاقت خطبته قبولاً واسع النطاق فى صفوف الحضور من الطلاب والأساتذة والمسئولين.

وربما كان لهذه الواقعة أثو بالغ فى غرس بذور الثقة والطمأنينة فى رأس بنيتو الذى ذاع صيته واشتهر اسمه، ولمع نجمه بوصفه خطيباً مفوها لا يشق له غبار.

* * * *

ما من شك أن ذلك النجاح قد أرغم بنيتو على أن ينحى منحى سلوكيا آخر، وأن يتمكن من لجم انفعالاته الطائشة والمزعجة، وإن كان قد تمسك بآلته الحديدية التى كان يخبئها فى طيات ملابسه بصورة دائمة تحسبا لأخطار قد تحدق به فى أى وقت.

ولكن هل تغير بنيتو وتبدلت أحواله؟! أعلب الظن أن ما طرأ على مظهره من هدوء وصفاء كان مصطنعا وزائفا ومكشوفاً حيث كانت أعصابه تثور رغم ادعائه التغير لاتقه الأسباب، وكثيرا ما كان يشهر آلته الحديدية لطعن من أراد أو حاول الاشتباك معه.

لكن على الجانب الآخر للإنصاف فقد مضت سنوات دراسته رغم مشاجرته وانفعالاته وسلوكياته الفوضوية بصورة تدعو للدهشة، حيث كان يحصل على درجات جيدة فى أغلب الأحوال، ومن ثم حصل على شهادة دراسية تضمنت درجات مرتفعة تؤهله للعمل مدرساً فى إحدى دور التعليم.

وهكذا حصل بنيتو على الشهادة الدراسية بعد نحو تسع سنوات من التحصيل الدراسى، حيث اجتاز الامتحان النهائى وهو فى الثامنة عشرة من عمره.

* * * *

وفى أواخر عام ١٩٠٢ أعلن عن وظيفة شاغرة تنتظر من يشغلها إذا توافرت لديه الشروط ،وحيث إن بنيتو كان قد حصل على الشهادة النهائية فقد آثر الالتحاق فى تلك الوظيفة الشاغرة للبدء فى صعود درجات السلم الاجتماعى والسياسى بعيداً عن حياة العبث والفوضى والمحسوبية التى استولت عليه، وألقت بظلالها طوال السنوات المنصرمة.

كانت أعداد غفيرة قد تقدمت بأوراقها لشغل هذه الوظيفة بيد أن أعضاء مجلس «كوميون» ببلدة جواليتيرى قد وقع اختيارهم عليه لشغل وظيفة العالم فى مدرسة بيبقى دى ساليسيتو إعجابا منه وامتنانا بموقفه وإرادته وخطبه ومواقفه التى عبر عنها كثيراً بين أقرانه وزملائه حتى ذاعت شهرته وبلغت أسماع الغير ممن لا يعرفهم.

* * * *

الفصل الثانى
رسول العنف

لم يكن بنيتو ذاك الصبى العربيد الهمجى الفوضوى يتورع عن ممارسة أية سلوكيات إجرامية فجة وسافرة، كالجنس وتعاطى الكحوليات، وافتعال الشجار، واللجوء إلى السلب والنهب والاحتيال، بل والاغتصاب إذا دعت الضرورة له متذرعا بالفقر والإفلاس والجوع الذى ظل يطارده ويلاحقه طوال سنوات حياته الأولى.

الشاهد أنه أخفق فى أداء مهام عمله داخل مدرسة بييفى دى ساليسيتو لعجرفته وغروره، وضيق صدره، ونفاد صبره، وعصيانه وتمرده، وخروجه دوما عن آداب اللياقة والذوق واحترام الآخرين، الأمر الذى دفع الإدارة إلى إقالته لإنهاء معاناة زملائه وطلابه الذين كانوا قد ضاقوا ذرعاً به.

والواقع أن بنيتو كان هو الآخر قد تململ وتسرب إليه اليأس حيث لم يكن ميالا إلى الالتزام والانضباط والربط، والرضوخ للوائح والتعليمات ومسميات التشريعات الوظيفية المتنوعة، حيث كان أشبه بثور هائج أو حصان جامح لا يطيب لهما العيش داخل حظيرتهما، وينشد كل منهما الانطلاق والهرولة نحو آفاق بعيدة، وهو ما كان عليه بنيتو منذ نعومته.

وما من شك أن بنيتو عانى وكابد كثيراً سوء الأحوال، وقد روى فى مذكراته بعضاً من متاعبه ومصاعبه التى ظلت ساكنه فى نفسه لا تبارحها حتى

وهو على رأس السلطة فى إيطاليا لا سيما المرحلة التى كـان يعمل فيها عاملاً فى مجال العمارة والمقاولات بعد أن ترك العمل المدرسى حيث يقول بالنص:

«نحن نعمل حـوالى إحدى عشـرة ساعة فى الـيوم ونتقـاضى ٣٢ سنتا فى الساعة، وقـد قمت بمائه وإحدى وعشرين رحلـة أحمل مقطفا مليئـاً بالحجارة أصعد به إلى الطبقة الثانية من بناء نقـوم بتشييده، وكنت أرى عضلات ذراعى وقد تورمت فى المسـاء، فأتناول عشائى من البطاطس المشـوى فى الرماد، ثم أقذف بجسدى المنهك على فراشى الـذى لا يعدو كومة من القش، وأفيق من نومى فى الخامـسة من الصـباح التـالى لأعود إلى العمل، والغـضب الرهيب يعصف بكيانى لعجزى عن أن أفعل شيئا لإصلاح وضعى.

ولقد جننت من تصرف معلمى.. فعندمـا حل مساء السبت.. ذهبت إليه أطلب أجرى فقد قررت أن أترك عملى، ومضى إلى مكتبه وظللت أنتظره فى البهو.. وسـرعان ما دلف إليّ ثانية وخـرج يلقى بشىء من الغضب الذى لم يحسن إخـفاءه بعـشرين ليـرة وبعض السنتات فى يدى وهو يقـول: «ها هى نقودك وإنك لتسرقها» وتصلبت فى مكانى وكـأنى تمثال من الحجر، ماذا أفعل لهذا الرجل؟ هل أقتله؟ ولكن ماذا فعلت حقا؟ لا شىء ترى لماذا؟ كنت جائعاً وكنت حافى القدمين فقد أتلفت زوجا من الحذاء وأنا أصعد درجات البناء التى ورمت يدى وقدمى».

هكذا كان يعمل بنيتـو فى مقتبل العمر وهى النشأة القاسـية التى كانت لها مردودات خطيرة على مشـاعره وعوطفه وأحاسيسه فتـحول إلى وحش كاسر يبتغى على نحو أو آخر أن ينتقم من الجميع .

تأمل مشاعره الجـافة الحادة حين استولى عليه الجـوع فانقض على سيدتين ينهب منهما الطعـام قائلاً بالحرف: لم أستطع أن أمنع نفسى فـهاجمت إحدى العجـوزين وخطفت الطعام من يديها، وأؤكـد لكما أنهمـا لو حاولتا المقـاومة لخنقتهما، أجل لخنقتهما.

والحاصل أن هـذه الحادثة الخطيرة قـد وقعت فى مـدينة جنيف السويـسرية حيث كان جائعا مفلسا لا يقوى على مـقاومة مواء معدته، فاضطر تحت ضغط الحاجة ووطأة الافـلاس إلى أن يتهجم على سيدتين إنجليـزيتن وقد هاجر إلى سويـسرا عام ١٩٠٣ بعـد أن ضاقت به الـسبل فى بلاده لعله ينهض بمكانـته وينطلق إلى آفاق أوسع وأرحب بدلاً من تلك الحياة القاسية الخشنة العنيفة.

وروى بنيتو موسـولينى فى مذكراته أنه كان يعمل مساعـداً لأحد القصابين مقابل أجر بخس، ثم سرعان ما نشب بينهمـا خلاف حاد حول قيمة الأجر، ترك بنيتو على أثره العـمل ليلتحق فى وظيفة أخرى فى محـل خمور، وكانت تدور مهمته فى توزيع زجاجات الخمور إلى المنازل وفق متطلبات الزبائن.

وكما جرت العـادة لم يحتمل بنيتو متاعب العـمل وأجوره الزهيدة فاضطر إلى افتعال أزمة مع صاحب محل الخمور وانصرف يبحث عن عمل آخر لعله يتمكن من سد حاجته وتلبية رغباته وأهوائه.

وكان أن حـصل على وظيـفة داخل مـصنع شيكولاته وتخـصص فى نقل وتوزيع علب الشيكولاته على الشركات والمحلات والبيوت، بيد أنه انقطع عن مواصلة العمل بعد تزايد شكاوى العمـلاء ضده، لسوء سلوكه وسلاطة لسانه وخشونة طباعه.

ولأن بنيتو الذى انتقل إلى سويسرا عام ١٩٠٣ كان وحيداً شريداً يعيش بمفرده بعيداً عن أفراد أسرته الذين كانوا فى حاجة لمن يمد لهم يد المساعدة فقد قاسى الأهوال فى غربته لا يدرى أين المفر حتى وجد نفسه مدفوعاً لممارسة التسول والبلطجة، ونهب ما يتطلع إليه، الأمر الذى اضطر السلطات السويسرية لإلقاء القبض عليه وايداعه السجن أكثر من مرة.

لكن بنيتو لم يكن من هذا النوع الذى يرهبه السجن والسجان، فقد كان يكره الدنيا ولم يعد هناك ما يبكى عليه فى هذه الغربة الموحشة الباردة التى دفعته فيما بعد ليكون أشبه بوحش أدمى والاما معنى تلك الواقعة الرهيبة التى أوردها فى مذكراته والتى تحكى قصة اغتصابه لإحدى الفتيات دون أن يهتز له رمش أو تتحرك فى رأسه شعرة لحسرة أو ندم عما ارتكبه فى حق تلك المسكينة وغيرها ممن اغتصبهن وهو فى شرخ الشباب بمعاونة بعض رفاقه من البلطجية وعتاة المجرمين.

تأمل ماذا يقول الرجل فى تفسيره لنلك الواقعة المريرة: لم تكن تلك الفتاة من العاهرات، وكانت تدعى فرجينيا وهى فتاة فقيرة ولكنها ذات وجه جميل.. أجل كانت جذابة إلى حد كبير .. وفى ذات يوم صعدت معها درج المنزل وقذفت بها إلى الأرض ثم افترستها.. وعندما انتهى كل شئ.. كانت تبكى بحرقة.. وتنهال على بالسباب قائلة أننى انتهكت عرضها. أنا لا أنكر ذلك.. ولكن أى عرض هذا؟!

هذه عينة قبيحة من حياة هذا الرجل الأرعن السكير البارد الذى لا يتورع فى الاستشهاد بمثلها فى فخر واعتزاز وتبرير لجوع قاتل كاد يفتك به لا سيما

حين قرر مغادرة إيطاليا متجها إلى سويسرا عام ١٩٠٣، وكان يحمل فى جيب سترته صورة من النيكل يتصدرها كارل ماركس، وكان كما أشار فى مذكراته الخطيرة ينام على كومة القش الخشن المفروشة تحت أحد الجسور أو بجانب مبنى المرحاض العام بمدينة لوزان.

أضف إلى ما سبق استعراضه الفج فى علاقاته الغرامية العنيفة مع العاهرات والغانيات وبنات العائلات وطريقته الممجوجة فى التعامل معهن، وكيف كانت تنتهى تلك العلاقة مع هذه النسوة الساقطات؟! كان الضرب المبرح من نصيبهن بالطبع وفق رواياته!

* * * *

وينبغى أن نقر رغم مساوئه وعيوبه أنه كان شخصا مثيراً للدهشة والتأمل لثقافته وعشقه للقراءة والاطلاع ومتابعة الشأن السياسى، صحيح أن سلوكياته المستفزة تتعارض بغير شك مع طموحاته السياسية التى راودته منذ صغره وتسكنه بل وتتمدد بداخله.

نهايته.. فيبدو أن هذا من شيم الطغاة المستبدين حيث كان محمد على باشا معروفا بقوته بين أبناء قولة، وكثيرا ما كان يرهب أولادها ويثر فزعهم ومخاوفهم حتى كان أقرانه يسمونه الزعيم، لما عرف عنه من قوة وبأس وبطش وعنف.

أما نابليون بونابرت فعلى الرغم من قصر قامته ونحافة جسده فقد تميز بالقسوة والغلظة والوحشية مع أطفال أجاكسو مسقط رأسه، حيث كان عنيفا فى

شجاره، شجاعا فى عراكـه، لا يتوانى فى إلحاق الأذى بأطفال جيرانه، وعلى الرغم من ذلك فقد كان نهم القراءة كثير الاطلاع، يعشق السياسة.

وهناك الزعـيم النازى هتلر الذى لم يكـن يكف عن الشـجار والعـراك فى شوارع فينا وغيرها، وكـثيرا ما أفسد مؤتمرات سياسـية ببطشه وغلظته، ورغم ذلك كان يميل إلى الشأن السياسى والانخراط فى صفوفه!!

أما جوزيف ستالينى فقد روت والدته أنه فى صـباه كان قد اعترض ساعى البريد حين نما لعلمه أنه يحمل فى دراجته حوالات مالية فاعتدى عليه، وسدد له عدة لكمـات، واستـولى على دراجته وأمـواله، الأمر الذى اضطرت مـعه والدته لإرساله إلى الكنيسة لعله يتعظ، دون جدوى.

وقس على ذلك صـدام حسـين الذى قتل فى بواكـير شـبابه العـديد من خصومه الذين اختـلفوا معه فى الأعمال الحزبية، وكان مـصيرهم القتل على يديه عقابا لهم لجسارتهم على الاختلاف معه!!

إنها إذن من طبـائع الطغاة والديكتاتوريين المـستبدين الذين يـعانون جميـعا صعوبات النشأة والتكوين فى سنوات الطفـولة والصبا، وهو ما يبرهن على أن هؤلاء التعساء الذين يحكمون بلادهم بيد من حديد كانوا فى الأساس مرضى نفسـيين يعـانون مطاردة دائمة من شـبح الجوع، وخـوف لا ينتهى من الفـقر والفلس والنوم على الأرصفـة وتحت الجسور، وقد روى نابليـون فى مذكراته التى كتبها فى منفاه بجزيرة سانت هيـلانه أنه كان يتضور جوعاً ويعتصر ألما من أجل عجزه عن الإنفاق على أشـقائه اليتامى، وقد استبـد به الفقر حتى اضطر إلى أن يبيع ساعة يديه وكتبه التراثيـة، وينام داخل حجرة حقيرة، ويتناول وجبة

طعام واحدة، حتى أصيب بهزال وضعف شديد فى بنيته الجسديه دفعه للعودة إلى أفراد أسرته لتلقى العـلاج وتناول الطعام الصحى لاسترداد عافـيته بعد أن تحول إلى مجرد شبح فى ثياب إنسان!!

تأمل ماذا صنع نابليون بعد أن دانت له السلطة؟ أذل أعناق الرجال، وأشاع الظلم، وكرس الاستـبداد والطغيان، وأسند لأشقائه عـروش أوروبا، فصاروا ملوكا على إيطاليا وهولندا والنمسا وفرنسـا، وحتى ابن عشيقته تولى على يديه مملكة بروسيا، وأمـه التى لم تكن تدرى ماذا يجرى من حولهـا أصبحت الملكة على ملوك أوروبا من آل بونابرت!

ومحمـد على الذى تولى حكم مصر، ثم تمكن من توسـيع حدودها حتى بلغت حدود تركيا وإيطاليا، وامتدت لتشمل الحجاز والسودان والشام واليونان، وورث أبناؤه كل هذه البلدان بعد أن حكمهـا بالحديد والنار ناهيك عن معاناة تلك الشعوب وويلاتها وعذاباتها على يديه.

وحدث بلا حرج عما بدر من صدام حـسين الذى اكتوى الشعب العراقى من سياطه الرهيـبة وسجونه التى كـانت أشبه بالسلخانات حتـى كاد الديكتاتور الذى لا يجـرؤ كائن من كـان على أن يتبـادل معـه النظرات أن يورث الحكم لأولاده لولا تدخل العناية الإلهية لتطوى صفحـة على نحو يدعو للرثاء والشفقة لمن أراد أن يتعظ ويعتبر.

إنها حياة الطغـاة والظلمة التى كانت لنشأتهم، هى كلمة السـر فيما تنطوى عليه أنفسهم ومشاعرهم من وحشيـة وميول عدوانية لممارسة العنف واستخدام البطش فى تأديب وتـهذيب شـعـوبهم، وكـأن هذه النمـاذج أرادت أن تلوم

شعــوبها وتحــملها مســئوليــة نشأتهــا الفقيــرة البائســة، وكأنهم يتــساءلون فى أنفسهم. . . لماذا

أيتها الشعوب تركتمونا نتضور جوعا ونلتحف العراء، خذوا جزاءكم هذا ما تستــحقــونه. . ألا يكفيكم مــا واجهناه فى طفــولتنا وصبــانا وشبــابنا من أجل إسعادكم؟ ولماذا لا تقاسون وتكابدون وتتعذبون كما قاسينا وكابدنا وتعذبنا؟!

نماذج أرى أنها مــا كانت تســتحق أن تتــبوأ مــراكز صنع القــرار، حيث إن أمراضها النفــسية قد كان لها انعكاســات مؤثرة وخطيرة على مستقــبل شعوبها ومصائر أوطانها، فلو كان هؤلاء أسوياء ما عانت شعوبهم وقاست على أياديهم العذابات والويلات والنكبات.

وأظنها ليست مصادفة أبداً أن تتعرض فرنسا لحرب واسعة النطاق مع جميع بلدان أوروبا لتنكمش فى حــدودها بعد أن حصــدت حروب نابليــون ملايين الأرواح من الجنود الفرنســيين التعــساء، بغض النظر عن الجرحى والمعــاقين، لتتــحول فرنســا بعد الحصــار الأوربى إلى مجــرد دولة تتحرك وفق حــسابات جاهزة وخطط معدة سلفا على يد ملوك أوروبا.

كمــا أن مئات الآلاف الذين ســاقهم محــمد على فى حــروبه التوسعــية، وحصدتهم مدافع الحلفــاء لتتراجع جيوشه ويلعق مرارة الهزيمــة المفجعة، وما كانت لتحدث لولا أنه استعبد الأمة، وألقى بها فى أتون الجحيم المستعر بوصفه الأب والزعيم والملهم والحاكم والمخلص والمنقذ.

ناهيك عــمــا جــرى لألمانيــا ولإيطاليــا على يد الفــوهرر هــتلر والدوتشى مــوسولينى على يد الحــلفاء، وحــجم الخراب الهــائل والملايين التى ســقطت ولفظت أنفاسها بفعل القنابل والصواريخ والمدافع .

وهى مأساة لا يغفل عنها أحد، وقد كانت كارثه مروعة دفعت أوروبا على وجه التحديد ثمنا فادحاً لها من خيرة شبابها وأموالها وتراثها وخيراتها وكنوزها ونفائسها ومعنوياتها لا تزال تتألم منها حتى تلك اللحظة.

دعك من صدام حــسين ومــا اقتــرفه فى حق العراق الذى انــقسم وتمزق وتبــعثــر، وأصبح أشــلاء ينقض عليــها الذئاب، وتمــسك بعظامهــا الكلاب، وتنهشهــا النسور الجارحة بفــضل سياسته الحــمقاء، والتى استمــدها من نشأته الفقــيرة التى لم تــكن تخلو من الجوع والعــراء، والحاجة المــلحة دوما للــطعام والملبس فى مجتمع لم يكن يعيره اهتــماما، فكان جزاؤه أن يفتح نيرانه عليه، ويلجم ألسنته، ويكمم أفواهه، ويقطع أذنه، ولتتدفق فيضانات الدمع والدم فى حروب لا طائل من ورائها سوى السعى إلى زعامة على حساب من تسببوا فى تجويعه وتكدير صفوه صغيراً.

* * * *

صحيح أننا لا نؤمن بالتميــز الطبقى والعرقى، أو أننا نميل إلى تغليب الطبقة الأرستقــراطية على حساب الطبقــة المتوسطة والتحتيــة، أو أنه لا سبيل لتكريس قواعد العدل ونظم المساواة إلا عبــر هؤلاء الذين ينعمون فى أسرة من فراش حرير منذ صغرهم.

بل إننى أكاد أجزم أننا لا نميل إلى هؤلاء الميسورين ولا أولئك البائسين، فالأمر فى ظنى لا يتعلق بثراء فاحش، أو فقر قارص بقدر ارتباطه الوثيق بنشأة طبيعية متوسطة، حيث حنان الأم وعطاء الأب ومحبة الأشقاء من أهم مقومات النشأة السوية.

على سبيل المثال كانت وفاة والد نابليون بونابرت وافتقاد الأسرة لعائلها الوحيد وتفككها بعد رحيله بعد أن اجتاح الفقر أفرادها كان من أهم العوامل التى دفعت نابليون بونابرت إلى تعويض أشقائه ما تكبدوه فى سنوات طفولتهم على حساب فرنسا بل أوروبا.

وبالطبع كانت وفاة والد محمد على وهو فى سن مبكره وتكفل عمه طوسون بتربيته ثم رحيله هو الآخر عن الدنيا ليتربى محمد على فى كنف والدته المسكينه التى كانت فى حاجة لمن يشد من أزرها أمام تحديات الحياة وأعبائها، كان بغير شك عاملاً مؤثراً على أعصاب محمد على الذى عانى فى طفولته وقاسى منها الأهوال.

ثم إن وفاة والد الزعيم النازى الفوهرر أدولف هتلر، واضطرار والدته إلى العمل كخادمة فى أحد بيوت مشاهير اليهود الأثرياء، وحرمان أدولف من عطاء أبيه وحنان أمه التى كانت تعمل وتكافح من أجل تربيته، قد كان بالفعل عنصراً بالغ الأهمية فى التأثير على معنويات أدولف هتلر الذى كان كثيراً ما يبكى عندما تغادر والدته مسكنه كل صباح من أجل ألا تفقد عملها كخادمة، وحين كبر أدولف وراح يسأل والدته عن وجهتها كل صباح كانت تجيب بأنها

تعمل لدى سيد يهودى، فكان يبكى لوحدته وغربته وإذلاله وحرمانه، ثم سرعان ما تحول بمرور الوقت إلى حاكم الأمة الألمانية، وراح ينتقم من الشعب الألمانى ومن أوروبا، وفى طليعتهم اليهود الذين تسببوا كما ظن فى حرمانه من والدته!!

وصدام حسين قيل أن وفاة والده المبكر وزواج والدته من غيره كان وراء ميوله العدوانية العنيفة التى ألقت بظلالها فيما بعد على الشعب العراقى والعربى هروبا من تلك النشأة البائسة وانتقاماً من شهودها.

وحتى نبرهن على أن الأمر لا يتصل بهؤلاء البؤساء فحسب، بل إن الملك فؤاد كان حاكما غاشما ظالما مستبداً وعنيداً ومحتالا بفضل نشأته الفقيرة المتواضعة، ورغم أن والده كان الخديوى إسماعيل بعد أن كان مفلساً جائعا كثيرا ما يقترض وينهب ويسلب حتى ذاع صيته بوصفه الأمير اللص الذى لا يتورع عن ارتكاب أية حماقات.

ويروى المؤرخون أن فؤاد تزوج من الأميرة شويكار ذات الثراء العريض أملاً فى الاستيلاء على قصورها وأموالها وثرواتها لسد رمقه وسداد ديونه بعد أن افتضح أمره، وتلطخت سيرته واسودت صورته، وبات بين أهله وقومه منبوذا مرفوضاً مكروها ممقوتاً!!.

وحين شاءت العناية الإلهية أن يتبوأ عرش المملكة المصرية استطاع وهو الذى لم يكن يملك من حطام الدنيا سيئاً أن يستولى خلال سنوات حكمه على أكثر من مائة ألف فدان، وغير ذلك من أموال لم يكن له الحق فى

الاستيلاء عليها، فتضاعفت آلام الناس، وتوحش الفقر فى صفوفهم، وتوسع البؤس بينهم، ورفعوا أكف الضراعة يصرخون أين المفر وأين الخلاص؟.

ولو كانت نشأة فؤاد سليل العائلة العلوية طبيعية ما كان ليتزوج من شويكار ابنة عمه لاستغلالها وامتلاكها ثم نهب ثروات الشعب، وسلب خيراته وأطيانه دون أن يعبأ بما تكابده جماهير الأمة المسكينة جراء تصرفاته وسلوكياته الإجرامية المرفوضة.

إذن الأمر كما أريد أن أقول لا يتعلق بالثراء أو النشأة الناعمة بقدر ما يتعلق بحياة طبيعيه أياً كان ذلك، بغض النظر عن الفقر، حيث إن هناك من عاش فقيراً لكنه لم يكن ناقما أو حاقداً أو طامعا أو حاسداً، بل كان قانعا راضيا شاكراً حامداً.

الرئيس جمال عبد الناصر رغم نشأته المتواضعة ووفاة والده المبكرة رحل عن الدنيا لا يملك من حطامها سوى حب الجماهير، ولم يورث لأولاده شيئا يستحق الذكر والانتباه له.

والرئيس أنور السادات لحق به لا يملك سوى ثمانية أفدنة فقط لا غير وبيت فى ميت أبو الكوم مسقط رأسه، ولم يكن فى الحسابات المصرفية ما يتطلب أن نهتم به.

والرئيس حسنى مبارك سوف يلحق بهما وهو صفر اليدين إلا من كسبه الطيب الذى لم يلوث، حيث كانت نشأته تتسم بالدفء والعطاء والحنان والرضا والحب، ومن ثم عاش الرجل عفيفا وسيرحل نظيفا رغم ما تتلوكه أفواه

الجهلاء حول سيرته، وهو من كل هذا براء، وسوف يشهد له التاريخ بذلك أجلاً أو عاجلاً.

* * * *

أطلت . . أعلم ذلك، لكن الأمر كان يملى على القلم أن يستدعى بعضاً من نماذج شهدها التاريخ للتأكيد على أن نشأة بنيتو موسولينى وأمثاله هى من أهم مقومات وعناصر استفحال الذات والعظمة فى داخل هؤلاء الذين كانوا من طفولتهم وصباهم من التهميش والتحقير واللامبالاة وعدم الاعتناء وغض الطرف عنهم مهما كان قدرهم!!

المهم. . نعود أدراجنا لنقتفى معا أثر خطاه وماذا صنع بنفسه فى تلك المرحلة التى عانى فيها ما عانى. . حيث يروى هو فى أوراقه الخاصة بأن فى أواخر صيف ١٩٠٣ أثناء وجوده فى سويسرا وبعد شهور كانت حافلة بالمخاطر والتحديات والآلام كان بنيتو قد استطاع رغم صلافته وغروره الجامح أن يستأثر بقلوب العمال الذين كان قد اقترب منهم وتوطدت علاقته بهم أثناء العمل، حيث كان يروق لهم عصيانه وتمرده وجموحه حتى أن أغلبهم كان يعتبر أن الشاب المتسلط بنيتو بوقاً وصوتاً ومنبراً لمن لا بوق ولا صوت ولا منبر له وأنه يتحدث مع الجميع معبراً عن آلامهم وهمومهم وشكاياهم، ويعبر بكفاءة واقتدار عن سخطهم وتذمرهم، ويسعى على نحو أو آخر لكسر الجدار العازل بين الاغنياء والفقراء، ويؤمن إيمانا جازما بأهمية إذابة الفوارق والمساواة ويكفر بكل ما يدعو لتميز الأغنياء وعلو شأنهم.

وما من شك أن المفاهيم التى اعتنقها بنيتو موسولينى وروجها بين طبقة العمال قد أكسبته نفوذا واسعا بينهم بوصفه عاملاً يتسم دون غيره بالثقافة والعلوم والمعرفة، ويتمتع بإرادة صلبة تدفعه للإفصاح عما يكنه فى صدره دون أن تساوره هواجس ومخاوف تعرقل خطى حركته الرشيقة نحو دائرة النفوذ واللمعان.

على أثر هذا التطور اللافت فى حياة بنيتو بدأ يستشعر تغيرات ملموسة فى تلك المرحلة العمرية التى أكمل فيها عامه العشرين.

فى تلك الأثناء بدأ وجه الحياة الكئيب الأسود يتغير ويتحول إلى وجه مشرق ناصع أبيض لامع زاخر بالبهجة مفعم بالأمل، يتجلى على ملامحه مستقبل باهر، ومن ثم اختفى إلى غير رجعة شبح الفقر، وتبخر عفريت الجوع واندثر مارد الإفلاس وتلونت الدنيا بألوانها الزاهية، وبدا صيفها متساويا مع ربيعها، فبدت وكأنها دنيا حافلة بالزهور والورود المتفتحة والبلابل والعصافير المغردة، يالها من حياة كانت شاقة وعسيرة، وها هى أضحت ناعمة رقيقة عذبة سهلة يسيرة لينة طرية.

من هنا تلقى بنيتو عرضا كريما قدمه العمال السويسريون إيمانا منهم بأهمية دوره وفصاحته ومن ثم عرضوا عليه أن يتولى سكرتير اتحاد عمال البناء والعمال اليدويين فى مدينة لوران، ولم تقف المهام التى كلفوه بها عند هذا الحد فحسب، بل طالبوه أيضا بضرورة العمل الدؤوب على تحمل مسئولية الدعاية والإعلان.

بالطبع كان بنيتو يتأهب لتلك اللحظة التى كان يتوق لها، حيث كان قد سئم تلك الحياة التى أظهرته كمجرم وسفاح وعربيد وثملٍ ومتمرد ومتسول وجائع ولص، وهو الذى كان يظن أنه على موعد مع المستقبل المزدهر المشرق.

راح بنيتو يتذكر ما قاله لوالدته أنه سوف يثير دهشة العالم يوما، ما سوف يكون من أصحاب الشأن العظيم والمقامات الرفيعة، وأنه سيسعى جاهداً لكى يبرهن على صدق مزاعمه التى أفضى بها أمام والدته وأقرانه وأشقائه الذين كانوا يترقبون خطاه بين يأس ورجاء.

ها هى اللحظة قد حانت لكى يصعد الدرجة الأولى فى سلم اجتماعى وسياسى طويل يحتاج إلى التريث والصبر والذكاء والشجاعة والثقافة والمرونة وسعة الأفق وحسن الخلق.

ومن جانبه وافق بنيتو على هذا العرض الكريم أملاً فى حياة هادئة طرية، وهو المنصب الذى قدمه للمجتمع فى ثوب جديد يختلف اختلافا جذريا عن ذلك الذى كان يرتديه من قبل.

وفى ثوبه الجديد ارتدى بنيتو ثياب رجل يتسم بالعذوبة والوداعة والرقة، اتصفت ملابسه بحسن الهندام والأناقة، وبدا شأنه شأن أبناء الأسر الغنية حيث تجلت النعم على ملامحه ومظهره.

وإمعاناً فى النهوض بمستواه المادى، والارتقاء بشأنه بما يليق ويتواءم مع منصبه الجديد لجأ إلى الإعلان عن عزمه تعليم اللغة الإيطالية لمن يرغب فى اكتسابها وتعلمها مقابل حفنة من الفرنكات تدعم المرحلة الجديدة التى تتطلب قدراً من الذكاء والأناقة.

لم يكن ذلك هو كل ما يسعى إليه بنيتو، بل سعى جاهدا نحو الصحف السويسرية، وراح يكتب مقالات نارية تضمنت أراءه الحادة والعنيفة والمتطرفة، والتى تروج فى جوهرها لتدشين مفاهيم جديدة للاشتراكية تعتمد على الفوضى والعنف وإثارة المشكلات.

ودعا بنيتو موسولينى أيضا فى مقالاته إلى تصعيد العداء مع رجال الدين وإغلاق دور الكنائس لخطورتها على تفعيل العقل الذى استسلم لأصحاب النفوذ والجاه، وهو ما استسلمت له الكنيسة وباركته دون أن تتعرض له أو تطالب بمنعه وتجميده حرصا على محبة الشعوب المقهورة تحت عجلات الطغيان والاستبداد والظلم الاجتماعى الذى كان متفشيا على نطاق واسع داخل أوروبا عموما وإيطاليا على وجه الخصوص بوصفها مسقط رأسه ومركز الديانة المسيحية لنصارى أوروبا.

* * * *

وراح ينبتو موسولينى يصقل موهبة القراءة والاطلاع وكتابة المقالات الصحفية بمواصلة مطالعة الكتب السياسية والفلسفية والاجتماعية لتحصيل أكبر قدر وافر من المعلومات والنظريات التى تمكنه من التعبير عما يجيش به صدره، والتوصل إلى أهدافه التى تتزاحم بها رأسه ويعجز عن شرحها وتوضيحها وتفسيرها.

كان بنيتو على يقين من أن القراءة والتثقيف والاطلاع والمتابعة هى أهم مقومات صعوده وظهوره وارتقاء سلم المجد والشهرة والنفوذ، ومن ثم انكب على قراءة ما تقع عليه عيناه فى نهم الجائع والظمآن، ولهفة العاشق الولهان.

خلال تلك الفترة قرأ بنيتو مؤلفات عديدة متنوعة لكبار العلماء والأدباء والفلاسفة أمثال سترنير السياسى الألمانى الاشتراكى، والفيلسوف الألمانى نيتشه فيلسوف القوة، وشوبنهور أشهر الفلاسفة الألمان والذى عرضنا واقعته الشهيرة مع أمه، كما قرأ بنيتو موسولينى للفيلسوف الألمانى الاشتراكى كارل جوهان كوتسكى، وفرديناد لاسال الذى كان أبرز مؤسسى الحزب الاشتراكى الألمانى والذى روج للنظريات والمفاهيم الماركسية والاشتراكية، داعيا فى مناقشاته ومناظراته ومؤلفاته إلى تدشين فواعدهما فى جميع أنحاء أوروبا، ولتكن ألمانيا هى المحطة الأولى لتلك الرحلة الطويلة، التى تستهدف فيما بعد العالم كله، وهو ما جرى بالفعل، حيث إن النظريات الاشتراكية قد انتشرت وتوسعت وامتدت حتى بلغت ربوع أوروبا وآسيا وأفريقيا، وأضحت ندا عنيدا وصلبا للرأسمالية الإمبريالية التى تصدت لها وحاصرتها وأجهضتها بعد أن كانت الاشتراكية قد توغلت واستفحلت كالورم الخبيث فى جسد الشعوب التى أسكرتها تعبيراتها العادلة وشعاراتها البراقة، وخطب زعمائها الذين ادعو الزهد والتصوف والقناعة، وقد كانوا يقولون، ما لا يفعلون ولا حتى يؤمنون به على وجه الاطلاق.

قرأ بنيتو أيضا لقادة عظام وعباقرة أمثال الأمير بطرس أليكسنفتشى وفرانسو بابوف وبلانكى، وكانت وجورج سوريل وفيخته، والفيلسوف الفرنسى لوبان جوستاف، وجويو وبرودن وبيرتونى.

ويرى المؤرخون أن بنيتو موسولينى قد تأثر إلى حد كبير بما جاء فى كتاب «نفسية الجماهير» الذى ألفه الفيلسوف الفرنسى بوستاف لوبون، لما لمسه فى هذا الكتاب من أفكار ورؤى ونظريات وعبارات تجسد وتعبر عما تختلج بنفسه

وذلك على عكس عزوفه عن كتاب كارل ماركس «رأس المال» حيث أشار إلى أصحابه أنه لم يعثر بداخله عما يتوافق يتواءم وينسجم مع ما تشتعل به رأسه وتزدحم من أفكار ثورية فوضوية.

* * * *

مع مرور الوقت لمع نجم بنيتو وذاعت شهرته، وبات حديث الصالونات والمنتديات، وحلقات النقاش السياسية، ومحور اهتمام الدوائر النقابية والحزبية والصحفية لطلاقة لسانه وقوة بيانه خلال الخطب التى كان يلقيها على أسماع جماهير لوزان وبيسرن.

ولم يكن ذلك فحسب بل كان قبله يتجه إليها الطلاب الروس الذين بهرتهم شخصيته القيادية الفذة، وقدرته البارعة فى اجتذاب الآخرين من حوله، وكثيرا ما كان يقضى معهم أغلب أوقاته، يتجاذب معهم أطراف الحديث حول الشئون السياسية، سواء كانت فى موسكو أو فى روما، وما ينبغى القيام به نحو الدفع بتلك البلدان إلى الأمان عبر ثورة جماهيرية عنيفة تطيح بالنظم الحاكمة المستبدة.

كانت أفكار بنيتو موسولينى تتناغم مع معتقدات الطلاب الروس الذين اشتهروا بميولهم للعنف والغلظة واستخدام القوة فى تفعيل رؤاهم وتطلعاتهم وأحلامهم نحو الوطن.

ومع تزايد شعبيته لقبه بعض أتباعه باسم «بنيتو شكا»، بيد أنه أبدى امتعاضه ومقته لهذا الاسم، على اعتبار أنه يعنى، شيئاً من الدلال والميوعة على عكس ما كان يلقب نفسه بـ «رسول العنف».

ولم يكن بنيتو يخشى إظهار كراهيتـه للدين المسيحى، واعتقاده الراسخ بأنه أحد العـوامل المسببـة للإعـاقة الذهنيـة، دون أدنى حرج أو مـراعاة لمشـاعر وعواطف ومعتقدات المؤمنين بها.

ويبدو أن بنيتو أراد من وراء ذلك إثارة الغضب وتسخين الأجواء ضده حتى يتصدر المشهد السياسى العام، ويتحول إلى حدوتة تتلوكها الأفواه، وهو الأمر الذى لجأ إليـه العديد من الشخصـيات البارزة التى كانت تسـعى لنشر أفكارها الشاذه والصادمة والمؤلمة للشعوب، فى توظيف واضح للحرية والديمقراطية.

كان بنيتو يشعل نيران الغضب بهجومه الضارى على السيد المسيح وحوارييه فى استفزاز فج، من للأسف استطاع اسـتقطاب بعض من لم يقر الإيمان فى قلوبهم، فـتبـعـوا خطاه كأنه نبـى الإلحاد الجـديد الذى ينافس لينين وانجليـز وماركس فى تهمـيش المعتقد الدينى، وإعـلان المادية الحسية، على اعـتبار أن الدين أفيون الشعوب، وأنه أهم مصادر الرجعية والتخلف والفشل.

وكثيراً ما صاح بنيتو مـوسولينى بأعلى صوته الجهورى وسط مئات المواطنين الذين احتـشدوا لسمـاعه قائلاً فى جـرأه سافرة: متى تأتى الـلحظة لكى نثأر للناس ونحـررهم من أغـلال الظلم والـدين، ذلك الداء المزمن الذى يدمـر العقول ويستولى على الأفئدة.

ويمضى بنيتو موسولينى الملحـد فى خطبه الناريه قائلا دون أن يعبأ بخطورة ما يتفوه به: ومن هو ذاك المسيح إذا لم يكـن هو الرجل الوضيع الصغير الذى أمضى زهاء عـامين يجـاهد لتغيـير ديانة أهالى بعض القـرى عن معتـقداتهم

وديانتهم، لقد كان حواريوه فى ظنى الاثنى عشر مجرد جهلة أفاقين، بل إنهم من حشرات فلسطين وحثالتها.

كانت خطبه الهجومية للدين المسيحى وللسيد المسيح وحوارييه قد أثارت موجة عارمة من الغضب فى صفوف الجماهير السويسرية التى استنكفت أقواله.

وعلى إثر ذلك طالب رجال الدين المسيحى فى سويسرا بطرد هذا المهاجر الإيطالى خارج سويسرا والتخلص منه احتراما للدين المسيحى، وتبجيلا للسيد المسيح، وتقديراً للحواريين الذين حملوا أعباء نشر الدين المسيحى على كاهلهم حتى تمكنوا من توسيع دائرة المسيحية فى أرجاء العالم.

وانعقدت ندوات نقاشية مختلفة ومتنوعة فى شوارع وميادين جنيف وبيرن ولوزان، بعضها أعلن مشاطرة بنيتو الرأى، وطالبوه بعقد المزيد من الندوات والمؤتمرات لتمرير أفكاره الثورية على جميع المقدسات والمحرمات وفى طليعتها الدين المسيحى.

لكن على الجانب الآخر راح البعض من الذين روعتهم أفكاره واستفزتهم دعواته المتطرفة الرامية للقضاء على الدين وإغلاق دور العبادة وتصفية رجال الدين، حيث ندد هؤلاء بتلك الأفكار على اعتبار أن الحرية السياسية فى سويسرا تنطلق إلى الأمان دون أن يعرقل الدين خطاها السريعة، ومن ثم فلا محل لتلك الدعوات الهادمة والمخربة لعقول الناس.

وبين هذا الرأى وذاك تمكنت البهجة من نفس بنيتو الذى حقق ببضع كلمات ما لم يكن يحلم به أو يتصوره، حيث كانت الجماهير الغفيرة تدعو للمضى

قدما فـى الدعوة للتحرر والاسـتقلال، بينما كـانت الجماهير الرافـضة تنزوى بمرور الوقت، وكأن دعوته الإلحادية قد لاقت فى صدورهم هوى فيما بعد.

ومع تزايد شعـبيـته بين صفـوف الشعب السويـسرى وأضحى رمـز الثورة والتحرر فى عيـون الأجانب والغرباء الذين يقيمون فيهـا دفعه غروره إلى شن حملة هجومية قاسية وعنيفـة نحو النظام السياسى الحاكم فى سويسرا، لا يبالى خلالهـا بوصفـه أجنبيـا مهاجـراً لا ينبغى علـيه الاقتـراب من خطوط النظام الحمراء.

كانت سويسرا فى تلك الأثناء نموذجا الواحة الحرية والديمقراطية فى العالم، حيث كـان الحلم الذى يسعى الجميع إلـى الوصول إليه، بيد أن مـوسولينى لم يكن تروق له الديمقراطيـة على الإطلاق، وكيف لمن كان فى طباعه المسـتبدة وطغيانه أن يؤمن بالحرية ويدعو لممارسة قواعد ونظم الديمقراطية.

وعلى صفيح سـاخن راح بنيتو يهاجم النظام، ويطالب الشـعب السويسرى بالتمرد والعصيان والخـروج على نظامه، الأمر الذى دفع النظام السويسرى إلى ضرورة اتخاذ إجراءات عـقابية صارمة حازمة لتـأمين سلامة الوطن الذى بات مهدداً بأخطار جسيمة أثارها غلاة المهاجرين المستوطنين بداخله.

ورغم تهديدات الحكومـة السويسرية له بالطرد والسجن إذا اجـتاز الخطوط الحمـراء فقد مضى يطلق أفكاره ودعـواته الخطيرة ظنا منه أن شعـبيته الجـارفة سوف تكون حجر عثرة أمام صناع القرار السويسرى.

وفى إحدى خطبه تجلت شجاعته بين الجماهير الغفيرة التى كانت تحمله على الأعناق يهللون ويهتـفون بحياتـه، حتى صاح مهـاجماً الحكومة السـويسرية،

متهما شعبها بالرضوخ والسكون والوداعة قائلاً: «وهل تكون سويسرا إلا تلك الدولة الديمقراطية التى تصنع السجن، والتى لم تعرف الطريق إلى الثورة والاحتجاج تجهل عيبها الكبير، وتظن على الدوام بأن ثورة الفلاح ويليام تل تكفى لتكريس وتفعيل مبادئ الديمقراطية وأدوات الحرية فى وطنها».

وعلى إثر هذا الخطاب الخطير تلقى إنذاراً ثانيا يتضمن تهديداً بمعاقبته بالحبس أو الطرد إذا لم يكف عن مهاجمة النظام الديمقراطى الذى تشهده سويسرا وتسعى لتدشينه واستمراره وتحديثه، غير أن بنيتو المغرور المستبد لم يكن يلتفت ويعبأ لمثل هذه الإنذارات اعتقادا منه أنها من قبيل التهويش والتخويف، مشككاً فى قدرة السويسريين على معاقبته، وكأنه بات زعيما لا يشق له غبار، ولا يجرؤ كائن من كان على المساس به، أو أن يلحق به أذى.

فى تلك الأثناء التى كان بنيتو قد بلغ خلالها العشرين من عمره كان قد اجتاحته حالة هائلة من الصلف والغرور والكبرياء والاعتزاز بذاته، التى تضخمت بعد أن لمس إلتفاف البعض من حوله، وإعجاب العمال المطلق بأفكاره ومعتقداته.

وللأنصاف كان بنيتو ابن العشرين ربيعا والذى تقاذفته أمواج الفقر، وكادت اسماكها المفترسة تبتلعه لديه عذر ينبغى أن نشير إليه، حيث إن من استطاع أن يهجر وطنه وحيدا شريدا طريداً إلى وطن آخر فى سن مبكرة، سعيا وراء كسرة خبز ،وأملاً فى حياة هادئة كريمة، وجريا وراء أحلام براقة، وافترش الأرصفة ونازع القوارض والحشرات مخدعها ومكسنها، ورغم كل هذه المآسى تمكن من تعبئة الجماهير والنقابات، وتسارعت نحوه الصحف إما

لديباجة المقالات أو للإدلاء بالأحاديث، حتى صار مركز اهتمام الجميع، ورمز الاستقلال والتمرد والعصيان وقدوة يهتدى بها الشباب السويسرى والأجنبى!

فمن كان فى بواكير العمر ومطلع الشباب ويملك هذه القدرة الفذة والعبقرية فما من شك أن الغرور والصلف والاستعلاء فى مثل هذه الحاله لا يعد مرضا بقدر ما يعتبره البعض من الحكماء والعقلاء والمنصفين من طبائع الأمور لا من شواذها.

أريد أن أقول لو أن أحداً غيره لصنع ما صنعه بنيتو، لا سيما وأنه فى ذروة المراهقة وأوجها، ومن ثم لا يستحب اللوم والمؤاخذة فيها انتهجه فى تلك المرحلة.

حتى آراؤه الدينية ومعتقداته الالحادية التى آمن بها وهو لم يكن قد بلغ عامه الثامن كانت نتاج بيئته ونشأته حيث أكد الرواة والباحثون أن والده كان ملحداً لا يأبه بالطقوس الدينية، ولم يكن يحفل بالتعاليم والقيم والآداب التى كانت تنادى بها الكنيسة، وأن الإلحاد كان متوارثاً فى تلك العائلة، فضلاً عن تأثره بوالده ذى الميول الثورية الاشتراكية، قيل: إن ألساندرو الأب كان قد اعتقل أكثر من مرة لهجومه العنيف على نظام الحكم فى إيطاليا.

يعنى أن بنيتو موسولينى لم يكن نبتا شيطانيا أو غريبا على التربة التى نما وترعرع وتظلل بها، حيث استمد معتقداته وأفكاره من منبع والده الثورى الذى كان يميل أيضا للثورة والتمرد والعصيان.

غاية ما فى الأمر أن صاحبنا كان أكثر شجاعة وجسارة أملا واستشرافا لمستقبل مزهر ومشرق ومتفتح يسعى إليه لتطبيق ما يسكن رأسه من أفكار

ورؤى على عكس والده الذى اكتفى بكتابة بعض المـقالات والمشاركة فى عدة مظاهرات سرعان ما اعتزلها بعد أن تعرض للاعتقال والتعذيب.

إذن بنيتو موسـولينى الشاب الصغير كان نتـاج أفكار والده سواء كانت تلك التى تتعلق بالمعتقدات الدينية الإلحـادية، أو حتى التى هى وثيقة الصلة بالمفاهيم السياسية والثورية.

* * * *

المهم أن بنيتو المغـرور قد استهوته إنذارات الحكومـة السويسرية، لعل ذلك يضاعف من جـماهيريته ويكسب تـعاطف الأمة وتأييد طبـقة العمال بوصـفه الثورى الفاشى الذى لا ترهبه السجون ولا تفزعه المعتقلات.

وراح يلقى خطبه عنيفـه لاذعة وسط حشد هائل من الجماهيـر السويسرية والأجنبية تحت إشراف ورعاية نقابة العمال فى مدينة برن، وقبل أن ينهى خطبته الحماسية، والتى قاطعته الجماهير خلالها مرات عديدة إما للتصفيق إما للهتاف وترديد عباراته البليغة أعلن بنيتو موسولينى فى ختامها دعوته للعمال السويسريين إلى إعلان الإضراب العام، وضرورة اللجـوء إلى استخدام شتى أدوات القوة والعنف ضد الحكومـة لاستعادة حـقوق العمال التى يلتـهمها أثرياء سـويسرا، فضلاً عن دعوته لمقاومة السلطات السـويسرية إذا هى تصدت لثورة العمال أو أرغمتهم للعودة قسراً إلى أعمالهم.

كانت هذه الخطبة الحماسية هى القشـة التى قصمت ظهر البعير، وأدت إلى توسيع هوة الخلاف والشقاق بين الشرطة السويسرية وبنيتو موسولينى الذى ألقى

القبض عليـه عقب انتهـائه منها وإيداعه فى زنزانتـه داخل أحد سجـون مدينة برن.

ولما أعلن نقابات العمال استياءها وزمـجرتها من تعسف الحكومة السويسرية وانتهاكها لحقوق الإنسان، وانـقلابها على الحرية التى تعلن من حين لآخر أنها لا تنوى التـخلى عنها، وأنهـا فى سبيـلها لتطوير قـواعدها، وتحديـث أدواتها ونظمها اضطرت الحكومة أمام مطالب العـمال وصرخاتهم إلى إطلاق سراحه على أن يغـادر البـلاد فـور اعـتـقـاله لخطورته على الأمن العـام والسلم الاجتماعى.

وبالفعل لم يكن قد مضى على اعتقاله أكثر من خمسة عشر يوما حتى كان بنيتو حراً طليقا بيد أنه وجد نفسه ملقى على قارعة الطريق الحدودى لكياسو.

* * * *

وحيث إن قـرار السلطات السويسرية كـان جاداً وصارمـا فقد اضطر بنيـتو موسولينى إلى العودة قسراً لبلاده إيطاليا لرؤية أفراد عائلته التى غاب عنها طيلة سنوات بقائه فى سويسرا، ومن قبلها أثناء الفتـرة التى اشتغل خلالها معلما فى إحدى المدارس الإيطالية البعيدة عن مسقط رأسه الأصلى.

عاد بنيـتو إلى «دوفيـا» القرية التى شهـدت صفولته التـعسة، فـارتمى فور وصوله فى أحضان أمه الحنون التى ادهشها منظره الغريب، حيث كان قد بدت عليه ملامح رجل يافع كأنه يعول، حـيث كان شعره الأسود الناعم اللامع قد تساقط، وقد كان ذا شارب أسود غيـر مهذب، وكث اللحية السوداء، وتحيط

عينيه هالة من السواد، ولون وجهه لا يخلو من الشحوب والاصفرار، وجسده هزيل تفوح منه رائحة كريهة، وقد علل ذلك لولدته بأنه عانى وعثاء السفر وسوء الحال.

لكن أقرب الناس إليه لا سيما عشيقاته قد روت أنه كان يكره الاستحمام بقدر كراهيته للفقر والاغنياء، وأنه يندر أن يغتسل، كما يندر أن يتذوق أشهى المأكولات.

خلاصة القول أن الأم روزا كانت قد لمحت معاناة ولدها بنيتو، وراحت تناشده أن يبقى بجوارها حتى يسترد عافيته ويستطيع تدبير نفقات شراء ثياب جديدة له، بدلا من تلك التى كانت رديئة، وقد أكد لها فى معرض حديثه معها أنه كان يعيش حياة طيبة وكريمة فى بيرن لولا أن السلطات السويسرية اعتقلته لكان الأمر قد تغير وبات أمامها فى مظهر لائق، على عكس ما هو عليه الآن.

ورغم توسلات الأم المسكينة بالبقاء معها أصر بنيتو على مغادرة إيطاليا قبل أن تستدعيه الشرطة الإيطالية لضمه إلى القوات المسلحة الإيطالية التى كانت تتعرض لحروب ومعارك طاحنة، وأزمات جوع وأوبئة أبادت آلاف الجنود، الأمر الذى دفع عشرات الآلاف من الشباب الإيطالى إلى الهروب لسويسرا وفرنسا وألمانيا بأنفسهم من جحيم الجيش المستعمر.

من هذا المنطلق عاد بنيتو موسولينى إلى سويسرا على أمل العيش بها آمنا سالما مطمئنا بدلا من حياة الفوضى والبهيمية التى كان يعيشها من قبل متعهدا

لنفسه، لا يتصادم على نحو أو آخر مع السلطات السويسرية، وأن يسعى جاهدا للحصول على فرصة عمل تليق به.

ولكن بنيتو الذى اعتاد على حياة الصخب والقلق والضجيج والمتاعب والمصاعب ما كان ليهدأ أو ليستكين، ومن ثم عاد لممارسة هوايته المحببة لنفسه، وراح يشن هجوما كاسحاً وعنيفا ضد الحكومة السويسرية مرة أخرى كأنه قد تاق إلى هتافات الجماهير وحشودها الغفيرة وصياحاتها المثيرة: برافو موسولينى.. برافو يا رسول العنف.. برافو أيها الشجاع..

ولأن السلطات السويسرية قد ضاقت ذرعا بما يتفوه به موسولينى مع تزايد أعداد المهاجرين إليها من شباب إيطاليا وما يمكن أن يسببه ذلك من تأثير على سلامة البلاد واستقرارها فقد اضطرت إلى اللجوء لممارسة سياسة القمع والقهر لا سيما مع الأجانب الذين لا يبالون بما يمكن أن تتعرض له سويسرا إزاء الفوضى التى تجتاحها على يد موسولينى وغيره من الذين لاذوا جميعا بالهرب من روما خوفا من الانضمام للجندية الإيطالية.

ومن ثم وجد بنيتو موسولينى نفسه محمولا كالكبش بين يدى شرطة بيرن لإيداعه السجن عقابا له على خطبه الهجومية والحادة ضد السلطات السويسرية وكأن موسولينى سعى إلى ذلك لتذكير الشعب السويسرى والعمال بتاريخه القديم، وحتى يستعيد نشاطه وحيويته ونفوذه وشعبيته بين العمال السويسريين.

* * * *

الفصل الثالث

صعود الدوتشى الطاغية

وفى مطلع عام ١٩٠٥ أطلقت السلطات السويسرية سراحه على أمل أن يلتزم بقوانين البلاد والانصياع لتوجيهات سلطاتها، وألا يثير الشغب مرة أخرى.

ولكن بنيتو موسولينى لم يكن يأبه بالسجون، حيث كانت تمثل له مسكنا آمناً ودافئاً يحميه من زمهرير الشتاء الجليدى القارس، ومطعما يذوق فيه أطيب وأشهى أنواع المأكولات التى لا يستطيع تناولها خارجه، وإن كان بالطبع يتوق إلى الحرية والانطلاق.

لكن الواقع أن موسولينى كان يهوى الاعتقال لتزايد شعبيته، حيث كانت الصحف والمجلات السويسرية والأوربية تتناول سيرته وتتعرض تفصيلا لحياته، وتتصدر صوره صفحات وأغلفه الصحف والمجلات بوصفه الثائر الاشتراكى العنيف الذى تتأجج النيران بداخله، أملاً فى الإصلاح والتنمية والبناء والاستقلال والمساواة، وشعارات أخرى لوح بها موسولينى كثيراً فى خطبه الرنانة والحماسية الملتهبة.

خرج موسولينى من السجن هذه المرة للعمل داخل سويسرا على عكس ما كان يتصور أن السلطات السويسرية سوف تطرده، كما سبق لها أن فعلت ذلك فى المرة الفائتة.

ويبدو أنه فى محبسه قد تدبر أمره، وفكر مليـا فى مصيره ومستقبله، وهل سيظل ضـيفا على معـتقلات سويسرا بصـورة دائمة دون أن يتقدم قـيد أنملة للأمام فى تنمية وبناء شخـصيته وتثقيفها من أجل الارتـقاء بها طالما أنه يتمسك بالانغماس فى العمل السياسى والنقابى والاجتـماعى الذى يعتمد على مخاطبة الجماهير والتواصل معهم على كافة مستوياتهم.

على إثر هذا الطرح الذى لاقى قبـولاً لدى بنيتو انكب على قـراءة العديد من المؤلفـات الأدبية والـفلسفـية والسـيـاسيـة، وراح يتلقى دروسـا فى تعلم واكتسـاب اللغات الألمانية والفرنسـية والإنجليزية والإسبـانية مقابل اشـتغاله فى تعليم اللغة الإيطالية للآخرين.

لم تقـتصر خطـة نهوضه علـى هذا الأمر فحـسب، بل إنه تقـدم بأوراقه لاستكمال دراسته فى جامعة لوزان السويسرية حيث لا ينبغى أن يكتفى بشهادته المتوسطة التى نالها من إيطاليا.

وطبيـعى أن أحلامه وطموحـاته وآمانيه وتطلعـاته السياسـية قد دفعـته إلى الانكفاء على نفسه لدراسـة ورصد قدراته العلمية والتثقيـفية، ومن ثم انغمس فى التحصيل والاكتساب على نحـو سريع بدا شاذا لمن حوله ممن كانوا يرقبون خطاه.

والواقع أن بنيـتو كـان عـجولا مـتسـرعاً مـهـرولاً فى الحصـول على أية معلومات، ظنا منه أن الوقت قد ينفد، وأن فرصة صعوده قد تضيع، وأحلامه قد تتبخر.

من هنا كان صاحبنا قد انضم لتعلم الدروس السياسية في جامعة صيفية خلال فترة الصيف، فلم يكن يكتفى بما يتلقاه من علوم ودروس فى مرحلة فصل الشتاء ، على أن يتولى فى المقابل تدريس اللغة الإيطالية لطلبة الجامعة أثناء العطلة الصيفية.

كان الشاب النابه المتلهف يملك حينئذ القدرة على ترجمة بعض الكتب سواء الأدبية أو الاجتماعية أو السياسية، وهو ما دعا بعض دور النشر فى جنيف للاستعانة ببراعته وموهبته فى هذا المجال، ومن ثم تفرغ لترجمة العديد من المؤلفات المتنوعة نظير مبلغ من المال لمواجهة أعباء الحياة ومتطلباتها، والنهوض بمستواه المعيشى بعد معاناة طويلة وأزمات ما كان يحلم بزوالها يوما ما.

أضف إلى ذلك قدرة بنيتو موسولينى على كتابة المقالات للعديد من الصحف السويسرية، ودعم شهرى كان يتلقاه من أسرته وبعض معارفه من الميسورين فى إيطاليا وسويسرا مساعدته فى مواصلة مشواره، بعد أن تنبه هؤلاء جميعاً لذكائه وبراعته وطموحاته.

وبعد أن استكمل بنيتو دراسته فى جامعة لوزان قرر على نحو مفاجئ لمن حوله العودة إلى إيطاليا مرة أخرى، لا سيما وأن ملك إيطاليا قد أصدر مرسوما ملكيا يقضى بالعفو الشامل والعام عن جميع الشباب الذين هربوا خارج إيطاليا تفاديا للانضمام إلى الخدمة العسكرية بعد أن أنجب طفلاً يرث عرش البلاد خلفا له.

كان بنيتـو فى تلك المرحلة يدور فى حلقة مفرغـة، حيث كان متـسرعا فى الصعود إلى القمة، ثم سرعان ما اجتاحـته موجة من اليأس والانهزامية دفعته لاتخاذ قرار يلزمه باعتزال الحياة العامة فـى سويسرا، وحزم حقيبته للعودة إلى أحضان أمـه وأشقائه بعد أن استبـد به الغضب لتردى أحواله المعيـشية، وندرة العملات النقـدية، الأمر الذى قد يعود به قسراً إلى سنوات الشـقاء والعذاب والجوع، وهو لـم يعد على استعداد لمعايشتها مرة أخرى.

لكن موسـولينى لم يكن يعرف أنه قـد بات ذائع الصيت واسع الانـتشار، حيث تصدرت صوره بعض صفحات الصحف الإيطالية التى كتبت عن تاريخه ومواقفه النضالية فى سويسرا، ودوره فى إبراز وصعود حركة النقابات العمالية، ومظاهرات الاحتجاج الغـاضبة ضد الحكومة السويسرية، واسـتعرضت مرات اعتـقاله إثر هجـومه الضـارى على الحكومة السـويسرية، وطرده إلى إيطـاليا، وكشفت النقاب عن أفكاره العنـيفة المتشددة سواء كانت السيـاسية أو الدينية أو الاجتـماعية، وسـخطه ونقمتـه على الأثرياء الذين كان يطالب بالقضـاء عليهم والتخلص منهم ومن شرورهم.

كان لافتا للانتباه مـا تصدر مانشيتات الصحف الإيطالية، لا سيـما صحيفه تدعى «لاتريبونـا» التى تحدثت عنه وكأنه أحـد أبطال روما ورمـز من رموزها السيـاسيين، وأن قـدومه لإيطاليـا قد يثـير بعض المتـاعب وأحداث الفـوضى والشغب لما يتحلى به من قدرة على تحريك الجماهير متى أراد وأينما حل.

وكان بنيتو موسـولينى يستطيب هذه المقالات التى أعلت من شأنه، وزادت من مكانتة، وهيأت له مناخا لم يكن يتصوره الأمـر الذى دفعه لمعاودة التفكير

مرة أخرى فى العودة إلى العمل السياسى بعد أن أصبح نجما لامعا يتصدر صفحات الجرائد وحديث الصالونات والمنتديات بوصفه زعيم الجالية الاشتراكية الإيطالية فى سويسرا، ومن ثم إيطاليا أيضاً التى اكتشف أنها الأحق بأفكاره ودعوته لتحرير أهلها من الأوضاع الجائرة فى ظل الملكية المستبدة.

* * * *

وفى أعقاب وصول بنيتو إلى دوفيا قرر مشاركة والدته فى مدرستها التى لازالت تتمسك بها، على اعتبار أنه مصدر العيش والحياة لها ولأشقائه، وقد أبدت والدته روزا حفاوة بالغة بهذه الفكرة بعد أن افترسها مرض الالتهاب السحائى، وراح ينهك قواها يوما بعد يوم.

لكن بنيتو كان على يقين أن (دوفيا) لن تكون محل إقامته وقاعدة انطلاقه، وأن شعلة أحلامه مهما خبأت فستظل متوهجة مستعرة تتأجج بنرانها فى رأسه، وأن بقاءه فى مسقط رأسه إنما هو لحظة لالتقاط الأنفاس، أو استراحة محارب آن له أن يستريح بعض الوقت حتى يتمكن من معاودة قتاله ونضاله.

وأن مشاركته لولداته قد تكون تمويها للحكومة الإيطالية وخداعاً لها، لكنه ظل كعادته مشغولاً غارقاً حتى أذنيه فى تفعيل أفكاره، لاسيما وأنه كثيرا ما تملكه الغضب إزاء بعض المواقف والمشاهد التى روعته وأشعلت فى صدره نيران الكراهية والحقد.

كان موسولينى يكره رؤية الأثرياء كراهية لا حدود لها، ومن ثم كان كثيرا ما يصرخ فى وجه زملائه وأصدقائه قائلاً فى حدة وعنف: أنا لا أطيق رؤية

هؤلاء الأثرياء الأوغاد. . . الى متى سوف أظل أتحمل رؤية هذا الظلم والقهر يا سادة! أنا بنيتو موسولينى، أشكو شظف العيش ومتاعب الحياة، وهؤلاء الخنازير ينعمون فى أطايب الطعام اللذيذ الشهى يا له من عار!! أين العذراء، ألم تكن تعرف ما سوف يجرى لأتباعها؟ ألم أقل لكم إن المسيحية مصدر جوعنا وشقائنا!!.

* * * *

ظل بنيتو يعمل بجانب والدته داخل مدرستها الخاصة، وقد كان معلما فاشلاً، حيث عجز عن إدارة شئون المدرسة بعد أن لازمت أمه الفراش إثر استفحال مرضها الخطير.

وكان ضيق الصدر لا يكف عن السباب وإطلاق وابل من القول الفاحش داخل المدرسة، بعد أن أدرك أن الحياة عادت تعانده وتعصف به بين أمه التى تلفظ أنفاسها الأخيرة وتلاميذ لا يملك القدرة على تهذيبهم، فثارت أعصابه وخارت قواه، وبدا مستسلما لليأس والفشل.

وفى التاسع عشر من شهر فبراير ١٩٠٥ وبينما كان بنيتو يتابع أمور مدرسة والدته سمع صرخة مدوية تنطلق من مسكنهم، وكانت شقيقته إيدفيج قد أطلقت صرخته بعد أن اكتشفت وفاة والدتها، وأن شقيقه أرنالدو ارتمى باكيا عليها يندب حظه العاثر .

كانت عيناه قد اغرورقت بالدموع، وراح يطبع على وجنتها قبلة وداع حانية وهو يصرخ بين أخويه: عذراً يا ماه لم أتمكن من إسعادك، لم أنجح فى

تدبير نفقـات علاجك، لم تسعفنى الحيـاة لأمنحك الراحة والهدوء والسكون، لكنك الآن تنامين فى هدوء وراحة وسكون إلى الأبد.

وراح بنيتـو يبكى على رحـيل والدته المفاجىء وعلى الأحـوال السيـئة التى تنتظره هو وأفراد أسرته البؤساء الذين لم يعد لهم سند يدعمهم ويحميهم بعد رحيل الأم العذبة الحنونة.

ولأن أولياء الأمور كانوا يولون ثقتهم الـغالية فى الأم روزا بوصفها رائدة فى مجال التـعليم، ومعلمة بارعة وإدراية قلما تشـهد لها قرية دوفيا مـثيلاً، على عكس ابنها بنيتو الذى كان ذا نزعة عدوانية عنيفـة وجامحة وقاسية أحجم أولياء الأمور عن إلحـاق أطفالهم فى مـدرسة الأم روزا التى مثلـت خسارة فـادحة لأطفال القرية جميعا.

ومع تدهور الأحوال المعيشـية وتدنى مستوى الدخل لبنيتـو وأشقائه بعد أن أوشكت المدرسة على إغلاق أبوابها راح بنيتـو يلتحق للعمل مدرسا فى بلدة تدعى كانيقا التى تقع فى شمال جبال الألب.

كانت الإدارة المدرسـية قد وافقت على انضـمام بنيتـو ضمن أعضاء هيـئة التدريس بها ظنا منها أن شهرته وموهبـته فى الخطابة وحشد الجماهير يمكن أن ينعكس بصورة إيجـابية على مسـتوى تلاميذ المـدرسة، فضلا عـما يمكن أن يضيفه هو بصيته الذائع إلى المدرسة.

ومع مرور الوقت أدركت الإدراة المدرسـية أن بنيتـو ذاك الثورى العنيف لا يستطيع أن يفرض إرادته ومشيئتـه على طفل داخل فصول المدرسة، حيث كان

كثيـرا ما يبدو شارد الذهـن كسير النفس مـسلوب الإرادة زائغ العينين، على عكس ما كان عليه من قبل.

ورغم هيئتـه القبيحـة وثيابه القذرة، ومظهره الكئـيب، فقد كانت التـلاميذ تعشقه وتجتذب إليه، رغم أن بعضهم كان قد أطلق عليه «قلب الطاغية السفاح» نظرا لقسوته وعنفه ولجوئه إلى استخدام العصا لتأديب المشاغبين منهم.

وأمام ارتفاع أسعار السلع الغذائية راح بنيتو يتفرغ بعد انقضاء اليوم الدراسى لاستقـبال التلاميذ فى مسكـنه لتقويتهم عبر حـصص خاصة نظير مبـالغ مالية زهيدة كان فى أشد الحاجة إليها.

أما بقـيه ساعات الـليل فقد كان يقـطعها فى شراب الخـمور برفقـة زملائه وأصدقائه الذين كانوا يترددون على مـسكنه إذا أرخى الليل سدوله، ثم يتفرغ بعد انتهاء تلك السهرات إلى قراءة الشعر وهو غارق فى نشوته وثمالته.

وكثيرا ما كان يلقى على هؤلاء الرفاق السكارى بعضا من أبيات الشعر على أسماعهم الذين كانوا يتضاحكون فيـما بينهم استخفافا من هذا الذى يلقى أبياتا من الشعر لا تستقـيم مع مجلس اللهو والمجون الذى لم يكن بالطبع يخلو من الخمر والمخدرات والنساء!!

وغنى عن البيـان أن بنيتـو كان عاشقـا للنساء لا يقـوى على مفارقـتهن أو الاستـغناء عنهن، وحتى قـيل أنه كان لا يتـوانى عن اغتـصاب أية فـتاة أبت مشاطرته مـا يريد منها، وقد أصيب خلال تلك المرحلة الطائشـة التى شهدت نزواته بداء الزهرى حتى قـرر الانتحار للتـخلص من حياته، بيـد أنه قد تماثل للشفاء عقب تردده على أحد مشاهير الأطباء.

وعلى الرغم من ذلك لم يكن بنيتو على استعداد للتوقف عن ممارسة تلك الرذائل، بل توحش فى علاقاته الغرامية التى توسعت بصورة لافتة أدت إلى تلطيخ سمعته بوصفه زئر نساء لا يأمن أحد له .

كان بنيتو رغم قذارة مظهره وهندامه الحقير جذابا للنساء، لما عرف عنه من جسارة وشجاعة وفصاحة وقدرة على التأثير، ومن ثم قلما أن أفلتت منه فتاة التقى بها إما طوعاً وإلا قهراً وجبراً.

* * * *

الشاهد أن صاحبنا عادت أمواج الدنيا القاسية تتقاذفه من أعلى إلى أسفل حتى كاد يغرق فى أعماقها حنقا ويأساً وضجراً حيث كان قد ضاق ذرعاً بكثرة القراءة والاطلاع على دواوين الشعر وغير ذلك من المؤلفات الأدبية والفلسفية.

كانت الحياة قد بدت فى عيون بنيتو خاملة تبعث على الكآبة والملل، ومن ثم أراد تحريك مياه بلاده الراكدة بحجر عنيف بعد أن سكنه اليأس، وكاد يستسلم للخضوع وهو الذى كان ملء السمع والأبصار فى مدن سويسرا، وأشعل نيران الغضب ضد حكوماتها، وأضحى بثورته وشجاعته حديث الساعة وعنوان الصحف ومحور الاهتمام الشعبى .

وفى مطلع عام ١٩٠٨ ولدت روح الشجاعة من رحم اليأس الذى كان يعصف به، وأطلق صيحاته عبر خطبه الحماسيه والتى انزوت داخل بلاده لعله من خلالها يوقظ أهلها النيام الذين كانوا يغطون فى سبات عميق، وربما ينبههم إلى أن ساعة الخلاص قد دقت أجراسها.

عاد ابن الخامسة والعشرين إلى مسرح الأحـداث السياسية لتسخينه وإلهاب مشاعر وعواطف الجماهير فى محـاولات جادة لاجتذابهم واستقطابهم والتأثير عليهم وحشدهم فى مؤتمرات واسـعة ومهيبة لنشر أفكاره ومعتـقداته بعد فترة من الركود والخضوع والاستسلام.

ولأن قبضـة النظام الملكى الإيطالى كانت غاشمـة وغليظة فقد كان مـصيره الاعتقال الفورى عقب إطلاق شعاراته وخطبه بيد أنه لم يكن يأبه لذلك، حيث كان يفطن مدى مـا يمكن أن يحصده ويرجه جراء اعـتقاله على يد السلطات الحاكمة، وأن ذلك سـوف يدفعه ليتصدر مسرح العـمالقة الأبطال الذين يشار لهم بالبنان والحفاوة.

بالطبع لن تخلو صـفحات الجـرائد والمجلات وأحاديث المقـاهى والمنتديات والصالونات من ذكره ومتابعة أخباره بوصفه زعـيماً ثورياً اشتراكياً وطنياً يسعى جاهد إلى تحـرير بلاده ونهضة أهلها البـؤساء الذين أجهدهم الفـقر، وأذلهم الجوع، فيما ينعم قلة منهم على نحو يخلو من العدل والحق والإنصاف.

* * * *

بعد انقضاء فترة العقوبة التى قـضاها داخل السجن توجه إلى النمسا بإيعاز من أصدقائه وبعض معارفه الذين نصـحوه بتوخى الحذر إذا أصر على البقاء فى إيطاليا حيث إن السلطات قد تقضى على مستقبله تماما إذا هو تمسك بانتهاج سياسته العنيفة المتطرفة.

ولأن بنيتو كان يثق فى آراء ونصائح أولئك الذين حذروه من مغبة بقائه ثوريا فى إيطاليا اضطر إلى الانصياع والاستجابة لمطالبهم، وراح ينتقل على الفور إلى مدينة تورنتو التى كانت فى تلك السنوات تتبع بلاد النمسا.

وهناك كان حشـد من زملائه وأصدقائه وممن لا يعرفونه إلا عـبر الصحف وأحاديث الشـوارع قد استقـبلوه استقبـالاً رائعاً حاشـدا على رصيف القطار، وكأنه زعيم أجبرته سلطات الاحتلال على الذهاب إلى المنفى.

وفى أعقاب وصوله تولـى وظيفة مرموقة داخل نقابه العـمال التى كانت فى حاجـة إليه لتحـريك ثورة عمالهـا، وإشعال لـهيبـهم ليحرق صـدور الأغنياء الرأسماليين الخنازير، على حد وصفه لهم.

ومع تنامى دوره النقابى وصعود نجمه فـى العلا تولى منصبا آخر فى إحدى الصحف الاشتـراكية التى كانت تدعى جـريدة «مستقبل العـامل»، التى كانت أهم وأبرز الصحف اليـسارية المعبرة عن ضـمير ورؤى الأحزاب والجـماعات الثورية الاشتراكية.

أدى انتشار مـقالاته النارية إلى إقبـال جماهيرى غـير مسبوق علـى شرائها وتوزيعهـا، الأمر الذى أدى إلى أن تلقى دعوة من صـحيفـة تدعى «البوبولو» اليسارية أيضا والتى كـان يترأس تحريرها سيزاباتيستى اليـسارى المعروف، وقد لاقت الصحيفة انتشاراً واسعاً لم تشهده من قبل.

وعلى ضوء نجاحاته المتـوالية فى العمل السياسى العام راح بنـيتو يلبى دعوة أخرى تلـقاها ذات مسـاء من جريدة «حـياة تريتتـينا»، وقد كـانت تتبـع أيضا سيزاباتيستى الذى أراد توظيف شعبيته الجارفة فى زيادة توزيع صحفه وانتشارها قبل أن ينزوى أو تعتقله السلطات النمساوية،

ومضى صاحبنا يدك حصون الأثرياء ورجال الدين عبر مقالاته العنيفة والخطيرة حتى أن أحداً لم ينج من سعيرها ولهيبها.

هاجم فى صدر مقالاته النارية أولئك الذين اتهمهم بمحاباة ومجاملة الرأسمالية البورجوازية على حساب الأمة المقهورة، والذين يقدسون القومية والوطنية، وغيرهم ممن أسهم بعيدة الزعيم الثورى الإيطالى مازين.

وقد جرت العادة فى خطبه بتوجيه سهام نقده نحوهم بوصفهم خونة الطبقة العمالية التى كانت تنتظر منهم مواقف وطنية تصب فى صالحهم حتى يتخلصوا من فساد تلك الطبقات التى يباركونها ويحتفون بها وينقاقونها.

كما هاجم التأثيرات التى أحدثتها الكنيسة الكاثوليكية التى كانت واسعة النفوذ آنذاك فثار منها موسولينى، وشن هجوما كاسحا، حتى أنه قد شبه الكنيسة الكاثوليكية فى مقالاته (بالجثة العفنة)

وهل كان الفاتيكان عصيا على قلمه الحاد؟! كلا، بل راح يقذفه ويمطره بوابل من نيرانه الحمراء الملتهبة واصفا المقر البابوى الرهيب والمؤثر فى معتقدات أوروبا بأنه ملجأ التطرف والجمود ووكر يفوح بالبخور لإخفاء معالم سكانه اللصوص والأفاقين والكذابين.

وكما هو وارد حدوثه زجت السلطات النمساوية بنيتو ذاك الفوضوى العنيف إلى غياهب السجن لعله يرتدع، بيد أن ذلك كان يدعم موقفه، ويقوى عزيمته ويصلب عوده أمام جماهير أمته التى كان يشجيها سماع أخباره الثورية وعدائه للحكومات، وتردده الدائم على المعتقلات، وجسارته النادرة، وشجاعته الفائقة وخطاباته الساخنة، وصوته الجهورى، وطبقاته المثيرة، وصيحاته الشهيرة،

وشعاراته الأثيرة، ونبـراته الساحرة التى كانت تدفع سامعيه إلى التـصفيق الحاد والعنيف.

وبعد عام أو أقل من ذلك بنحـو ثلاث شهور أفرجت السلطات التـمساوية عنه، وألزمته بالعـودة الإجبارية إلى بلاده كى تأمن من شروره، وتهـدأ حركة العمال التى سكب عليـها نفطا وألقى عليها عود ثقاب فـأضرم حريقا شب فى أرجاء الأمـة النمساوية لتى لم تكن تتـحمل مثل هذا الـعبث والجنون والعنف اللامعقول.

* * * *

الفصل الرابع
زواج موسولينى

ما من شك أن موسـولينى الذى بلغ عامه السابع والعشرين كـان فى حاجة ملحة إلى زوجة تحـتويه وتغدق عليه بعطفهـا ورقتها وحنانها ودفء مـشاعرها وطيبة قلبهـا، حيث عانى طويلا من فقدان تلك الأحاسـيس لابتعاده الطوعى والقسرى عن والدته وأشقائه.

ناهيك عن والده ودوره المفقود فى حيـاته، حيث انغمس الأب ألساندر فى ملذاته ونزواته ومغامراته النسائية التى وهبها حياته وماله بعيدا عن أسرته البائسة التى تركها تشكو غائلة الجوع، وتتوجع من أنياب الفقر المتوحش.

وكان طبيـعيا أن يمقت والده ولا يطيق رؤيته، لمـا ارتكبه فى حق أسرته ولا سيمـا بعد أن غادر البيت غـير عابئ بمسئـوليته نحوه، وقـد ألقى على كاهل زوجته الرائعـة روزا مهام مواجـهة الحياة ومـقاومتها دون أن يكلف نـفسه عناء السؤال عن أحوالهم، وإلى أين تتقاذفهم الأمواج بعد أن أخلى سبيله منهم.

على أية حال قـرر بنيتو موسولينـى العودة إلى بلاده امتثالا لـقرار الحكومة النمساوية، ومن ثم راح يتـساءل فى نفسه، وكثيرا مـا كان يفعل ذلك بصوت مسموع، وعبر حركات وإشارات تثير الدهشة والاستغراب لمن يبصرها.

تساءل بنيتو إلى متى سيظل هكذا عربيدا ثملاً حائراً تائهاً شارداً؟ وإلى متى سيظل يـتناول هذا الطعام الرديء؟ ويرتدى تلك الثـياب القـذرة الحقـيرة التى

أمست مـثار نقد بعض رفـاقه الذين ساءهم مظهـره القبيح الذى يتـعارض مع زعامة وليدة يترقبها الجميع ويعقدون عليها آمالهم.

ثم إن شهرته الذائعة فـى اصطياد النساء عبر وسائل متنوعـة، وتميز مسكنه بوكر الغانيات اللاتى يترددن عليه لممـارسة الرذيلة وتعاطى الخمور والمحرمات، كاد كل هذا يقـضى على مصيره ومـستقـبله، لا سيما وأن من حـولهم كانوا يخشون على زوجـاتهم من ممارساته الفجة والعنيـفة، والتى لم يكن يتورع فى القيام بها فى سبيل إشباع رغباته.

إذن أدرك بنيتو أن سمعته السيئة قـد تحول بينه وبين معارفه وأصدقائه وكبار السـاسة، ومن ثم قـرر أن يتزوج من أجل أن يـنعم بالراحة والمتـعة والهـدوء والاستقـرار والطمأنينة، وحرصا على مـستقبله السـياسى ومصيـره فى قيادة إيطاليا، تلك الرغبة التى تتملكه منذ نعومة أظفاره.

ومع عودته إلى إيطالـيا علم بنيتـو أن والده قد تردد على مسكن شـقيقـته مرات عديدة للاطمئنان على أحوالهم بعد وفاة الأم روزا.

كان بنيتـو يتوق إلى رؤية أبيه واحتضـانه، حيث كانت الهجـرة إلى سويسرا والتمسا والسجون قد باعدت بينهـما دون أن يكلف أحدهما نفسه البحث عن الآخر، حيث كان الأب لا يزال مفعما بالقـوة والحيوية، لاهثا وراء عشيقاته لا يفيق من الشراب، بينما كان بنيتـو يبحث عن بصيص أمل يقهر به اليأس الذى يحاصره ويلف سلاسله حول عنقه.

أضف إلى ذلك أن كليهمـا لم يكن فى حاجة إلى الآخر؛ حيث كـان بنيتو إذا مـا ضاقت به الـسبل عـاد يرتمى فى أحـضان الأم روزا، بيـنما كـان أبوه

ألساندرو يرتمى فى أحضان عشيقاته يلتمس منهن ما افتقده من الزوجة الحكيمة المناضلة روزا.

وحين غابت الأم روزا عن الدنيـا وانحنى ظهر الأب، وتجلت على ملامح وجهـه خطوط الزمن وتجاعيـده وخرائطه وتضاريسه، وزهـد عشيقـاته بعد أن اكتـفى بواحدة منهن، ظل يقضى مـعها سنوات عـدة بعد أن منحته مـا كان يبحث عنه مع غيرها من غانيـات إيطاليا، عاد يبحث عن دفء أولاده ويتحرى مصيرهم مدفوعاً بعاطفة الأب المسكونة فى صدره المتجمد.

* * * *

كانت عشيقة الأب أليسـاندرو تدعى أناجويدى، تلك الشقراء الجميلة ذات القوام الفـارع والعيـون الزرقاء ،والتى كـانت متـزوجة من قبل أن تلـتقى مع أليسـاندور، وقد أثمرت علاقـتها خمـسة من الأطفال تولى الأب أليـساندرو رعايتهم وتربيتهم والإنفاق عليهم نظير الاستحواذ على قلب والدتهم والاستئثار بعواطفها، والسيطرة على مشاعرها، وهو ما كان.

ومن خلال شقـيقه أرنالدو ذى الطباع الهادئة التى تخـتلف جذريا عن طباع شقيقه علم بنيتو أين يقطن والده وكيف يمكنه أن يتوجه إليه.

ولأن أرنالدو كان يرتاب فى شأن شقيقه بنيتو وما يمكن أن يسببه لوالده من إزعاج وقلق فقد ناشده أن يتسم معه بالأدب والذوق حرصا على كرامة الأب أليساندرو، وحفظا على هيبته.

والواقع أنه لم يكن إلحاق الأذى أو تقـريع والده كما ظن شقيـقه، بل كان يسعى لرؤيته بعد أن استـبد به الشوق وتملكه الحنين إلى رؤياه، وتجاذب أطراف حديث طويل يجمعهما معاً.

وفى مدينة «فورلى» طرق بنيتو منزل والده وعشيقته، وإذا بفتاة طويلة شقراء تتمتع بملامح جذابة تتصدر باب لمنزل تسائله فى إباء واستعلاء: من تريد وعما تبحث؟!

كان بنيتو عاشق النساء وصائدها قد انكمش وتضاءل أمام تلك الفتاة الحسناء الساحرة حتى إنه تلعثم فى الرد على أسئلتها حيث بدا وكأنه فى مقتبل سن المراهقة، وراح يتصبب عرقاً. وهو يقول فى هدوء غير معهود ممن كان على شاكلته.

مساء الخير أيتها الفتاة الجميلة؟

فأجابات فى كبرياء مصطنع: أهلاً بك، من أنت؟

فقال بعد أن استرد هيبته وثقته واعتزازه الذى اعتاد عليه .

أنا بنيتو أليساندرو، جئت أبحث عن والدى، فكم أنا مشتاق إليه، صاحت الفتاة وقد بدت عليها ملامح البهجة والغبطة قائلة:

آوه. . .أنت بنيتو، كم حدثنى العم أليساندرو عنك؟ وقد سمعنا كثيرا عن مغامراتك وصولاتك وجولاتك. . هلا تفضلت؟ كم أنا سعيدة لرؤياك يا إلهى كاننى أحلم. . تفضل. . تفضل. . يا سيد بنيتو.

وانطلق صاحبنا كالسهم إلى البيت بعد أن استرخى على أحد المقاعد فى انتظار قدوم الأب الذى تاق إلى رؤيته.

وخلال دقائق أمضاها فى صالون البيت مرت دهراً يتحسس فى خياله وجه أبيه، ويطوف بعينيه فى سنوات الطفولة وذكرياتها الجميلة والأليمة التى جمعته

بالأب الهارب اللاجئ إلى بيوت العشيقات بحثا عن الحب وفراراً من المسئولية..

وبينما كان بنيتو غارقا حتى أذنيه فى ذكرياته ظهر أمامه الأب الذى ارتمى كالحصان الجامح فى أحضانه يمطره بقبلاته ويربت على كتفيه كأن بنيتو الأب وأليساندرو الابن.

وتسابقت الأسئلة على لسان كل منهما دون أن ينتظر أى منهما جوابا شافيا وافيا كافيا، الأمر الذى دعا الأب إلى مطالبة ابنه بقضاء الليل معه لحين بزوغ شمس الصباح حتى يطمئن على مستقبله، ويقف على حقيقة ما سمعه من جيرانه حول دوره المرتقب وزعامته للطبقات العمالية البائسة التى تبحث عن زعيم يعبر عن آمالها ومطالبها، ويلبى رغباتها وتطلعاتها.

* * * *

أما الحسناء التى استقبلت بنيتو فقد كانت هى الابنة الصغرى للسيدة آنا جويدى عشيقة الأب أليساندرو وتدعى راشيل، كانت تناهز السادسة عشرة من العمر.

ويروى أن بنيتو كان قد تعرف على شقيقتها الكبرى أوجست بيد أنها قد روعها عنفه وبطشه وتصرفاته المجنونة الطائشة، وأن حياته المتغيره وتصرفاته الهمجية لم تكن تروق لها، ومن ثم أنهت علاقتها به قبل أن تتوسع ولا تستطيع الفكاك منها فى لقاء عابر قبل أن تغادر مع أسرتها قرية (دوفيا).

الشاهد أن بنيتو فاتح والده فى أمر هذه الفتاة، بيد أن الأب أفهمه أنها فتاة عنيدة مثل أمها، لا تتواءم مع مزاجه الحاد، حيث ينبغى عليه أن يقترن بفتاة هادئة الطباع، على عكس راشيل التى تتصرف بعفوية تثير الغيظ.

لكن بنيتو كان قد قرر دون تراجع الزواج من راشـيل لا يعبأ بمزاجها الحاد الاستفـزازى أو طباعها العنيدة أو كـبريائها المزيف، أو أية عيـوب أخرى قد لا تتراءى أمامه مستقبلاً.

من جهته طالبه الأب بالتريث حتـى يتعرف على والدتها، لا سيما وأن الأم آنا كـانت هى الأخرى تـتصف بالغطرسـة والاسـتعـلاء، وربما لا تطيب لهـا شخصية بنيتو.

لكن متى كان صـاحبنا يبدى اهتماما بـتلك اللعوب التى كانت وراء هروب والده من بيتهم وتسببت فى تدمـير معنويات تلك الأسرة وألحقت الأذى بالأم العظيمة التى كافحت وناضلت وجاهدت فى سبيل تربية أولادها دون أن تلتقى بأحدهم للإنفاق عليها وتدبير لوازم معيشتها كما هو حال السيدة آن جويدى.

كان بنيـتو لا يبالى بمـا يمكن أن تبوح به هذه السيـدة المتسلطة؛ حـيث إنها تفتقد فى تقديره مظاهر التبجيل والاحترام، وتفتقر إلى مقدمات العزه والكبرياء التى كانت تتحلى به والدته وغيرها من نسـوة القرية اللاتى أذهبن حياتهن فداء لأطفـالهن، على عكس تـلك التى كـانت ترتمى فى أحـضـان هذا وذاك ثم سرعان ما انتهى بهـا المطاف لتستقر بعد معاناة من الأصـدقاء والعشاق للعيش مع الأب أليسـاندرو الساذج الذى راح يرعى مصالحـها على حساب مـصالح أسرته وأطفاله الصغار!!

المهم جاءت الأم أن جـويدى بقامـتها الفـارعة وشـعرها الأصفـر وعينيـها الزرقاون حتى همس فى نفـسه قائلا ما أروعك يا أبى.. لقد كنت مـحقاً فى الهرب.. أوه إنها ملكة وليست مجرد امرأة، وراشـيل ابنتها أميرة تستحق أن

تتبوأ العرش وتتـزين بتاجه.. اللعنة أيها الفقر، اللعنة أيتهـا الحياة.. أمى ماتت صريعـة الفقر وها هى جمـيلة الجميلات باعت نـفسها للشـيطان للإنفاق على أطفـالها.. مـا أفظع هؤلاء الأثريـاء الخنازير الذين لا يبـالون بنا.. الموت لهم جـمـيعـا ومن قبلـهم رجال الدين الذين لا يـتورعـون عن نشـر الخرافـات والأساطير!!!

فجأة تنبـه بنيتو أن الأم آن تمد يدها الناعمـه لمصافحته، فنهض من مـقعده صائحا فى أدب غير معهود.. مسـاء الخير.. مساء الخير.. ثم استطرد قائلا ببلاغـة فيمـا تلاحقـه نظرات الأب التى تنطوى على إعجـاب بالغ: أرجو ألا أكون ضيـفا ثقيلا علـى بيتكم الجميل، فـقد استبـد بى الشوق وتملكنى الحنين لرؤية هذا الأب الذى لاذ هاربا من فرط جمالك..

أطلقت آن جويدى ضـحكة مدوية هزت أرجاء غرفـة الصالون وعلى أثرها عاد يقول بعد أن باركت كلماته بضحكتها المجلجلة.

الآن فقط يا سيـدتى أستطيع أن أقول كم كان والدى على حق حين رفـعته رياح الحب الجارف وراء جميلة جميلات إيطاليا وأوروبا.

ثم فى حركة مـسرحية التـفت بنيتو نحو أبيه قـائلاً: من حقك يا والدى ألا تهجـر «دوفيا» فـحسب، بل لو كنت قـد هاجرت الدنيا كلـها من أجل تلك السيدة ما كان لأحد ليومك، فما أروع العيش معها.

فى تلك الأثناء كانت راشيل تلك الفتاة لصغيرة تترقب ما يجرى داخل غرفة الاستقبال، وقلبها يكاد يطير فـرحا وطربا لرؤيتها هذا الشاب الجسور الذى بات حديث إيطاليا كلها.

كمـا أنها قد ارتاحت لضحـكات والدتها وسعادتهـا بكلماته العذبة الحـانية الرقيقة التى لم تكن ينتظرها أحد أو يتوقعها ممن عانى وكابد الأهوال والمصاعب لمجرد أنه ابن رجل هرول وراء شهواته!!

وفى تلك الليلة أمرت الأم ابنتـها أن تهيىء مكاناً لبنيـتو حتى تلوح تبـاشير الصباح بيد أن صـاحبنا قد قرر ألا يغادر هذا البيت إلا وبرفقـته راشيل زوجة ولن يرضى بغير ذلك سبيلاً ومسلكاً.

وأسرعت راشيل تجهز غرفـة النوم لبنيتو الذى راح يتجاذب أطراف الحديث مع والده وعشيقته حول سنوات كفاحه ونضاله فى سويسرا وأسباب اعتقاله، ثم الأحداث الدامـية التى عـاشهـا فى النمسـا وإيطاليا، وراح يسـتعـرض آماله وطموحـاته وما يريد لهذا الوطـن، وما يجب أن تنتهـجه بلاده من سيـاسات تعتمد على العدالة الاجتماعية المفقودة.

كان حديث بنيتـو يسحر الألباب ويثير عاصفـة من الإعجاب، وهو ما أدى إلى شـعـور بالراحة والأمـان والطمـأنينة سـرى فى نفس آن جـويدى، ولولا مخـاوفها من غلظتـه ووحشيـته فى معـاملته مع الآخـرين لكانت قد بادرت وقدمت له ابنتها راشيل، لكنها تذكرت موقف ابنتها الكبرى «أوجستا» التى أبت عليه، وتعللت بخشونة طباعه وغلظته التى تبدو جلية فى حديثه وتصرفاته.

وبعد سـاعات طويلة تحـدث خلالهـا عن مشـوار حياته وهو يتـناول طعام العشاء الـفاخر الذى أعدته الفتـاة الرقيقة راشـيل توجه إلى الغرفة التى هـيأتها راشيل وهى تصطحبه إليها وهى تتأمله وتتـبادل معه نظرات لا تخلو من التعبير عن الإعجاب والراحة والقبول والاطمئنان.

بالطبع كانت راشيل فى حاجة إلى رجل تتوافر فيه صفات الشجاعة والبأس والإقدام بوصفها أصغر بناتها، وقد نشأت وترعرعت بعيدا عن كنف أب حقيقى، حيث إن الأب أليساندرو كان أبا مزيفا، وهو شعور لم يكن يفارق تلك الفتاة التى تفتقر لمن يحتويها ويبث الطمأنينة فى نفسها، وهو ما لم تلمسه من والدها الذى لا تعرف عنه شيئاً ولا تستشعره من عشيق والدتها الذى باع نفسه وأسرته أسيراً لجمال والدتها الطاغى.

كانت راشيل تعلم أن حنو الأب أليساندرو ما كان ليفعله سوى لإرضاء والدتها، وإلا إذا كان ذلك كذلك كما يريد أن يوهمهم بحنانه ودفء مشاعره لادخر ذلك لمن يستحقون كزوجته وأولاده الثلاثة الذين تضوروا جوعاً مع رحيله المفاجئ.

فى تلك الليلة الحالمة وبينما كانت راشيل تتقدم بنيتو نحو غرفة نومه وقفا معا على بابها يتبادلان الابتسامات الصافية الصادقة العذبة والنظرات التى يملؤها الشوق كما لو كانا تعارفا من قبل.

كان بنيتو يصرخ فى داخله قائلاً بصوت مكتوم: إنها هى.. تلك التى أبحث عنها كفانى ما عانيته من الوحدة والعزلة والحياة البوهيمية والفوضوية والعبثية.. إنها راشيل الزوجة والعشيقة والصديقة والحضن الدافئ.. إنها المرفأ الذى سأرسو فيه بقاربى الذى ى تسكع متهاديا على صفحات مياه لا يدرى أين المفر؟!

أما هى فقد كانت تصيح وتهتف فى نفسها ما أروع الزواج من رجل ملأ السمع والأبصار، وتتشوف إليه العيون، وترهف الآذان لسماع حديثه العذب

الذى يتدفق حماسة ووطنية وثقافة يندر أن يعثر عليها المرء فى رجل آخر. . كم أنا فى حاجة إلى بنيتو هذا الذى يثير العواصف ضد السلطات، والعواطف فى قلوب النساء، وها أنا واحدة ممن وقعن فى غرامه من الوهلة الأولى.

كانت راشيل تسبح بخيالها فى آفاق واسعة حتى باغتها بنيتو بقوله العجيب والغريب: راشيل هل توافقين على الزواج منى؟!

اهتزت الأرض من تحت قدميها كأن زلزالاً قد ضرب تربتها بأقصى درجاته الريخترية بيد أن راشيل لم تكن تملك الرد العاجل سوى بابتسامة ساحرة صادقة ألقت بها لتجسيد ما تعتلج به مشاعرها وعواطفها المتأججة والمنفجرة منذ ساعات فقط نحوه.

اتفقا معا على مفاتحة الأب أليساندرو والأم أن جويدى فى الأمر إذا ما أقبلت تباشير الصباح تزف ميلاد يوم جديد يملؤه الحب والشوق والهيام.

وفى ظهر اليوم التالى وأثناء تناول وجبة الفطور توجه بنيتو بحديثه قاصدا والده، وراح يقول: إننى يا والدى كم أشعر بالامتنان والتقدير لتلك الأمسية الكريمة والرائعة، وكم أود أن أكون أحد أفرادها، فصاحت الأم آن جويدى: ونحن نعتبرك يا بنيتو العزيز بالفعل ابنا لنا، غير أن الأب أليساندرو صاح قائلاً وهو يضحك ساخرا:

أنت لا تعرفين ما الذى يقصده بنيتو فى حديثه، أبدت آن جويدى دهشتها وهى تتوقف عن الطعام فى انتظار تفسير لما تفوه به أليساندرو الذى أردف بقوله: إنه يتطلع إلى الاقتران بالابنة راشيل.

كانت الدهشة قد احتوت الأم، ولم تدرِ كيف تعبر عن رفضها؟ لكنها عادت تقول: إن ابنتها لا تزال صغيرة على اتخاذ مثل هذه الخطوة، وحين صاحت راشيل بقولها: لكنى تجاوزت السادسة عشر يا أماه أخذت علامات الدهشة تتجلى على ملامح الأم التى استغربت هذا القرار العاجل سواء من بنيتو أو راشيل، بيد أنها عادت تشير إلى رفضها متذرعة بالتسرع والتعجل، حيث إن الأمر يتطلب دراسة وافية وتفكيراً عميقاً لخطورة ذلك مستقبلاً.

قد يكون لها الحق فى طرح هذا الرأى الرشيد والحكيم والسديد، ولو أن أحداً غيرها لانتهج مسلكها دون تردد أو تفكير.

لكن بنيتو المجنون بدأت الدماء تغلى فى عروقه ويتطاير الشرر من عينيه، ويكاد يدق مائدة الطعام بقبضة يده، لولا أنه تماسك متظاهراً بالرقة والحلم فى انتظار ما سوف يدلى الأب به، لعل بدلوه يعيد بذكائه وحنوه الأمور إلى نصابها، ولكن منذ متى كان الأب أليساندور يعرف معنى العطاء وماهية الحنان؟ لقد عاش لنفسه فقط، ومن عاش لنفسه ما استحق أن يولد.

وكانت المفاجأة التى أذهلت بنيتو حين صاح والده قائلاً فى تأييد جلى: إن هذا الأمر غير مقبول شكلا وموضوعاً وينبغى إغلاقه فوراً.

وهنا نهض بنيتو لا يطيق صبرا على ما يدور من حوله، لاسيما وأن راشيل قد شجعته وحفزته بموافقتها واستعدادها للاقتران به، ومن ثم لم يكن على أدنى استعداد لسماع ما يعكر صفو العلاقة الوليدة بينهما بذرائع واهنة لا قيمة لها على وجه الإطلاق.

الشاهد نهض بنيتو العنيف من مقعده وقد ضرب المائدة بقبضة يده مهدداً بقتل نفسه إذا لم يتزوج من راشيل، وقد أشهر مسدسه ووضعه على رأسه وإذا بالفتاة التى اكتوت بالحب قد بادرت للانضمام إلى صف بنيتو على وعد بالانتحار إذا لم تتزوج منه!!

وأمام هذا التصرف الخطير الذى أقدم عليه صاحبنا وباركته راشيل امتثلت الأم آن جويدى الصلبه العنيدة ،وتبعها فى التو الأب المسكين أليساندرو، وباركا لهما زواجهما بيد أن الأم اشترطت موافقتها بتدبير مسكن للزوجية حتى لا تخلو الإقامة لبنيتو ويعجز عن تدبير أحواله كوالده، ثم تتخلص هى وزوجها منهم، لا سيما وأن بنيتو عنيف الطباع وتطارده قوات الشرطة من حين لآخر، وهى لا تقوى على تحمل مثل هذه التصرفات المستفزة .

فى نفس عصر هذا اليوم المشهود فى حياة موسولينى وراشيل أطلق ساقه للريح بحثا عن مسكن بسيط ملائم لحياة زوجية جديدة مع من أحبها بجوارحه وأحاسيسه ومشاعره.

وفى شارع ميرنيدا استأجر بيتا يتصف بالقذارة والحقارة اضطر للموافقة على الإقامة فيه وفقا لأحواله المادية السيئة.

من جانبها وافقت راشيل على العيش فى هذا البيت رغم أنفها تعبيرا عن مشاعرها العاطفية الملتهبة إزاء الشاب الجسور بنيتو، وقد أكدت فى أوراقها الخاصة بالنص:

«انتقلنا إلى المنزل ذات مساء، وإنى لأذكر كم كان سعيداً رغم ما يبدو عليه من جهد. .إذ لم يكن واثقا من موقفى، نظرا لعدم استكمال أوراق الزواج. .

ولكنني فهمت موقفه وقدرته». فأمامي يقف الرجل الذى أحببته وهو ينتظر منى أن أمنحه الهبة الوحيدة التى تستطيع الحياة أن تمنحه إياها وهى حبى، وكانت الخطوط قد بدأت فى الظهور على وجهه الفتيّ نتيجة ما يعانيه من جهد فى كفاحه اليومى.. ولم أتردد لحظة واحدة.. ومضيت معه إلى آخر الشوط».

وهكذا كانت أوراق الزواج قد تمت داخل لكنيسة التى يحتقرها بنيتو ولا يطيق الذهاب إليها.. لكن الحب فقط ذلك المارد المتوحش الذى انطلق يحركه أينما أراد.. وها هو بنيتو الذى شن هجوما كاسحا على رجال الدين المسيحى يتقدم بخطى سريعة نحو كنيستهم يستجديهم الموافقة على مباركة زواجه بمن أحب وعشق وهام بها حباً وغراما.

كان موسولينى بداخله لا يرغب فى زواج الكنائس لعدم اعترافه بأهميته وإيمانه الشديد بخطورتها على إعمال العقل وتغييب الحكمة والمنطق، لكنه اضطر صاغراً لتوثيق أوراق اعتماده زوجاً نزولا على رغبة محبوبته راشيل، لاسيما وأنها لم تكن تطيب لها أسلوب حياه والدتها مع والد بنيتو، وما ترتب عليها من تلاسن لم يتوقف يوما ما بعين الجيران الذين استنكروا هذه العلاقة رغم أن ذلك مألوف داخل مجتمعاتهم.

ورغم أن العلاقات المحرمة كانت ضمن مظاهر وأساليب العلاقات الاجتماعية فى المجتمع الإيطالى على اعتبار أنها جزء لا يتجزأ من قارة أوروبا التى لا تجرم مثل هذه العلاقات الغير مشروعة فقد أثرت راشيل شأنها فى

ذلك شأن كـافة الأسـر ذات القيم والمبـادئ ألا تقع فى مسـتنقع الرذيلة الذى غرقت فى أعماقه والدتها وأليساندرو.

هكذا شهـد عام ١٩١٠ زواج راشـيل من بنيتو وسط حـضور كـثيف من رجال الصحـافة الإيطالية وطبقـاتها العماليـة وزملاء الطفولة الذين اسـتدعاهم لحضور حفل زواجـه ليشاركوه بهجتـه وفرحته التى امتلأ بهـا قلبه بعد سنوات عجاف وجفاف نضبت خلالها معالم السعادة ومظاهرها.

وبدأت حياة بنيتو تتغير جـذريا نحو الأفضل، وكأن زواجه من راشيل كان من حسن طالعه وحظه السعيد، حيث قـضى عامه الأول فى سعادة وغبطة ما كان يحلم بها رغم صآلة راتبه الذى يتقاضاه من اتحاد فورلى الاشتراكى بوصفه سكرتيـره، الأمر الذى دفعـه للبحث عن مـصادر أخرى تضـاعف من دخله لمواجهة متطلبـات الحياة لا سيما وأن زوجته قد رزقـها الله طفلة جميلة تدعى إيدا ينبغى أن تعيش فى كنف أب ميسور الحال على عكس نشأته البائسة.

وكان بنيتو قد دبر بعض النقود التى اقتـرضها لتأسيس جريدة تعبر عن آلام الطبقات الفقيرة وتجسد معاناتهم، وتفضح الممارسات الاستفزازية للطبقات الغنية التى تسـبح فى بحور الثـراء الفاحش، وقـد أدارت ظهرها لأبناء شـعبـها من الفقراء.

كانت الجريدة التى أسسها تسـمى جريدة «الصراع الطبقى» وما من شك أن الجـريدة تعـرضت فى البـداية لحـروب شـرسة علـى يد السلطات الإيطاليـة لإجهـاضها فى المهد قـبل أن تتوسع وتنتشـر، وهو ما أدى إلى تراجع الدخل

الذى كان يعتمد عليه بنيتو لاستقطاع جزء منه لسداد أقساد القرض، وهو ما اضطر معه للعيش مع أسرته على الاكتفاء بتناول الكرنب أغلب أيام الشهر لحين انقشاع الغمة.

وطبيعى وكما هو وارد فقد تمسك بنيتو بموصلة مشواره فى المواظبة على إصدار الصحيفة التى بدأت تدريجيا فى التوسع والنمو والانتشار، حتى أنها وفق شهادات مؤسسات التوزيع بفضل مقالات بنيتو النارية بوصفه أحد أبرز دعاة الحركة الاشتراكية الثورية فى إيطاليا.

وعلى إثر ذلك عاد نجمه يلمع فى السماء الإيطالية، وأصبحت سيرته تلوكها الأفواه تقديراً وإعجابا بما يكتبه ويدعو به من أجل النهوض بالشعب الإيطالى وعلو شأنه، والارتقاء بمكانته بين الأمم، وتكريس قواعد ونظم توزيع الثروات بين الطبقات قبل أن تنفجر الأوضاع.

وظل بنيتو يكتب مدعوما بعشق زوجته راشيل التى كان تدفعه للأمام، وتحثه على مواصلة النضال والكفاح، وتشجعه بوصفه الزعيم المنتظر الذى يترقب الجميع خطاه نحو نهضة الأمة الإيطالية.

ولم يكن مستغربا أن يتلقى بنيتو دعوات عديدة لكى يتصدر منصب الخطابه داخل أروقة الندوات والمؤتمرات والاحتفالات الجماهيرية لتسخين وإثارة لهيبها، وضمان حضور غفير مترامٍ لإسماعهم دعوة بنيتو ذاك الثورى المتطرف والعنيف.

ورغم الفقر المدقع ولحياة لبائسه التى يحياها مع زوجته راشيل وابنته إيدا فقد كان الحب الذى يجمعهم معا هو الوقود الذى يدفع قاطرة الحب إلى الإمام

دون أن تعرقلها أحجـار الفقر والبؤس، لدرجة أن بنيتـو لم يكن على استعداد لتوطيد علاقـاته مع أية فتاة وسيدة مهمـا بلغ قدرها من الجمال، وتجلت على ملامحها معالم الأنوثة الطاغية والساحرة والجذابة.

ومن جانبهـا فطنت راشيل لوفاء زوجهـا وإخلاصه معـها، وهو الذى كان معروفا بين الجميع بميوله نحو الجنـس الناعم وضعفه أمامه، وعدم قدرته على الثبات والتماسك، وبإخفاقه فى كبح جماح غرائزه وتهذيبها، وها هو الآن قد أصبح زوجا حنونا دافئ المشاعر وفيا مخلصا، ينكب على مكتبه سواء فى مقر جريدته، أو اتحاد فورلى الاشتراكى، أو منغمسا فى قراءة الصحف والمجلات المنافسة وآخر الكتب الأجنبية، وترجـمة ما يمكن أن يعود بالنفع على المستوى العام، من حيث التأثير الذى تحدثه فى صفـوف الجماهير والتأثر بما قد جاء فى صفحاتها.

* * * *

صحـيح أن بنيتـو موسـولينى كان جـذابا وقويا ومـؤثراً فى صفـوف الأمة الإيطالية، وصـحيح أيضاً أنه كان أحـد أهم مقومات الصـحوة التى اندلعت، والثورة التى أطاحت بالعرش فـيما بعد، لكنه على الرغم من ذلك كـما يقول عنه المؤرخون وفى مقدمتهم كريستوفر هيرت فى كتابه «موسولينى» أنه قد غدا من خيـرة الخطباء، قوى الصـوت مؤثرا على سامعـيه، وكانت حـملاته فظة فاسية، وحقائقه التى يوردها حـافلة بالأخطاء، وأرؤاه كثيرة التناقض، ومعظمها محفوظ عن ظهر قلب.

ويمضى كريستوفر هيرت فى معرض تحليله وتشريحه لشخصية بنيتو موسولينى فى كتابه الرائع قائلاً: «كانت مواقف بنيتو موسولينى مسرحية، ولكن لم يكن ثمة من ينكر عليه ما فى صوته من جاذبية طاغية، وما فى إيماءاته من عنف واستفزاز وتكرار، وما فى مواهبه من قدرة على استخدام التعبيرات المسرحية والإشارات الغامضة، والاستعارات القوية، رغم لامعقوليتها، وقد أنمى لديه قدرة عظيمة على إثارة العواطف. عن طريق المجىء بسلسلة من الجمل المتقطعة التى يلقيها فى تدفقات حماسية، ولكن فى نغمات صوتية متباينة يؤكدها إيماءات مدروسة ومحسوبة لينسجم كل الانسجام مع الجو الحماسى الذى يحيط به، وكان قد أنمى فى نفسه أيضا تلك القدرة التى باتت تمثل لديه فيما بعد عبقرية خطابية فى فرض المزاج الذى يريده على جماهير سامعيه، أو ما يشبه الدعاء غيرا لمحفوظ يشترك فيه المستمعون بتلاوة ردودهم على أسئلته الملحة، ثم ينثر ما يقولونه فى عبارة مبسطة يعيدها على مسامعهم لينفجر انعكاسهم منطلقا فى صورة تشجيع عاطفى يؤكدون فيه وحدتهم وراءه.

ويستطرد قائلاً فى فقرة أخرى تجسد ملامح شخصية بنيتو: وكان بنيتو قد أتقن أيضاً الإفادة من مجموعة من الهتافة الذيت تنطلق هتافتهم بالموافقة عند إشارة معينة أو إيماءة متفق عليها، فتسرى عدواهم إلى الجماهير، وأدرك فوق ذلك كله الحاجة إلى جماعة من المعجبين المخلصين حوله يستطيعون أن يؤلفوا نواة أتباعه المستعدين للسير وراء زعيمهم.

* * * *

بمرور الوقت، ومع تنامى صعود نجمه وتألقه فى مسرح السياسة راح بنيتو يدعو غلاة الاشتراكيين ودعاة الثورة على الأوضاع إلى مؤازرته ومساندته، ودعم تحركاته وانطلاقاته لتدمير قواعد وأعمدة النظام الحاكم الذى نخر سوس الفساد عظامه، وبدا على وشك الانهيار.

ولم يكن بنيتو يتورع فى خطبه عن الدعوة العلنية الجرئية للتحرك ضد النظام عبر استخدام العنف والسلاح من أجل تغيير الأوضاع السائدة.

وربما كان ذلك جزءا أصيلاً عن شخصية بنيتو، حيث نما منذ نعومته على القوة والبطش والعنف، ولعل هوايته التى كانت محببة إلى نفسه فى تسلق الأشجار القريبة من كنيسة قريته، وبإلقاء الحجارة على روادها من الأهالى أو من رجال الدين البابوى تأكيداً على أنه شخصية فجة مقززة عنيفة حادة الطباع عصبية المزاج.

ثم إصراره على الاعتداء المتواصل على زملائه فى الفصول الدراسية، بل وتهجمه على معلميه، ومحاولات هروبه ورفضه التواصل والترابط مع أحد بداخلها يبرهن على أن هذا الشاب لم يكن ممثلاً ومدعيا بطولة بل هو فى الأساس يتحلى بالشجاعة وقوه الإرادة والبأس والصلابة.

أضف إلى ما سبق الإشارة إليه عنفه وبطشه الذى اشتهر به منذ صغره مع أبناء قرية دوفيا، ولعل ذلك كان دافعا لفشل علاقته مع شقيقة زوجته الكبرى لتى أدركت مغبة الارتباط منه، وقس على ذلك صوراً ونماذج أخرى كان يتميز خلالها بالقوة والعنف، وبصرف النظر عما أورده كريستوفر هيرت من أنه رجل مسرحى. فالواقع أن الخطابة أمام حشود غفيرة لاسيما تلك التى ترهف

السمع لمن علقت عليه آمالها جعلته يلقى بكلمات طنانة وعبارات رنانة من أجل إلهاب مشاعرهم وإشعال حماستهم وتوظيف طاقاتهم وإطلاق أعنف الصرخات والصيحات والآهات من مكنوناتهم.

ثم أن موسولينى لم يكن هو فقط الذى قد أتى بحركات مسرحية أمام الجماهير بل، إن جميع الساسة البارزين واللامعين يجيدون ذلك ببراعة واقتدار وكفاءة وهذا لا يعيب، حيث إن للخطابة فنونها وقواعدها وآدابها وأصولها وعلومها.

حتى الخطابة على منابر الوعظ فى صلاة الجمعة تعتمد على براعة الإمام وبلاغته، كما تعتمد على نقاء صوته ونبراته المثيرة، وإدراكه متى تعلو طبقاته وأين يخفضها، ومن ثم كان فضيله الإمام الراحل عبد الحميد كشك يتحلى بشعبية هائلة فى أرجاء العالم الإسلامى، لما يملكه من قدرة فذة على الخطابة وإثارة الحضور.

وكان الإمام الخومينى هو الآخر يملك القدرة الفذة على التأثير فى الجماهير عبر خطاباته التى كان يلقيها على أسماع الشعب الإيرانى، ومن قبله كان الرئيس جمال عبد الناصر الذى كان يلهب حماس جماهير الأمة بطبقات صوته الصافية النقية الشجية، والتى كان يتعمد توظيفها على نحو أو آخر بصورة قد تبدو تلقائية.

بل إن الشاعر حافظ إبراهيم الذى لقبه أدباء الأمة بشاعر النيل كان يتفوق على نظيره ومنافسه العتيد أمير الشعراء أحمد شوقى لبراعته فى إلقاء الشعر وقدرته الغريبة فى التأثير على الحشود الغفيرة التى جاءت لتسمع، وهو ما كان

يؤثر بالسلب على شعر أحمد شوقى الذى كان يفتقد حماسة الإلقاء وبراعة الخطابة.

وكانت الجماهير التى تتوافد علي تلك الأمسيات الشعرية يخيل لها أن شعر حافظ إبراهيم يفوق ما أورده أمير الشعراء، بيد أن حقيقة الأمر تنجلى فى الصحف التى تصدر فى الصباح حين تتصدر قصيدة كل منهما صفحاتها ويتبين للقاصى والدانى روعة وعظمة قصيدة أمير الشعراء التى تفوق أشعار حافظ إبراهيم، مع الأخذ فى الاعتبار أهمية الإشادة بقصائد شاعر النيل وتجلياتها وسحرها ،حيث إننا نشير هنا فقط إلى مدى تأثير الجماهير بالأداء الحسى على حساب الأداء المتواضع لأمير الشعراء.

بل إن مصطفى كامل كان يملك حسا وطنيا هائلاً، لكنه استطاع بكفاءته فى الخطابة وعبقريته النادرة توظيف قواعدها على نحو غير مسبوق، فأصبحت كلماته العفوية أقوالاً مأثورة، وعباراته التلقائية محفورة مسكونة فى القلوب، ومنها: «لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصرياً» وبلادى بلادى لك حبى وفؤادى، ولا معنى لليأس مع الحياة ولا معنى للحياة مع اليأس!!.

لكن محمد بك فريد الزعيم الوطنى الذى خلفه لم يكن يتمتع بهذا الثراء العريض الذى كان يتمتع به مصطفى كامل فى طبقات صوته، ومن ثم كان محمد فريد رغم شهرته الذائعة أقل حظا من مصطفى كامل من حيث التأثير واجتذاب واستقطاب الجماهير، بيد أن عطاء محمد فريد بك وإغداقه على الشعب من أمواله التى ورثها عن آبائه، ونضاله المستمر وكفاحه المرير ضد الاستعمار كانوا أهم مقومات نجاحه بوصفه أحد ألمع زعماء الأمة المصرية.

وكان سعد زغلول على عكس محمد فريد، حيث كان سعد بليغا ضليعا قوياً خطيباً مفوهاً يشعل الحماس بمجرد أن يطل على المنصة، وهو ما يذكرنا بخطيب الثورة الفرنسية ميرابو حين كان يتصدر مؤتمر جماهيريا حاشداً ،وقد اقترب منه مبعوث الملك يهمس فى أذنه بطالبه بفض المؤتمراً نزولاً على رغبة الملك، وهى الرغبة التى اصطدمت مع ذكاء ميرابو الذى أشعل ثورة جديدة كانت للجماهير الغفيرة وقودها، حيث صاح بأعلى صوته قائلا فى شجاعة: قل لجلالة الملك، لن نخرج من هنا إلا على أسنة الرماح. وهى العبارة التى دفعت الجماهير للانقضاض على مبعوث الملك فى إشارة واضحة لكسر إرادة القصر، ومن يسكنه.

والشيء بالشيء يذكر، حيث كان زعيم الثورة الفرنسية التى اشتعلت فى الرابع عشر من يوليو ١٧٨٩ كان قد ألقى به فى غياهب السجن بتهمة الانقلاب على الملكية، وبينما كان الزعيم دانتون يقف وراء القضبان الحديدية داخل قاعة محكمة نصبتها الحكومة التابعة للملك لويس السابع عشر لمحاكمة دانتون احتشدت الجماهير الغفيرة المتعاطفة مع دانتون، وفى بداية الجلسة راح رئيس المحكمة يسأل دانتون على النحو التقليدى قائلاً له: ما هو اسمك أيها المتهم؟! من ناحيته تظاهر دانتون بعدم سماعه ما تفوه به رئيس المحكمة الذى عاد يسأل فى إصرار قانونى: أجب أيها المتهم، ما هو اسمك؟ فالتفت دانتون ناحية جماهير فرنسا الغفيرة التى جاءت تتابع فصول المأساة التى كان بطلها دانتون، وراح يتأمل صفحة مياه نهر السين الذى تحتشد على صفته المواجهة لقاعة المحكمة هاتفا بأعلى صوته: أيها الشعب الفرنسى العظيم.. إن رئيس

المحكمة يسألنى مراراً: ما هو اسمى، فأجبه أنت أيها الشعب الفرنسى العظيم.. أحبه حتى يعرف من أنا ومن أكون؟!

وجاءت الإجابة عبر انطلاق الحشود صوب قاعة المحكمة للفتك برئيسها وتحطيمها فى ثورة غضب عارمة أشعلتها قدرة دانتون وذكاؤه وإلمامه بفن الخطابه، ولولا ذلك لمضت الأحوال لما هو مخطط لها من قبل السلطات الملكية المستبدة.

وهكذا كان للخطب الثورية والعبارات الحماسية تأثيرا بالغا فى تحريك القوى الشعبية وإيقاظها من سباتها العميق، وهذا ما يتطلب من هؤلاء الخطباء الأفذاذ الإتيان ببعض الحركات المسرحية والتمثيلية للفت الأنظار واجتذاب الجماهير ومحاولة إشعال حماسهم، والزعيم النازى أدولف هتلر كان ممثلاً بارعاً فى أدائه أثناء خطاباته التى حركت الأمة الألمانية وأشعلت ثورة الرائح الثالث، ولولا مهارة هتلر وحسن أدائه واعتماده على بعض الحركات المصطنعه ما كان قد استطاع أن يقود الجماهير الغفيرة حيث أراد.

* * * *

على أية حال كانت الحماسة الخطابية والمقالات النارية هى زاد بنيتو وأدواته ورأسماله وأهم عناصره الجاذبة للجماهير، ولولا ذلك ما كان له شأن يذكر، ولأضحى واحداً من ضمن أصحاب المنابر والصحف الاشتراكية التى كانت تتوالد وتتكاثر مع بزوغ الحركة الاشتراكية، وتوحش النظم الرأسمالية.

لكن بنيتو كان له قصب السبق فى الإقدام على أفعال لا يتجاسر غيره على القيام بها، ومن جملة ذلك حينما كان ذات ليلة متوجها إلى إحدى دور

المسارح برفقة زوجته راشيل، وقد لاحظ تأخر إدارة المسرح فى رفع الستار، وهو ما دفعه للوقوف أمام جماهير المسرحية شاهراً حذاءه مهدداً أعضاء الفرقة المسرحية بالضرب بهذا الحذاء إذا طال تأخرهم عن ذلك!!

كان هذا التصرف الأحمق يشير على نحو مألوف أن صانعه هو فقط بنيتو موسولينى، ولا أحد غيره يمكن أن يقوم بمثل هذا السلوك الحاد.

ثم تأمله حين تقدم ذات مرة جماهير مدينة فورلى متوجها إلى قاعة البلدية وهو يتفوه بأقذع الشتائم والسباب واللعنات على المسئولين بها، وقد صب جام غضبه عليهم مهدداً أمام الجماهير الغفيرة رئيس البلدية أن يلقى به جهاراً نهاراً أمام الناس من نافذة مكتبه إذا هو لم يسرع الخطى فى العمل على تخفيض سعر عبوات لبن الحليب الذى ارتفع ثمنه بصورة صادمة ومفاجئة.

وما من شك أن موسولينى ما كان ليصبح زعيما وطنيا متألقاً فى عيون أبناء الأمة الإيطالية لولا أن تصدر المشهد السياسى العام مستخدما أدواته التى اعتاد على ممارستها، وعباراته التى لم يكن يكف عن إطلاقها، وشعاراته التى طالما تغنى بها، فغدت تتصدر جدران الشوارع وواجهات الميادين على اعتبار أنها أقوال مأثورة محفورة فى وجدان الشعب الإيطالى.

وتجلت شخصية بنيتو، وتأكد من زعامته وشعبيته العنيدة الراسخة فى قلوب أبناء الشعب الإيطالى حين تلقى نبأ وفاة والده أليساندرو أثناء اجتماع كان يعقده فى مكتبه مع محررى صحيفته الشهيرة الكبيرة «الصراع الطبقى»، حيث انتشر خبر وفاة والده فى أنحاء فورلى التى خرجت جماهيرها فى التو متوجهة إلى

بيت والده لتقديم واجب العزاء لبنيتو ومشاركته تشييع الجثمان إلى مثواه الأخير.

كانت الوفاة التى اهتزت لها فورلى فى أواخر عام ١٩١٠، وقد التفت الحشود حول بنيتو تدعمه وتشد من أزره، وكأنه إزاء مصاب جلل، فيما كانت الحقيقة أن بنيتو لم يكن متأثرا بوفاة والده قدر تأثره البالغ لتلك الجموع الغفيرة التى توافدت على بيته ،حيث لم يكن والده ذا شأن عظيم فى حياته على عكس والدته التى وهبت حياتها من أجله هو وأشقائه.

فى أثناء تشييع لجنازة المهيبة أدرك بنيتو موسولينى كم غدا مرموقا لامعا بازغاً بين أبناء فورلى وخارجها، الأمر الذى دفعه لكى يسعى من أجل الحفاظ على هذه الشعبية الجارفة، وأن يبذل قصارى جهده لزيادتها ومضاعفتها ضمانا للوصول إلى رأس السلطة، ذاك الحلم الذى داعبه منذ صغره، وراح يحدث عنه أمه وأشقاءه وأقرانه.

وأمام قبر والده وبعد أن واراه الثرى وقف بنيتو بقامته الصلبة وبنيانه المتين يلقى على أسماع المشيعين كلمات الشكر والثناء والتقدير لمشاركته أحزانه ومأساته، ثم سرعان ما تحول فى كلمته التى كانت من المفترض أن تستعرض تاريخ الأب ورثاءه والإشادة بما قدمه ومنحه له، وهو بالطبع ما لم يحدث على الإطلاق.

واضطر فى استغلال واضح فاضح إلى شن هجوم عنيف كعادته على رموز الملكية المستبدة وعلى حكومة جيوفانى جوليتى التى لم تكن تراعى أهمية

تكريس قواعد وآليات البعد الاجتماعى لحماية أبناء الشعب الإيطالى من الوقوع فى براثن الفقر والمرض والشقاء.

كانت الكلمات ملتهبة والعبارات نارية والشعارات ساخنهة، فتحولت الجنازة إلى مؤتمر سياسى حاشد مناهض للسلطات الحـاكمة، الأمر الذى أثار عاصفة من الإعجاب والامتنان سرت فى قلوب المشيعين الذين أطربهم أداؤه وهجومه وطبقات صوته المفعمة بالحيوية والقوة والحماس.

من هنا تجلت شخصيـة بنيتو موسولينى الذى أصبح حـديث الجميع، حين راح أغلبهم يستشهدون بما صنعه فى جنازة والده على اعتبار أنه وضع مصلحة الأمة وحقوق الشعب ومطالبه فوق مصلـحته الشخصية، ولو كان ذلك فى أثناء تشييع جنازة والده.

* * * *

كانت راشيل آذاك قد تأكد لديها سلامـة اختيارها لهذا الزوج الذى أمسى زعيما لا يشق له غبار فى عيون الإيطاليين، وراحت تمنحه كل ما تعتلج به من عواطف وأحاسيس لدفعه إلى الأمام، ولمزيد من النجاح على المستوى العام.

والواقع أن بنيتو موسولينى كان زوجا رائعا على عكس ما كان ينتظره الجميع منه، بل إنه ظل يـدين بالولاء والوفـاء والنجـاح لتلك الزوجـة العظيـمـة التى ارتضت به زوجا رغم أنف والدتهـا، وكأنها قـد راهنت على حصان السـباق الأسود الذى سيجتاح حلبة السباق، وها هـى قد تبين لها مدى رجاحة عقلها وصدق حدسها حين تمسكت به زوجاً وأبا لأطفالها على اعتبار أنه سوف يكون له شأن عظيم فى المستقبل.

ومع قدوم صيف عام ١٩١١ اجتمعت الحكومة الإيطالية برئاسة (جيوفانى جيوليتى) لاتخاذ قرار عاجل يقضى بضرورة إرسال حملة عسكرية ضخمة إلى برقة وطرابلس لحمايه الرعايا الإيطاليين وصيانة ممتلكاتهم، وإعادتهم إلى روما قبل أن يلحق بهم أى أذى.

وكان بنيتو موسولينى يعلم أن هذه مجرد ذرائع لاسند لها من الحقيقة، وقد لوحت بها الحكومة لضمان موافقة الشعب ومباركته لهذه الحملة الاستعمارية الظالمة التى استهدفت حياة الشعب الليبى الطيب المسالم، والذى كان يوفر كعادته السلامة والطمأنينة وينثر بذور المحبة فى أرجاء بلاده ليتظلل الجميع بالأمان بغض النظر عن هوياتهم وجنسياتهم.

لكن الواقع الذى كان موسولينى على بينة منه أن إيطاليا أرادت أن تحذو حذو القوات البريطانية والفرنسية والروسية فى حملاتهم الاستعمارية على أفريقيا وآسيا، لا سيما الحصول على كعكة دولة الخلافة التركية التى وهن عظمها وشاب شعرها وتقوس ظهرها وتجلت التجاعيد على وجهها.

وحين ترامى للأسماع هذا النبأ المفجع ثارت ثائرة بنيتو موسولينى ومعه زعماء وقادة الاتحادات والصحف الاشتراكية الثورية التى ساءها صدور مثل هذا القرار الذى ينتهك حرمة البلدان المسالمة، ويدنس أعراضها، لا سيما وأن هناك علاقات شعبية وطيدة وعميقة وقديمة مع أبناء الشعب الليبى المسالم بيد أن ساسة إيطاليا لم يكونوا ممن يعبأون بمثل تلك العلاقات الإنسانية، حيث إن ليبيا باتت مطمعا ولو لم تسرع الخطى نحوها لأكلها الذئب الفرنسى أو الأسد البريطانى أو النمر الروسى.

وراحت الحكومة تعلل حملتها وتتذرع بالأكاذيب والأوهام أمام غضبة الشعب وثورته العنيفة التى أشعلها غلاة المذهب الاشتراكى، وكان بنيتو على رأسهم كما هو متوقع.

لم يكن احتجاج بنيتو يتعلق بالتظاهر الشعبى لرفض القرار فحسب، بل راح يصعد من حملته القاسية وطالب مع زعماء الاتحاد العام بضرورة اللجوء إلى الإضراب الشامل والعام لإصابة البلاد بالشلل لعل الحكومة تتراجع عن قرارها الغاشم والظالم الذى كان يعبر بجلاء عن أطماع الإمبريالية والرأسمالية المتوحشة والجائعة.

ومضى بنيتو يوما بعد آخر يطالب بالمزيد من الإجراءات العقابية لتلك الحكومة العدوانية، وقد بلغ أوج حماقته حين ناشد جماهير الشعب الإيطالى الساخطين على قرار الحكومة بالحضور إلى مؤتمر سياسى سيقيمة أمام مقر جريدته، شريطة أن يحملوا معهم أسحلتهم النارية لشن هجوم كاسح على مقار السلطات الحكومية، بدلا من الاكتفاء بالتصفيق الحار وإطلاق الشعارات والهتافات التى ولى زمانها، حيث لم يعد الأمر يحتمل مجرد التظاهر السلمى.

ولاقت دعوة بنيتو قبولا غير مسبوق، حيث توجهت الجموع الغفيرة إلى حيث دعاهم، يحملون ما طالته سواعدهم كقضبان السكك الحديدية وفؤوس حقولهم ومسدساتهم وعصيانهم الغليظه حتى اندلعت المظاهرات فى مدينة فورلى، الأمر الذى دفع الحكومة الإيطالية برئاسة جيوفانى جيوليتى بسرعة إلقاء القبض عليه وايداعه السجن بتهمة تحريض الجماهير وتأليبهم وتثويرهم على النظام الحاكم.

وإزاء ذلك التطور الخطير ألقى القبض على بنيتـو موسولينى وإيداعه السجن عقـاباً له على ما اقترفـه فى حق البلاد، ومسـئوليتـه المباشرة فى تدميـر المقار الحكومية وإلحاق الأذى ببعض رجـال الشرطة، وتطاوله على الملك وحكومته، وإضرام الحرائق فى بعض الممتلكات العامة والأخرى التى يستحوذ عليها أثرياء إيطاليا، وظل بنيـتو نزيل زنزانة الاعتـقال يترقب سـاعة خروجه لمعـاودة نشاطه ومتابعة جريدته رغم النشوة التى تحـتويه داخل السجن، لإدراكه للمغزى الذى ينطوى عليه سـجنه من تزايد شعبـيته وتألق نجمـه ولمعانه كلما واجهـته المحن وحاصرته الشدائد، وبات أسيراً مكبلا بقيود السلطة الغاشمة.

لكن بنيتو كان يتـوق إلى رؤية زوجته راشيل وطفلته الجميلة إيد، وكـثيرا ما تقدم بطلبـات عاجلة لرؤيتهم ولـقائهم، وقد كانـت السلطات تستجـيب لمطالبه وتستدعى زوجته وطفلته لمقابلته، الأمر الذى كان يسعى إليه بنيتو للوقوف على آخر التطورات والأوضاع فى الشـارع الإيطالى عبر حديثـه الطويل مع زوجته راشيل.

أما راشيل فلم تكن خـلال تلك الفترة العصـيبة مجرد زوجـة سجين، بل شريكة مناضل سياسى يسعى جاهدا على نحو غير مسبوق لإشعال فتيل لثورة الاشتراكـية ضد الحكام والأثرياء، وهو يدفع نظير ذلك ثمنا فادحـاً من حريته وأعصابه.

وراحت راشيل تدلى بدلوها عن حـياة بنيتو ومـواقفه وصفـاته كزوج وأب وزعيم سياسى، وهب شبابه وحياته من أجل رفـعة إيطاليا، وأملاً فى مستقبل

مشـرق لأبنائها الذين عانوا من الفـقر، وتألموا كثـيرا من الجوع، واكـتووا من الظلم .

ومع انقـضاء خـمسـة أشهـر قررت السلـطات الإيطالية فك سـراح بنيتـو مـوسولـينى بعد أن لمست السلطات هدوء الأوضـاع وعودة الانضبـاط إلى الشارع، وظنها أنها تمكنت من تأديب بنـيتو وكبح جماح غضبه وتمـييع حركته الثورية وإطفاء جذوته المشتعلة.

لكن بنيـتو ذلك الثـورى العنيد العنـيف لم يكن يستكين لمجـرد أن ألقى به داخل زنزانه، زهاء خمسـة أشهر، حيث إن الأمر أهم وأكـبر وأخطر مما تظنه السلطات به.

لذلك لم يهدأ ولم يهادن، بل خرج من السجن أكثر عناداً وصلابة وتحديا، بيد أنه قرر أن يبادر باتخـاذ خطوات شجاعة وحكيمة وعقـلانية تمكنه من قيادة الجماهير بصورة رصينة منظمة بدلاً من الفوضوية والعـبثية التى ينتهجها ليقضى فى نهاية الأمر الربح فى كلتا يديه.

صحيح أنه يمـضى إلى الأمام، ويتصدر زعـامات إيطاليا، وبات نجمـاً يثير الألباب ،وأن شـعبيـته فى تزايد مسـتمر، لكنـه أضحى يتدبر أمـره، ويسعى لصياغة سياسة جديدة تؤهله للصدارة دون أن ينازعه أحد من غلاة الاشتراكية فى مكانته.

* * * *

على ضوء هذا التطور راح بنيتـو يتأمل المشهد السيـاسى العام فى إيطاليا، وأين هو منه، وانتهى به الأمـر أن قرر تأسيس حـزب اشتراكى ثورى شـعبى

يحتوى تلك الجماهير الغفيرة التى تسانده وتؤازره وتعضد مواقفه السياسية المناهضة.

كان بنيتو يتطلع إلى زعامة الجمهور الاشتراكى، حيث رأى أنه الأحق والأفضل لما قدمه لهذا الشعب من تضحيات جسيمة، آخرها اعتقاله وابتعاده عن بيته، وحرمانه من أفراد أسرته، كان بنيتو يعتمد فى اتخاذ مثل هذه الخطوة على منصبه المتميز داخل اتحاد فورلى الاشتراكى.

كانت هناك بالطبع مؤامرات ينسجها خصومه من الاشتراكيون الثوريون الذين أزعجهم ظهوره على نحو لافت للانتباه، حتى أن بعضهم راح يصفه بالجهل والفوضوية وضيق الأفق، وسلاطة اللسان، وافتقار الذوق واللياقة.

والواقع أن هذا الهجوم الضارى الذى شنه أعضاء المؤتمر القومى الاشتراكى قد أثار أعصابه وأزعجه، مما اضطره إلى التصدى له ومقاومته، والرد عليه بأعنف مما يتصورون، حتى لا ينبس أحد منهم ببنت شفة بعد اليوم، وراح يطوف البلدان لحشد أنصاره وكسب تأييدهم له فى زعامة حزب الاشتراكين.

وكان لخطبه التى ألقاها مفعول السحر، لا سيما عندما يطالب أنصاره بالتخلص فوراً من أعضاء الحزب الذين يلعبون ويمارسون السياسة بوجوه متضاربة، حيث يمدحون الملك ليلاً فى قصره ويقدحونه نهاراً لكسب أنصارهم.

لم يكتف بنيتو بذلك، بل راح يفضح أسماء الثوريين المتعاونين مع ملك البلاد ، مما أضاف إلى رصيده بوصفه الرجل الشجاع الذى نازل خصومه وفضح ممارستهم وألاعيبهم، وفى مؤتمر الحزب الاشتراكى الذى انعقد فى

شهـر مايو ١٩١٢ استطـاع آنذاك السيطرة على اروقتـه بعد أن تعـرض خلاله لضربات مـوجعة كادت تقضى عـلى مستقبله الـسياسى، ويخفت نجـمه لقوة خصومـه وصلابة مقاومتهم وضـراوة هجومهم على شخصه وسلوكـه المتهور والستفز.

وفى أواخر العام الذى شهـد أحداثاً دامية بين موسولينى وأتبـاعه من جهة وزعماء الاشتراكية المناهضين من جانب آخر، رجحت كفة بنيتو موسولينى بعد أن احتشدت الجماهير تطالبه بتنصيـبه مسئولا فى الحزب، بيد أن مراكز القوى داخل الحزب كان تحول بينه وبين علو مكانته.

وأمام الضغـوط التى شنها أعضـاء الحزب ورؤساء لجانه ومؤتمراتـه انعقدت اللجنة التنفـيذية للحزب الاشـتراكى، وأصـدرت بيانا مطولاً يـشر جمـاهير الحزب بالامـتثال لرغبـاتها، وبالفعل جاء فـى قرار اللجنة بعد انعقـاد جلسات مطولة ومناقشات جادة تهدف إلى الصالح العـام للحزب قررت اللجنة التنفيذية بالإجماع تنـصيب البروفيسـور بنيتو موسـولينى من بلدة فورلى رئيسـا لتحرير صحيفة الحزب «أخانة».

وكان القرار المفاجئ تأكيدا على تغلب بنيـتو موسولينى على خصومه داخل دائرة الحزب، وتوسـيع دائرة نفوذه وتألقـه وتزايد المد الجماهيـرى الذى يبارك خطاه ويدفعه إلى مزيد من التقدم والانتصار حتى تخلو له الساحة مستقبلاً.

وما أن تولى بنيتو مهام منصبه الجديد كرئيس تحرير الجريدة الرسمية للحزب والتى تعبـر عن آماله وسـياساته وبرامـجه ناضل وقاتـل وكافح من أجل زيادة توزيعها حتى يبرهن لمن رشحوه أنه جدير لهذا المنصب، ومن ثم بلغت النسخ

التى طبعتها أكثر من مائة ألف نسخة، مما أثار دهشة الخصوم وإعجاب الأصدقاء والذين كانوا يراهنون على قدرته الفذة فى الوصول بالجريدة إلى أعلى مستوياتها بما يمكن أن يفوق جميع الصحف التى تنافسها.

لكن بنيتو الذى أكد جدارته وكفاءته فى تحرير الجريدة كانت تتراقص طموحاته وأحلامه أمام عينيه، حيث لم يكن راضيا بحال من الأحوال على استمراره رئيسا لتحرير جريدة الحزب مهما بلغ توزيعها، حيث كان يتطلع إلى رئاسة الحزب رغم إدراكه صعوبة ذلك فى الوقت الحالى بعد أن تجلى خصومه وبادروا لعرقلته وتجميد حركته.

على نحو أو آخر بذل بنيتو قصارى جهده من أجل الوصول إلى مراده مهما تعاظمت التحديات وتوحشت الصعوبات وتعملقت الخصومات فى طريقه، ومن ثم كان بنيتو يوطد علاقاته مع أعضاء الحزب عبر العمل الدؤوب على مجاملتهم وملاطفتهم، وإبداء اهتمامه بهمومهم وقضاياهم ومشكلاتهم الشخصية، حتى تمكن من استثارهم واجتذابهم فى سياسة اعتمدت على المكر والذكاء والدهاء.

فى تلك الأثناء كان بنيتو لا يتورع عن دك حصون الملكية المستبدة وأنصارها من الرجعيين والرأسماليين ورجال الكنيسة الموالين للملك من خلال مقالاته النارية وخطبه الحماسية التى لم يكن يدخر وسعاً فى تدشينها من أجل الحفاظ على مكاسبه التى حصدها طوال السنوات المنصرمة.

وأمام نفوذه الطاعن بين أعضاء حزبه وجماهير إيطاليا كان بنيتو يخطط سراً للوصول للبرلمان الإيطالى بوصفه أحد أعضاء الحرب الاشتراكى على اعتبار أن هذه الخطوة تعد الأهم والأخطر فى تاريخه الحزبى النضالى.

الفصل الخامس
موسولينى .. رئيسا للحكومة

(أوه ما أروع هذا الرجل) هكذا صاحت زوجته راشيل التى لم تكن تأبه بما بلغه موسولينى الذى بات قاب قوسين أو أدنى من منصب رئيس وزراء إيطاليا وأقوى رجالها على الإطلاق، لا سيما وأنها قد انكبت فى بيتها بميلان للتفرغ لتربية ولديها فيتوريو المولود فى عام ١٩١٦ وشقيقه ١٩١٨.

كانت راشيل تخجل من الظهور بجوار زوجها إعلاميا واجتماعيا انصياعا لرغبته التى لم يفصح لها عنها، حيث اعتاد على الظهور بمفرده لإدراكه مدى حيائها إزاء الآخرين، وعلى الرغم من أنها كانت على يقين من تعدد علاقاته الغرامية التى لم يكن يكف عن نسج خيوطها كلها إلا أنها منحت له الفرصة، فقد كانت تقول لمن حولها: «لكنه يحبنى بجنون».

الشاهد أن بنيتو موسولينى انتقل بمفرده إلى روما على إثر القرار الذى تسلمه من الملك بتشكيل حكومة جديدة، لعله بذلك يضع حداً للفوضى والثورة التى عمت أرجاء البلاد تحت زعامة موسولينى الذى أشعلها وبات عليه وجوب إخمادها.

وفى صباح الثانى والعشرين من شهر أكتوبر ١٩٢٢ وقف بنيتو بقامته أمام مجلس النواب الإيطالى بوصفه رئيس الحكومة الجديد قائلاً فى خيلاء أثارت دهشة من لا يروق لهم، وإعجاب من يميلون لأسلوبه وسياسته:

«أيها السادة. . أود أن أبلغكم فى هذا المقر التاريخى العريق أنه كان بمقدورى أن أحيل تلك القاعة الهادئة إلى قاعدة عسكرية مكتظة بالأسلحة يحملها أنصارى من ذوى القمصان السوداء.

كان بوسعى أيضاً يا سادة أن أنصب هنا بالتحديد متحفاً للجثث، وأحفر بحراً من الدماء وآخر من الدموع، بل لا أغالى إذا قلت لكم بملء الفم أنى كنت على استعداد أن أوصد أبواب قاعتكم هذه بالمسامير ولن يستطيع كائن من كان أن يقاومنى أو يعارض».

كانت الكلمات لكمات على وجه الملك وحاشيته، وصفعات على وجه أعضاء البرلمان الذين روعتهم حدته وصلفه وغروره ووحشيته.

فى تلك الأثناء كان أنصاره من أصحاب الياقات السوداء يتوافدون عبر وسائل المواصلات وخصوصاً قطارات السكك الحديدية لمؤازرته ودعمه أمام الملك وحاشيته.

وعلى إثر التكليف الذى تسلمه من الملك راح يشكل حكومته الوليدة من مختلف القوى السياسية الإيطالية، باستثناء تلك القوى التى كانت تجاهر بعدائها للقومية الإيطالية ، ومن ثم حظى الديمقراطيون الاجتماعيون أو الاشتراكيون وجماعات الكاثوليك والأحرار بعدد وافر من الحقائب، حتى إن أنصار موسولينى من أصحاب الياقات السوداء أو ممن أطلقوا على أنفسهم الفاشيين قد نالوا نحو أربعة مقاعد فقط

كانت سياسة بنيتو موسولينى تهدف إلى الاستحواذ على جميع أدوات السلطة وإغلاق أبوابها أمام أعداء حزبه بيد أن عنصر الزمن لم يكن ملائماً

فى تلك الفتـرة، ومن ثم آثر أن يتحلى بفضـيلة الصبر ريثـما تتراقص أمـامه اللحظة المناسبة.

كان بنيتو لا يصدق أنه بات رئيس وزراء إيطاليـا، وراح يتذكر مقولته لوالدته من أنه سوف يكون له شـأن عظيم فى بلاده، وهى العبارة التى كـان يتناقلها أقرانه بين مصدق له ومستخف به.

وللتأكيد على رغبته الجامحة فى الاستئثار بالسلطة راح يحتفظ بمنصبى وزارة الخارجية والداخلية إلى جانب رئاسته للوزارة.

وفى بحر عشـرين يوماً من توليه رئاسـة الحكومة راح يطلب عقد اجـتماع برلمانى عاجل وطارئ لـعرض بعض مقـترحاته التى من شـأنها إتاحة الفـرصة لحكومته لتصفـية الفجوة بين طبقات الأغنياء والفقـراء، والسيطرة على الأسعار التى انفلتت ولم يعد القانون الذى يحكم البلاد رادعاً لها.

كان موسولينى كثيراً ما تغنى وعـزف على أوتار الفقراء والضعفاء والبؤساء، للتـربع على أفئـدة الشعب الإيطالى الـذى كان يئن ويتـوجع ويتطلع إلى من ينتشله من براثن الـفقر المدقع الذى يضـرب قاعدته العريضـة، وفى اجتمـاعه الطارئ راح بنيـتو يلقى كلمـته المطولة أمـام أعضـاء البرلمان بـصوته الجـهورى الجذاب، وبكلماته الساحرة الساخنة الملتهبة المثيرة.

فى مسـتهل كلمـته تحـدث بنيتـو عن الأوضاع الاجـتمـاعية المـتدهورة، والاقتـصادية الطاحنة، والسـياسية المـهترئة، ثم سـرعان ما طلب من أعـضاء البرلمان منح حكومتـه بعض الصلاحيات الواسعة والسلطات الاستـثنائية المطلقة لفترة لا تقل عن عام واحد فقط.

وأمام مطالبـه التى باغت بها أعضاء البـرلمان الذين استولى عليـهم الصمت الرهيب راح يفند لهم فى طلاقة انعكاسات تلك المطالب الإيجابية على الشعب الإيطالى والأمة بأسرها، وكانت المطالب محل قبول من البعض واعتراض من البعض الآخر، ولما تجلى له غلبـة مؤيديه اقترح اللجوء إلى التـصويت السرى والامتثال لما سوف تسفر عنه نتيجة تصويت أعضاء البرلمان على اقتراحه الخطير.

لقـد استطاع بذكـائه الحاد أن يدرك مـدى التـأييد الذى تجلى على وجـوه الأعضاء بعـد أن تفرس وجوههم، ولو كان يعلم أن التصـويت السرى سوف يأتى برياح عاتية لا تشتهيها سفنه ما اقترح عليهم ذلك.

وفى غضون نـصف الساعة من إجراءات الاقـتراع السرى المباشـر أسفرت العملية عن قبول اقتراحاته بأغلبية بلغت نحو ٢٧٥ صوتاً مقابل ٩٠ صوتاً أبدوا مخاوفهم من توسيع صلاحياته.

لقد كانت النتيجة تفوق توقعاته وتنبؤاته، وهو ما دفعه للعمل والاستغراق فى كيفيـة النهوض، فضلاً عن السعى إلى اكتسـاب المزيد من صلاحياته وسلطاته حتى يتسنى له حكم البـلاد من خلال قبضة حديدية وإن أدى الأمر فـيما بعد إلى الإطاحة بالملك والقضاء على حـاشيته وتصفية أنصـاره رمياً بالرصاص إذا دعا الأمر لانتهاج مثل هذا الأسلوب الدموى العنيف.

ومضى فى سـياسته الحادة والعنـيدة، وقد كان كثـيراً ما يختلى بنـفسه فى مسكنه الجديد لحفظ بعض الأرقام والبيـانات قبل إجراء أية مقابلات أو إلقاء أية خطابات حتى يلقيها أمام الجماهيـر أو الضيوف بصورة عفوية تظهر مدى قدرته

العـقلية الفـذة فى حفظ المعلومـات والإحصـاءات بغرض جـذب الجماهـير واستقطابهم والاستحواذ على إعجابهم به.

ويبدو أن هذه الحيلة كـان يتحلى بها الطغاة على مستـوى العالم، حيث إن أغلب زعماء العالم العربى لا يكفون عن ترديد الأرقام والإحصاءات والبيانات بصورة تلـقائية تدفع السـامعـين للدهشة والاسـتغراب، وهى للأسـف حيلة انطلت على الشعوب طوال العهود الماضية.

لم يكن ذلك فحسب، بل إنه كثيراً ما تظاهر علناً بالوقوف مع أبناء الطبقات الفقيرة كلمـا أبدى الشعب سخطه من أحد الوزراء، حيث كـان يلومه ويقرعه ويصرخ فى وجهه أمام الإعلاميين حتى تنتقل تلك الواقعة إلى الشعب ، ومن ثم كان يطلق عبارات حماسية مثيـرة تسحر ألباب الفقراء، أما الغريب فأنه كان يلاطف أولئك الوزراء الذين لامـهم أمام الصـحفيـين إذا ما اخـتلى بهم فى مكتبه، الأمر الذى كان يثير دهشة الوزراء وامتعاضهم من طريقته.

كان أيضاً كعهد التاريخ بالطغاة والمسـتبدين لا يكف عن الخطابات الحماسية والملتهـبة والمتأجـجة بنيران الوطنيـة والقوميـة والاشتراكيـة، حيث كان مـولعاً بالتواجـد بين العمـال فى مصـانعهم والفـلاحين فى مزارعـهم والطلاب فى جامعاتهم، ولم يكن يمل من التقاط الصور عبـر عدسات الصحفيين المرافقين له ونشرها فى صدر صـفحات الجرائد الإيطالية، وفى صفـحاتها الأولى على وجه الخصوص.

كان يظهر وهو يحصد القمح، ويقبل الـفلاحين ويحمل أطفالهم ويداعبهم فى حنو الأب وعذوبته، كـما ظهرت صوره إلى جـوار العمال ووراء الآلات

والماكينات، حتى أضحت من أهم مقتنيات الشعب الإيطالى الذى آثر الاحتفاظ بصوره حبا ورعباً، وهو الأمر الذى لاحظناه لدى البلدان التى كان يحكمها ويتحكم فى مصائرها الطغاة وأصحاب النزعة الديكتاتورية دون غيرهم.

لقد تبين لنا على مدار التاريخ أن الدول التى تحكم عبر صناديق الاقتراع السرى المباشر النزيهة أن جدران بيوتها ودواوينها تخلو من أية صورة، كما أن زعماءها لا يهدرون الوقت الثمين فيما لا طائل من ورائه، حيث لا يعيرون عدسات الإعلاميين اهتماماً يذكر.

نهايته.. لقد استطاع الدوتشى تغيير وجه الحياة البائسة فى إيطاليا إلى حياة مشرقة متوهجة متألقة بعد أن سن تشريعات صارمة، واتخذ إجراءات حازمة، وأصدر قوانين رادعة تلزم كل من تسول له نفسه المساس بقوت الشعب بالتراجع وإلا واجه عقوبات مشددة لم يعهدها الشعب من قبل.

كان تطبيق القوانين لا يعرف المجاملة أو الاستثناء الذى كان متفشياً ومنتشراً فى ربوع إيطاليا، حتى بات الفساد أحد أهم معالم الساسة الإيطاليين الذين كانوا لا يتورعون عن الاستحواذ والتكويش والنهب والسلب دون وازع من ضمير، لم يكن الدوتشى على استعداد لإفشال سياسته الرامية إلى نهضة إيطاليا، ومن ثم انتهج سياسة ارتاح لها الشعب حيث لم يكن يفرق بين طبقة وأخرى.

كان موسولينى مفعماً بالأمل، مملوءاً بالنشاط والقوة والطاقة والحيوية والانطلاق، لا سيما وأنه لم يكن قد بلغ الأربعين من العمر.

وما من شك أن سياسة موسولينى الحازمة الصارمة الحديدية أسفرت عن نتائج مبشرة، حيث تحولت القطاعات التى كانت قد شهدت عجزاً هائلاً فى إيراداتها إلى قطاعات رابحة لم تعد تعرف العجز والخسارة.

لم يكن ذلك فى قطاع واحد فحسب، بل امتد هذا النجاح إلى جميع القطاعات والمصالح الحكومية، حتى أن الدقة والالتزام والنظام والنظافة أضحت من أهم سمات ومزايا الشعب الإيطالى الذى استجاب على الفور لنداء الدوتشى ودعوته إلى إحياء إيطاليا التاريخية العريقة.

فى تلك الأثناء تزايدت شعبية الدوتشى وتجلت زعامته وبرز دوره حتى أصبح معبوداً للشعب الإيطالى الذى لم يكن يمل من إطلاق الشعارات والعبارات المعبرة عن محبته وعشقه وتقديسه لهذا الزعيم العظيم.

كانت الجماهير الغفيرة تترقب خطبه وتتوق لعباراته وكلماته، ولو امتد بها الانتظار تحت لفحة الشمس المحرقة طوال ساعات النهار فداء من أجل رؤية الدوتشى والاستماع لسحر بيانه. ولم يكن هناك ما يدعو للغرابة حين ارتقى الدوتشى القمة وبات أعظم رجالات إيطاليا على الإطلاق، وأقل ما يوصف به أنه كان كذلك فى عيون أمته.

ومن ثم أطلق عليه البعض أنه أحد الآلهة أو ما يشبه ذلك وهو ما ورد فى كتاب «كريستوفر هيبرت» حيث قال بالنص فى الصفحة العشرين من كتابه «بنيتو موسولينى»:

«وانطلق صوت أحد القادة فى السلم الفاشى ويقول وهو يرقبه واقفاً وكأنه

إله يطل من فوق قمة الأولب.. انظر إليـه.. إنه أشبه ما يكون بالإله... فرد رفيقه الذى يقف إلى جانبه.. لا إنه لا يشبه الإله بل هو إله».

تأمل كـيف استطاع الدوتشى بنيـتو مـوسولينى أن يسـتولى عـلى مشـاعر الإيطاليين ويتربع فى قلوبهم ويتعشش كالعنكبوت فى خلايا عقولهم؟!

ولأن الدوتشى قـد بادر بالقول مـراراً وتكراراً حال وصـوله للسلطة بأنه لا يحمل فى صدره عقيدة بقدر ما يحـمل فى يديه برنامجاً يعتمد على العمل، فقد بذل هو نفسه مجهودات حثيـثة فى سبيل إعلاء الفاشية التى يتبناها حزبه، والتى تتعارض كليـاً مع الأيدلوجيات الشيـوعية والاشتراكـية، حتى تمكن من فرض نفوذها ودحـر أية عقائد أخرى يمكن أن تشكل خطراً على مـسيرته، كان الدوتشى لا يدخر جهداً فى تسويق مفاهيم الفـاشية وتفسيرها للعامة حتى يمكن للجميع قبولها واستيعابها.

وعلى ضـوء مـا يأمله راح الدوتشى يردد فى خطبـه قـائلاً: إن الفـاشيـة الصادقة والحقيقية تتميـز دون غيرها من الإيدلوجيات الأخرى بالحزم والصرامة والجنوح نحو القومية، فضلاً عن انـفرادها بالنزعة السلطوية لكونها تحمل أمانة إبلاغ عقيدة ترتكز على الانضباط الصارم لكونها مركز صناعة الخليفة الشرعى «ملك البلاد».

لم يكن ذلك ما يقـصده الدوتشى من وراء ترويجه النشط للسلعة الفـاشية التى لم تكن تحـمل جناحين لتـحلق بهما فـى الفضاء الكونى الـواسع، حيث اقتصـر حبوها على الأرض الإيطاليـة دون أن تسعى للطيران خارجـها، نظراً

لقسوة وغلظة أدبياتها التى كان يتعذر على الدوتشى تبسيطها، ويصعب على الفرد فهمها كما نجح القادة الماركسيون الشيوعيون فى بيع سلعتهم لنصف الكرة الأرضية، حتى أن بعضها تمسك بمبادئها وظلت على إيمانها بعد أن كفر الاتحاد السوفييتى بها!!.

المهم أن الدوتشى كان يقول بصورة دائمة أصابت من حوله بالملل والضجر من فرط ما نما لمسامعه بنفس مخارج حروفه وألفاظه أن الفاشية ترفض النظريات الديمقراطية للدولة ترى أن المجتمع لا يوجد من أجل الفرد، وإنما يخلق الفرد من أجل المجتمع ولا تلغى الفاشية وجود الفرد كما ألغى الأفراد وجود المجتمع فى بعض العقائد البدائية، وإنما تخضع الفرد للمجتمع تاركة إياه حرا فى تنمية شخصيته فى خطوط يفيد منها مواطنوه.

وفى مواقف أخرى كان يقول متحدثاً عن الفاشية «إنها - أى الفاشية - يمكنها القيام على أكمل وجه بدور الحرية والحقيقة والغنى والديمقراطية والاشتراكية».

ولم تعتمد خطب الدوتشى على مثل هذه الكلمات الواضحة البسيطة الرقيقة، بل إنها فى العالم قد تضمنت مصطلحات شديدة التعقيد عسيرة الفهم عامداً فى ذلك متعمداً، بغية إظهار ثقافته وإبراز مواهبه وإبداعاته وطلاقة لسانه وقدرته على الإلمام بكافة المفاهيم التى لا تتلوكها الأفواه، وأما ما يدعو للدهشة من تصرفات الدوتشى فهو إدراكه ويقينه بأن معظم ما يرد على لسانه خلال خطبه لا يمكن للمواطن الإيطالى فك شفرته، لكنها الحيلة التى لجأ إليها لتعظيم نفسه وتفخيم عقله وتضخيم ذاته.

لذلك قال ذات مرة فى إحدى خطبه معلقاً على هذا الأمر: (على الشعب الإيطالى أن يتوقف عن محاولاته الدؤوبة فى فهم الفاشية، حيث إن على الشعب ممارستها عمليا دون الاعتناء بالنظريات، لأنه يجب عليهم الإحساس بها بدلاً من الاستغراق فى التفكير بشأنها!!).

واستطاع الدوتشى غرز بذور الفاشية فى تربة الأمة الإيطالية طوال سنوات حكمه، وسرعان ما أصابها العطب بعد أن فاضت روحه إلى السماء ليقتلعها الشعب من جذورها أسفا وندماً على سنوات أهدرها عشقاً لهذا الرجل الأسطورة..

* * * *

الفصل السادس

موسولينى ... الإنسان

لم يكن الدوتشى بالأنيق أو الرقيق، بل كـان على العكس من ذلك تماماً، حيث اتصف بالفـوضوية والعبثيـة فى مظهره، كما اشـتهر بين قومـه بالخشونة والقسوة وسـلاطة اللسان، ولم يكن رث الثياب فحـسب، حتى بعد أن تولى منصب رئاسة الوزارة الإيطالية، وقلما شاهدوه فى هندام جميل وأنيق.

والحاصل أن الرجل قد اعتاد ذلك منذ صـغره، حتى أن رجاله الذين كانوا يعشقونه حتى الجنون قـد سئموا قذارة ثيابه المتسخة بصـورة دائمة، غير عابئ بنظرات الآخرين مـتعللاً أن ذلك من أبرز مظاهر تواضـعه، والواقع أن بنيـتو استطاع توظيف نشأته الفقيرة البائسة التـى استعرضناها على نحو تفصيلى دقيق من أجل اجـتذاب الشـعب من حوله، مـردداً عبـارات بليغـة مثيرة حـافلة بالشجاعـة والبساطة والتواضع، فـقال: «لقد جئت من بين فـقراء هذا الشعب العظيم»، و«أنى أشعر بمعاناة أولئك البؤساء لأننى عشت فقيراً بائساً مثلهم».

وكثيـراً ما كان يحتـضن العمال ويتأبط ذراع الفلاحـين، وابتسامة مـشرقة تتجلى على وجهه تبرهن على بساطته وطيبة قلبه ومحبته لأمته.

كان بنيتـو إلى جانب كل هذه المظاهر مولعا بممارسة الرياضـات العنيفة من أجل الحفاظ على صحتـه، وابتغاء رشاقة جسدية يتمتع بهـا، لا سيما وأنه قبل أن يبلغ الأربعين من العمـر قد بدت على ملامحه معالم الشـيخوخة المبكرة،

الأمر الذى دفعه لممارسة كافة أنواع الرياضات، كما كان موسولينى نادراً ما يستحم أو يسبح فى حوض سباحة شأن جميع أبناء شعبه، فقد اعتاد على إزالة رائحة عرقه من خلال استخدام الروائح العطرية النفاذة، وهو ما يذكرنا بما كان ينتهجه نابليون بونابرت ذلك القائد الكورسيكى الأصل، الفرنسى النشأة والتكوين والانطلاق، الذى كان لا يكف عن تعطير جسده بالقطن المبلل بالعطور لمقته الشديد للاستحمام، وكأن القذارة البدنية إحدى أهم معالم شخصية الطغاة أيضاً، وما أكثرها.

وكانت عشيقات بنيتو موسولينى قد فضحن أمره كما جرى لنابليون من قبل، حين أكدن أن بنيتو لم يكن يغتسل بعد أن يقضى وطره معهن، شأنه فى ذلك شأن نابليون، أما موسولينى فكان يتعلل بأنه عاش ردحاً من الزمن عازباً، وأنه ما زال حتى الآن يسلك مسالك العازب، بعد أن أصرت زوجته راشيل على البقاء فى ميلان مع ولديها بعيداً عن السياسة وأوجاعها.

لم يكن الدوتشى يهتم بتلميع حذائه، أو تصفيف شعره، أو كى ملابسه، أو تنظيف أسنانه، وحتى إذا استدعى الأمر لقاء ملك البلاد فقد كان يلتقى به غير عابئ بما عليه مظهره رغم توسلات رجاله وإلحاحهم فى أن يبدو فى ثياب أنيقة، وكان الدوتشى يشيح بوجهه فى إشارة تبرهن على مدى استخفافه بملك البلاد وتهكمه عليه، رافضاً أن يظهر أمام أبناء وطنه على شاكلة الأثرياء الموسرين الذين ظل طال سنوات عمره يمقتهم ويشن عليهم أعنف هجماته، وإذا دعته الضرورة لسبب ما لارتداء ثياب رسمية بدا أمام الجميع متضايقاً

ومنظره يدعو للرثاء، كما يدعو للضحك، لا سيما وأن رابطة عنقه لم تكن فى موضعها أبداً.

ولعل استقباله لملك أسبانيا وزوجته قد أثار دهشة الملك ورجاله حين لاحظوا دون جهد عدم اعتنائه بمظهره، وإطلاق لحيته بصورة مقززة، ناهيك عن أكمام قميصه التى كانت متسخة لا يتعذر على أحد رؤيتها.

وعلى الرغم من ذلك فإن الرجل كـان لا يكف عن معاشـرة النساء، ولا يتوقف عن اصطيادهن حتى بعد أن تـولى رئاسة الحكومة، رغم ما عرف عنه من عنف وقسوة فى معاملته لهن.

كان الدوتشى عصبي المزاج، يبدو مضـطرباً، متوتراً، قلقاً، عجولاً، رغم عبقريته الفذة التى شهد بها بعض أصدقائه، وإن كان البعض الآخر قد أقسموا على أن صاحبهم لم يكن سوى إنسان فـقد عقله، وأنه سوف يقود إيطاليا إلى مجهول لا يعرف أحد عقباه، وكان كما قالوا.

أما عشقه للذات وعبادته لصورته، وتقـديسه لنفسه، فقد كان ذلك من ألمع تصرفاته وطباعه، وإن كان ذلك لا يعد مدعاة للدهشة، أو مثاراً للاستغراب، بوصفه ديكتاتوراً مستبداً وطاغية عتيداً.

وللتـأكيـد على ذلك، ولعـه باصطحاب مـصـورى الصحف فى جـولاته التفقدية، وتركيزه الشديد على عدساتهم لالتقاط الصور خلال زياراته للميادين والمصانع والمزارع، فضلاً عن إصراره الشديد على مشاهدة الصور واختيار ما يراه مناسباً لنشره فى صدر صفحات الجرائد الإيطالية.

والحقيقة التى تجلت فى شخصية هذا الرجل أنه كان لا يطيق جمع المال والثروات، عازفاً عنها، مستشهداً بالمليونير الشهير «جون روكفلور» الذى جمع ثروات طائلة وعجز عن تناول أبسط أنواع الطعام انصياعاً لتعليمات الأطباء، وخوفاً من مغبة ذلك على صحته!!.

لذلك كان لا يتقاضى أجراً أثناء رئاسته للحكومة الإيطالية متذرعاً بأن يتقاضى مبلغاً من المال نظير بعض المقالات التى يبعث بها إلى الصحف الإيطالية.

وربما كان ذلك من أبرز مناقب هذا الرجل الديكتاتور حيث أبى واستعصى على معاونيه الذين بذلوا قصارى جهدهم فى محاولة إقناعه بالعدول عن رفضه تقاضى راتب شهرى قدر آنذاك بنحو ١٢٥ ألف ليرة إيطالية شهرياً، حيث كان يجيب وهو يبتسم قائلا: «وما حاجتى لكل هذا المال»، هنا فقط لن يكن بنيتو متوافقاً مع الطغاة والحكام المستبدين الذين لا يكلون ولا يملون من جميع الثروات من أقوات الشعوب الجائعة، وتكديسها فى خزائن سويسرا تحت مسميات متنوعة، بل إن تلك السمة أراها فى ظنى من شيم الصوفية الحقة التى لا تبالى ولا تعير اهتماماً بمباهج الدنيا وزخارفها.

إن هذا المسلك يشير إلى حرص موسولينى على الظهور أمام شعبه بالرجل المتصوف، وصاحب الرؤيا المتصوفه الباطنية حسبما اصطلح عليه حينئذ. وكانت الصوفية الباطنية تتخذ من الطقوس والقواعد الدينية وأساليب الرقص وموسيقاه والرجوع الروحانى إلى الماضى أهم ركائزها وأدواتها.

وللتأكيد على ذلك فقد كان موسولينى يقول دائما حتى فى أحاديثه الصحفية دون خجل أو ترد، لإدراكه مدى انعكاسات تلك الأقوال على وجدان الشعب الإيطالى: إن الجوع الذى ذقته مرب صالح، مرب صالح بالفعل كالسجن والعدو.. لم تكن أمى تتقاضى أكثر من ٥٠ ليرة شهرياً مقابل اشتغالها كمعلمة، أما والدى فلم يكن يربح أكثر مما يقدر كحداد متواضع، كنا نقيم فى غرفتين فقط ولم نكن نذوق اللحم تقريبا، ولكننا كنا نأمل ونتفاءل ونتناقش.

سجن والدى من أجل لصقه للافتات الاشتراكية، وقد حرضنى ذلك على أن أسعى لكى أكون على ما أنا عليه الآن، إن تربية خلقى فى دارنا تربية شديدة، ولو تفرس الناس فيّ حينئذ من قريب، وأنا لم أتجاوز السادسة عشرة لرأوا فىّ ما أنا فيه حالياً.

إن خروجى من صفوف هذا الشعب الرائع أهم حدث فى حياتى على الإطلاق.

ويضيف قائلاً: إن لنشأتى الفقيرة البائسة تأثيراً بالغاً وعميقاً، وسيظل ملازماً لى حتى أرحل عن هذه الدنيا، إن من يعمل فى الحدادة، ويمسك بالمطرقة أمام النار يعشق المادة التى يسخرها كيفما شاء.. إننى أشعر بمحبة وعطف شديدين نحو أولئك الصناع الحرفيين، وخصوصاً البنائين، لأننى أشعر إذا التقيت أحدهم أننى أود أن أعمل بدلاً منه.

لقد عاش بنيتو متبسطاً متواضعاً راضياً قانعا، وهو الذى إن أراد أن يستحوذ لكان له ما أراد.

ولكن رغم أنه كان يكتـفى بارتداء بدلة واحدة طوال أيام الأسـبوع، وألحق أولاده الثلاثة «بنتاً وولدين» بالمدارس الحـكومية فقد كان يمـتلك طائرة خاصة بعد أن تعلم فنون الطيران، وقد علل ذلك بعشقه للتحليق فى الفضاء للهروب من جحيم مسئولياته، كما كان يمـتلك سيارة فارهة يقودها بأقصى سرعة ليلاً داخل شوارع روما كلما استـأنس إحدى عشيقاته للتنزه معها متـخفياً، فضلاً عن حرصه على شراء الجياد الأصيلة التى اكتظت بها اسطبلاته الخاصة.

أضف إلى ما سبق عشقه وهوسه باقتناء الحـيوانات الأليفة والمتوحشة، حتى أن بيته كان أشبه بحديقة حيوان عامة، ثم كان يمتلك أحد القصور الفخمة ذات البصـمات الإقطاعية التـاريخية، وهى كلها ممتلكات تتـعارض كلياً مع تقـشفه وزهده، وتبين مدى انفـصام الشخصية الـذى كان يعانى منه هذا الرجل الذى أراد أن يظهر أمام شعب بلاده كأحد الرهبان وهو فى ذات الوقت يتنسم عبير قريته عبر إقامته داخل القصر الإقطاعى الذى استولى عليه.

ويبدو أن بنيتو كان زاهداً متقشـفاً بالفعل، بيد أنه كان يتضاءل أمام هوايات تعذرت عليه مقاومتها أو الابتعاد عنها، لكنه على أية حال صار قديس الشعب وملهمه ومعبوده الذى لا ينازعه أحد فى ذلك.

أما هوس الجماهير الإيطالية فمرده لـسحره وبلاغته وطلاقة لسانه، وقدرته الفذة عـلى دفع سامعـيه للتـغنى باسمـه «دوتشى. . . دوتشى. . . دوتشى»، والأكف لا تكف عن التصفيق، والدمـوع لا تتوقف عن الجريان، من فرط ما يلقيه من عبارات حماسية، قلما يكون لها مثيل.

ومع استمرار بقائه على السلطة راحت الأساطيـر تلاحقه والقصص الخيالية تحـيط به أينما حل، وقـد تجلى ذلك أثناء ثورة بركـان إتنا فى جنوب إيطاليـا، وحين راح يتفـقد الأحوال خمدت ثورة البركان، فـأشاع الإعلام الإيطالى أن الدوتشى نجح فى تكسـير إرادة الطبيعـة الغاضبـة، على اعتبـار أن ظهوره فى البلدة المنكوبة أدى إلى إخماد الثورة البـركانية، وقد راجت هذه الأسطورة فى صفوف الشعب الإيطالى دون أن يتجاسر أحـد على تكذيبها أو دحضها بما لا يستقيم مع المنطق.

وروى كريستوفر هربرت على مسئوليته نادرة أخرى وثيقة الصلة بهذا الشأن أيضاً، مؤكداً أن سيدة إيطالية توجـهت لزيارة قبر أورفيينو الأيتروسكانى وفيل: قد لاحظت أن أحد الزائرين يحاول فهم الكتابات المتناثرة على شاهد القبر دون جدوى، فـإذا بالسيدة العـجوز تقول له فى ثـقة ويقين: ربما كـان السبب وراء جهـلنا بهذه اللغـة المكتوبة على الـشاهد أن الدوتشى لم يتـسنى له زيارة هذه المقبرة وأننى واثقة أنه وحده فقط سوف يكشف طلاسمها ويفك ألغازها.

وهكذا أضـــحى الدوتشى من أهل الخطـوة، والذين يمـشـــون على الماء ويحلقون فى الفضاء، أو قل: هو شامبليـون إيطاليا المعاصر الذى لا تستعصى عليه الحروف والكلمات، بغض النظر عن هويتها ومصدرها.

لقد بلغ الـدوتشى عنان السماء فـأصبح الرجل الذى لا يخطـئ، ولا يأتيه البـاطل، وكأنه أحـد الرسل الذين أرسلتـهم السمـاء إلى الفاتيكان عـاصمة المسيحية العالمية.

لكن لم يكن أولئك السذج البلهاء يعلمون أن الدوتشى نشأ مثلهم فى أجواء فقيرة تخلو من النعومة وحتى الاكتراث بالإيمان، حيث عرف منه أنه اشتهر بعدائه للكنيسة والديانة المسيحية، بل والسيد المسيح، واحتقاره لرجال الدين ورهبانهم.

ومن ثم لم يكن يتورع منذ صغره عن إلقاء الحجارة على رواد كنيسة بلدته معلناً عن استيائه وامتعاضه من رجال الدين، كما أن أولئك البسطاء لا يعرفون أن الدوتشى زير نساء يتضاءل أمام المرأة ولو كانت خادمة ما دامت قد راقت له، وأنه يعشق أفلام لوريل وهاردى الكوميدية رغم جديته وصرامته وملامحه القاسية وتكاثر تجاعيد وجهه المكتئب دائما، لقد كان أسير أفلام لوريل وهاردى وكان ذلك داعيا لتدشين قاعة سينمائية فى بيته لمشاهدتها كلما تاق لرؤيتها.

أما علاقاته مع الآخرين فلم تكن على ما يرام، حيث اعتاد أن يرتاب فى سلامة نوايا الآخرين، وربما كان ذلك من أهم معالم شخصيته، ومن ثم كان جانحاً نحو العزلة والانطواء، لا يقطع خلوته إلا صوت ناعم يتناهى إلى مسامعه ،ولذلك كان يتفاخر قائلاً بمشاعر باردة بل ثلجية: لم أشهد فى حياتى صداقة حقيقية دافئة المشاعر. . لا أقصد العلاقات النسائية، فهذه قصة أخرى، إنما أنا أقصد العلاقات القوية بين الرجال بوصفهم أصدقاء، فمن المؤكد أننى لم أصادف علاقة صادقة مخلصة مع أى رجل آخر منذ أن رحل أخى أرنالدو عن الدنيا.

وفى تأكيد جلى على رفضه القاطع لتوطيد صداقته مع أحد يقول فى مذكراته التى تضمنت العديد من العبارات الإلحادية التى تستخف بالدين قائلاً:

[لو أن الأب الأقدس جاءنى ليقول أنه صديقى لرفـضت قوله وسأهدده بقبضة يدى هذه.. ثم إن والدى ذاته لو عاد مرة أخرى إلى الحياة فلن أمنحه ثقتى فيه مطلقا.

والواقع أن بنيتو كان يتخذ من شقيقه أرنالدو صديقا وفيا، فهو ما يعزز إدعاء بالكراهية والمنفور وسوء الظن بمن حوله جميعا.

وفى ٢١ يسمبـر ١٩٣١ توفى شقيقه بعـد بضعة أشهر كان يصـارع خلالها لمرض وقد تألم بنيتو لفراقه وبكى لرحيله كما لم يبك من قبل.

وفى كتابه «خـواطر زعيم»[1] سجل بنيـتو موسولـينى مشاعره قـائلا [كان أرنالدو طيبا، فضيلة الطيبة فطرية فيه، طيبا وهذا لا يعنى ضعفاً منه، فإن الطيبة تستطيـع كل الاستطاعة أن تتـفق وأشد قـوى النفس وأصلب الميول إلى القـيام بالواجب الشخصى، ليست الطيبة مسـألة خلق فقط، فهى مسألة تربية أيضاً، ثم إنها فى سنوات النضج نتيجة تصور العالم تصـوراً تظهر فيه العناصر المتفائلة على العناصـر المتشائمـة.. لأن الطيبـة لا تستطيع أن تكون شـاكة، ويجب أن تكون دينة.

لذلك كان هذا النوع الثلاثى من العناصـر يحمل أرنالدو على الطيبة، فلم يدفعه إليها يومـا أى حساب سياسى، أو أى تلمس للشعبيـة ، فقد كان عملة طينية متحفـظا شديد التحفظ، كان يرجو ألا يفشى أعمـاله، ويضرع ولا سيما فى أيامه الأخـيرة أن ينجزوا كل شئ فى سـكون، إننى أشعر اليـوم فقط من

(١) كتبه موسولينى نشرته دار مجلتى للطبع والنشر.

الخطابات التى تصلنى بأثر المدى الذى اتخذه هذا الإحسان الذى لم يكن من النوع المادى فقط، فإن مثل هذه الجريدة كمثل شاطئ محيط تدفع الأمواج الهائجة إليه قليلاً قليلاً كل من استعصت عليهم مشكله الحياة، وكل من آلمتهم إيلاما لا تعرف فيه هوادة، ومع وسع الإنسان أن يكون طيبا بتقديمه مساعدة، أو باهتمامه بمركز أو بعثوره على مأوى، أو بمجرد قوله كلمة طيبة أو بتوجيهه لوماً صارماً، فكينونة فالطيبة تعنى أن يقوم الإنسان بالطيب من الأمور من غير أبواق الإذاعة دون أمل فى الجزاء حتى الإلهى منه، الدأب على الطيبة كل الحياة، هذه فصيلة تمنح معايير العظمة الحقيقية فى نفس من النفوس الدأب على الطيبة رغم كل شئ ورغم الخدع التى ينصبها الخبثاء للسلام الطوية، رغم جحود المنة والنسيان، رغم عدم مبالاة المثقفين . . ها هى قمة كمال أدبى يصل إليها القلة، ويلازمها القليلون للغاية.

ويضيف بنيتو قائلاً عن سمات شقيقه أرنالدو المنشورة فى كتاب (خواطر زعيم) سجل قائلاً.

إن الرجل الطيب لا يسأل نفسه يوما هل يستحق عمله تعبه؟ ويظن أنه يستحقه دائما، حيث إن مساعدة المصاب حتى لو لم يستحق، وتجفيف الدمعة ولو كانت غادرة، والتفريج عمن به كرب، وتقديم العزاء ومشاطرة الأحزان، وكل ملمح يبرهن على أن النفس الإنسانية لا تستطيع أن تعيش بمعزل عن الإنسانية، بل إنها تشترك فيها لحما ودما، يعتبر نسجا لإهاب المحبة بخيوط لا ترى، وإن كانت متينة قوية تربط الأرواح وترقيها.

من أجل هذه الفضيلة كرس شقيقى أرنالدو كل نفسه بعد وفاة ابنه سندرينو، فهو لم يفكر بعد ذلك غير فكرة واحدة، ولم ينو على غير أمر واحد، الإحسان لتكريم ذكرى ابنه، الاحسان للجميع أصدقاء وغرباء وأعداء أيضاً لا لشخصه، فلعله لم يعاد أحداً بقدر ما كانوا لزمننا وظفرنا. . . لقد كان بعيداً جداً عن أن يقصد ما أرى الآن، ولكن لا محل للشك فى أن عمله هذا كان يفيد الفاشية أيضاً.

ويستطرد بنيتو موسولينى قائلاً: كانت الفاشية تتخذ به شكلا آخر، ولا تقتصر على شكل الثورة الشديد، ضرورة كان النظام الفاشى «ينتشر» بعمه، كان الحساب السياسى يترك مكانه لدافع القلب، ولم لا يجرى شريان الطيبة فى صحراء السياسة المجدبة، ولومستترا ولكن فى صفاء وإفادة، ألم يخفف الأقوياء دائما وفى كل عصر من شدة القوة بعمل الطيب؟ ولكن.

ولكن أرنالدو لم يشأ يوما أن يكون قويا، كان يشعر بنفسه شعور المرؤوس والرجل «الوضيع» فهذه الكلمة الإنجيلية تطفر فى وصيته طفراً، ألم يكن أرنالدو يتحدث عن الوضعاء فى خطبته الأخيرة، أيضاً ٢٠ ديسمبر أى قبل وفاته بيوم واحد فقط، ألم يكن الحشد الذى لا يحصى والذى اجتمع خلف تابوته دليلاً على أن نفس الشعب تحترم القوة ولكنها تحب الطيبة؟ فضيلة الطيبة تأتى معها بسجية أخرى هى سجية العفو، وقد كان أرنالدو يعفو حتى وقبل كل شيء عن الذين كدروه ونغصوا عليه عيشته، وكانت تدفعه إلى ذلك عقائده الدينية الدائمة العميقة، فقد كان دينا لكنه لم يكن مؤمنا كما قال بنفسه فى آخر محاضراته بمدرسة الفلسفة الفاشية.

إن وصيــة شقيقى أرنالــدو التى حررها عام ١٩٢٨ كانــت تتضمن اعتــرافا بتدين لا يقل عن هذا.

لقد ظلت معه هذه العقيدة طوال سنوات عمره، حيث إنها لم تكن بالعقيدة التى تهبط على المرء فى ساعة الشــفق، عندها تخدع الأرض الإنسان وتضيق عليه فيذكر السماء، ولكنها كانت عقيدة الحداثة الأولى، ثم عقيدة كل الحياة.. الإحسان باسم سندرينو هذا مــا كان يبغيه أرنالدو بعد شهــر أغسطس المشئوم عام ١٩٣٠.

ويؤكد بنيتو أن من بين الأوراق التى عثرت عليها فى مكــتبته بقصر مرجريتا نسخة من «العهد القديم» وورقة صغيرة مكتوبة بخطه تقول: انظر مزمور ١٣٠.

والمزمور ١٣٠ هو نشيد الحجيج ويقول:

من الأعماق صرخت إليك يا رب

يا رب استمع إلى صوتى

لتــكــن أذاك منــضــتتان

إلى صــوت تضــرعى

ثم سرعان ما عرج بنيتو موسولينى بالقارئ إلى وصيته التى سبق وأن نشرتها جميع الصحف الإيطالية الصادرة حينئذ وقد تصدرتها عبارة موجزة قال فيها:

«لا تطيلوا موكبى... اقتصدوا فى تأبينى

ولا تسرفوا فيه»

وقد علق بنيتــو على مسألة الوصية قائلاً: «لم ولن أكــتب وصيات من أى نوع كان، لا روحية ولا سياسيــة ولا خاصة، لذلك من العبث أن يبحث عنها أحد بعد رحيلى، وليس على ســوى رغبة واحدة، وهى أن أدفن بالقرب من ذوى قربتى فى مقبرة (سان كسينو).

ولعلنى أكون شديد السذاجة لو طلبت أن أترك فى سلام بعد أن أموت . . فمن المستــحيل أن يستقر الســلام حول مقابر رؤساء تلك الانقــلابات العظيمة التى تدعى بالثورات. . ولكن أحدا لن يستطيع أن يمحو كل ما قمت به، بينما ستحيى روحى خــلاصها من المادة، وبعد هذه الحياة الدنيوية الفــانية من حياة الله الأبدية اللانهائية.

* * * *

الفصل السابع
الانفراد بالحكم

بدأ موسولينى يسعى جاهداً لتثبيت أقدامه فى أرضية الحكم عبر الارتكاز على الصناديق الانتخابيـة لتمرير أهدافه وغاياته باسم الديمـقراطية، تلك التى قال عنهـا الفيلسوف الفرنسى العظـيم فولتير: كم من الجـرائم ترتكب باسمك أيتهـا الحرية؟! صـحيح لقـد تمكن الطغاة من الوصـول إلى سدة الحكم عـبر الصناديق الانتخـابيه ثم سرعان مـا ألقى كل منهم بحجر فى الكلوب لإفـساد عرس الديمقراطية تحت مسميات الأمن القومى ومصالح البلاد العليا وتكريس السلام الاجتماعى وحماية الوحـدة الوطنية، وهى مصطلحات أجاد موسولينى وهتلر توظيـفهـما لخـدمة أهدافـهمـا المتعلقـة بتوطيـد نفوذهمـا وسلطانهـما واستبدادهما.

الشاهد أن بنيتو موسولينى كان قد طالب فى صيف عام ١٩٢٣ عبر مشروع انتـخابى قـدمه إلى البـرلمان الإيطالى تقسـيم البلاد إلى خـمس عشـرة دائرة انتخـابية، على أن الحـزب الذى يفوز بأعـلى الأصوات بشرط ألا يـقل عدد الأصوات الفائز بها عن ٢٥٪ من مـجموع أصوات الناخبين المقـترعين يسيطر فى مثل هذه الحالة على ٧٠٪ من مقاعـد البرلمان، فى حين تتقاسم الأحزاب الأخرى النسـبة المتبـقية والتى تعـادل ٣٠٪ طبقاً لنسـبة الأصوات التى قـام بها الحزب.

طبعـا كان بنيتـو يسعى من خلال هذا المـشروع إلى تدعيم حـزبه، بحيث يتمكن من تهـميش بقيـة الأحزاب الأخرى ريثـما ينجح فى توطيـد نفوذه ثم يصبح لكل حادث حديث فيما بعد.

وطبيعى أن تبدى الأحزاب بمختلف اتجاهاتها وتوجـهاتها انزعاجها واستياءها من هذا المشروع الظلامى الذى أعده موسولينى خصـيصا لنفسه، بيد أن هذه الأحزاب قـد اضطرت تحت ضغوط أعضـائها إلى الموافقـة على المشروع، لا سيما وأن نزعة موسولينى الاستبدادية لم تكن قد تجلت بعد.

وجرت جلسـات تصويتـية على مـشروع القـرار، وقد أيده البرلمان بـأقلية ساحقة، قيل أن أصحاب القمصـان السوداء الذين يتبعون لحزب موسولينى قد هددوا أعضـاء البرلمان بالويل والثـبور وعظائم الأمـور ما لم يصوتوا جـميـعا لصالح المشروع، وهو ما حدث بالفعل، فأقر البرلمان مشروع الدوتشى بأغلبية لا نظير لها.

وفى السـابع من أبريل ١٩٢٤ دعا الدوتشـى إلى إجراء إنتـخابات برلمانيـة جديدة، وكان الهدف لا يخـفى على من فطن وأدرك ما يضمره الدوتشى فى نفسه وما يصبو إليه، وتحت إشراف أصحـاب القمصان السوداء جرت العملية الانتـخابيـة وسط تهـديدات غـير جليـة، حـتى أن الأحـزاب قد تراجـعت وانكمشت، وصحف المعارضة هدأت من نبراتها الحـادة، وبدت مستأنسة كما لو كانت إحدى أبواق الفاشيـة التى روج لها الدوتشى رغم أنف الجميع، ولم يكن أمراً مـفاجئاً أن تسفـر العملية الانتخـابية عن فوز حزب الدوتشى بـنسبة

٢٥, ٦٥٪ من مجموع الذين أدلوا بأصواتهم، وهى نسبة غير معترف بها فى أوروبا، تلك التى تشهد نتائج لا تزيد عن ٥٢٪ أو أقل قليلاً من ذلك.

لكن سرعان ما أفسد غلاة الفاشية فرحة الدوتشى بهذا الانتصار المزعوم، حين أطلق النار على أحد الزعماء الرأسماليين والذى كان يناصب الدوتشى عداءً هائلاً لم يفلح فى إخفائه رغم تعاظم التهديدات التى تلقاها مراراً على يد أصحاب القمصان السوداء.

وكان لهذا الحادث ردود أفعال غاضبة، حيث لم يكن الأول من نوعه، بل سبقه العديد من الجرائم التى ارتكبها الفاشيون ذوو القمصان السوداء، الأمر الذى أدى إلى تراجع أسهم موسولينى لدى الشعب الإيطالى، ولا سيما بعد أن نددت بالحادث الأخير كبريات الصحف الإيطالية، بل والأوروبية.

وعلى أثر الاحتجاجات والدعوات المطالبه بمحاكمة القتله اضطر الدوتشى إلى إحالة المتهمين إلى المحاكمة لإنهاء هذا الملف الذى بات صداعاً مؤلما يدق رأسه بعنف.

ولم يكن قرار موسولينى مهدئا للمشاعر الغاضبة أو مسكنا لآلامهم وأحزانهم، بل على العكس من ذلك فقد تضاعفت أعداد الساخطين وتعالت صرخاتهم ،وتصاعدت حدة غضبهم، حيث لم تكن مطالبهم تقتصر على محاكمة قتلة ما يتونى السياسى الرأسمالى، بل كانوا يطالبون بفتح ملفات الحوادث التى ارتكبها أصحاب القمصان السوداء الفاشيون الذين يقود الدوتشى حركتهم ذات الطابع العنيف، وتوالت المظاهرات الاحتجاجية يوما

بعد آخـر، حتى أن الدوتشى كاد يفـقد توازنه، فأضطر تحت ضـغط الشعب الإيطالى إلى السعى لتهدئة خواطره وكسب رضاه حتى لا يستفحل الخطر الذى بات يتربص به.

وفى صبـاح الثالث من يناير ١٩٢٥ وقف الدوتشى بنيـتو موسـولينى أعلى منصة مجلس النواب متجهم الوجه زائغ البصر يتأهب لإلقاء كلمته التى وجهها إلى الشعب الإيطالى طمـعا فى التأثير على مـشاعره وقد وقف يقـول بصوت جهورى وعبر حركات تمثيلية لافـته ومثيرة وغريبة على المواطن الإيطالى: «أيها الشـعب الإيطالى، أيها السـادة أعضـاء البرلمـان، إننى أتطلع إلى خطب ودكم وتهدئة خواطركم، والسعى إلى إرضائكم، ومن ثم فـأنا أتعهد أمامكم بالعفو عن خصـومى الشريرين الذين أشـاعوا الفوضى وحـاولوا أن يعبثـوا بمقدرات الأمة، لأننى أهدف إلى الالتفات للعمل، والعمل فقط هو الذى ينتظرنا حيث لا جدوى من وراء مـثل هذه الصدامات الهـزلية. . إن بلادنا فى حـاجة إلى سواعـدنا وطاقتنا وجهـودنا وكفاحنا وعـرقنا وإرادتنا وعزيمتنا وصـلابتنا، أيها السادة، إننى أعلن أمـامكم هنا. . بل أمام الشعب الإيطـالى بأكمله. . بأننى وحدى فقط الذى أتحمل المسئولية السياسية والتاريخية عن كل ما حدث، فإذا كانت الكلمات التى أسيء نقلها تكفى لإعدام مواطن فإلى الجحيم إذن بالمشنقة والحبل. . وإذا كانت الفاشية قـد تحولت إلى طعم غير سائغ كالعلقم، أو بدت فى أعين الآخـرين هراوة ولم تعد مـجرد فكرة نبيلة رائعـة تسكن فى قلوب شباب أمتكم، فإن الذى يتحمل اللوم والمؤاخذة هو أنا، وأنا فقط. . .نعم أيها

الشعب، أنا فقط ولا أحد غيرى، وإذا كانت الفاشية قد تحولت إلى أوكار للمجرمين، وأضحت مؤامرة إجرامية على الشعب فإننى أنا فقط، أكرر أنا فقط المسئول عن كل ذلك. . . وإذا كان العنف قد نما فى ظل مناخ سياسى وتاريخى وأخلاقى فأن المسئول أيها السادة. . . نعم أنما المسئول لأننى ببساطة أنا الذى هيأت لهم هذه الأجواء دون أن أتوقع أن هذا من شأنه أن يثير متاعبكم وأحزانكم.

إن ما تتطلع إليه إيطاليا هو الهدوء والسلام والعمل والطمأنينة، وسوف أمنح بلادى ما تريده بالحب إن شاء ذلك . . وبالقوة إذا تطلب الأمر ذلك.

واستطاع موسولينى عبر هذا الخطاب أن يستقطب قلوب الأمة الإيطالية بأسرها ويحاصر خصوم الفاشية بتحمله المسئولية الكاملة.

وما من شك أن هذا الخطاب الذى بادر موسولينى بإلقائه على البرلمان الإيطالى قد نجح فى تحجيم الخصوم، ولم يترك لهم فرصة أخرى لتوجيه سهام النقد الجارح إليه، ومن ثم استطاع سحب البساط من تحت أقدامهم لتهتز الأرض اهتزازاً فيسقط منهم على الأرض من يسقط، ويجتاح الخوف صدور بعضهم، لا سيما الذين أدركوا أن الدوتشى يضمر شيئاً فى الأفق البعيد، وقد لاح لهم ذلك من كلماته وأقواله التى وردت فى الخطاب.

ولأن الفاشيين الذين يرعاهم موسولينى وكانوا فى حمايته ويستظلون بمظلته قد أسعدهم خطابه فقد استفحل خطرهم وتوحش نفوذهم، فانكمشت أمامهم الأحزاب المعارضة، وتقوقعت الصحف المناهضة لموسولينى تجنباً لغضب

الفاشيين واتقاء لشرورهم، لا سيما وأن القمصان السوداء التى يرتدونها باتت علامة للبطش والقوة والعنف والطغيان.

لقد كان الخطاب جواز مرور للديكتاتوريه وإنهاء عصر الديمقراطية فها هو الدوتشى يسعى لتوسيع الفاشية فى أرجاء البلاد ، ويدعو فى جرأة إلى حل جميع الأحزاب لخطورتها على الأمن العام والسلام الاجتماعى، ومجلس النواب بات يدين بالولاء للدوتشى خوفا ورعباً بل وراح يعين أتباعه فى جميع مناصب البلاد الصغيرة والكبيرة وما بينهما ضمانا لتعظيم الفاشية حتى السلام الوطنى لم يسلم من إدراج نشيد الفاشية الذى أمر موسولينى جماهير الشعب بحفظه ناهيك عن طبع الكتب والمنشورات الداعية للفاشية، وبث البرامج الاذاعية التى لا تكف عن التغنى بعظمتها وأهميتها فى تنمية ونهضة إيطاليا.

لقد أصبحت إيطاليا تدين بالفاشية رضوخا لمطالب الدوتشى بين عاشق وكاره لها. . . لكنها فى نهاية المطاف أصبحت هى دين الدولة وميثاقها وفكرها، بل وأملها ،وراح الدوتشى يلقى الخطب النارية كلما سنحت له فرصة مخاطبة جماهير إيطاليا، حتى أنه أصبح أسطورة تدعو للإعجاب لا سيما وأنه أدخل إصلاحات هائلة داخل قطاعات خدمية عانى منها الشعب طوال العقود المنصرمة والسابقة على ظهوره.

لقد تمكن من تحسين الأوضاع المعيشية، وضاعف من رواتب العاملين والموظفين، وطالب الفلاحين بزيادة مزروعات القمح للاكتفاء الذاتى، وتوفير كافة الاحتياجات الضرورية.

كما سعى جاهداً إلى تدشين قواعد نهضة صناعية عملاقة عبر برنامج اقتصادى طموح لا شك قد أثار عاصفة من الدهشة ممزوجة بالإعجاب لدى خصومه قبل أنصاره.

ونجح الدوتشى أيضاً فى تهيئة أجواء ملائمة لبناء إيطاليا الحديثة، ومن ثم أسس المدارس والمعاهد والجامعات كما شيد المستشفيات والمصحات، ولم يكن يدخر وسعا فى القيام بزيارات ميدانية للوقوف على حقيقة ما آلت إليه قراراته على أرض الواقع، تمكن من شق الترع والبحيرات، وتمهيد الطرق وتوسعتها شبكات الكهرباء والمياه، ومدد خطوط السكك الحديدية وتحسين خدماتها وتحديث نظمها، كما حرص على غزو الأراضى التى لم تستصلح للاستفادة منها فى توفير المواد الغذائية .

الواقع أنها كانت نهضة شاملة طالت إيطاليا دون استثناء، الأمر الذى ضاعف من شعبية الدوتشى الذى تصدرت صوره وأقواله جدران المنازل والبنايات الحكومية، كما تزينت الشوارع والميادين الرئيسية بصوره التى يبدو خلالها متواضعا وبسيطا ودافئ المشاعر كعهدنا دوما بصور الطواغيت فى مختلف أنحاء العالم.

لقد تحول بمرور الزمن إلى نصف ثم سرعان ما تحول إلى إله يعبده الإيطاليون ويقدسونه، ولا يصدقون أنه بشر، رغم أن أغلبهم كان يتفاخر بلصق صوره فى غرفته وكأنه نجم سينمائى أو أحد القديسين.

وبلغ الأمر بأولئك الإيطاليين أن احتفظوا بمقتنيات الرجل، فلو أنه تواضع وشارك الفلاحين عملهم فى حركة تلفزيونية لمغازلة الشعب الإيطالى لتشاجر

الفلاحون معا من أجل الاحتفاظ بالفأس التى حملتها يده الكريمة، على اعتبار أن الفأس قد دخلت التاريخ من أوسع أبوابه.

وآه لو أن الدوتشى طبع قبلة على جبين طفل فهو فى عداد المحظوظين الذين تبسمت لهم الدنيا، وكم تستولى علامات الكبر والخيلاء على أفراد أسرته.

وهكذا تضخمت الذات الموسولينية وانتفخت أوداجه وعظمت نفسه، وبات الرجل الأسطورة المقدس الذى صار معبوداً ومرهوبا ومحبوباً، وقد تجلت مشاعر الإيطاليين الدافئة نحو الدوتشى حين تعرض لمحاولة اغتيال فاشلة عام ١٩٢٥ حين انتابت الجماهير موجة من الحزن والغضب العارم، حتى أن بعضهم دعا للانتقام ممن حاولوا اغتيال الرمز والأب والقائد والإله، ولأن الدوتشى لم يكن على استعداد لتمرير هذا الحادث دون أن يلقى بخطبة نارية كما جرت العادة، حيث صرخ قائلاً فى جموع الجماهير التى احتشدت لحمايته والاطمئنان على سلامته: (أيها الجماهير الإيطالية العظيمة ذات الحضارة والأصالة.. أود أن أطمئنكم على نفسى، وأن ما جرى مجرد حادث عارض، وأن الجرح النازف حتما سوف يندمل، وأن المجرم بالطبع سيندم أشد الندم.

يا شعب إيطاليا العظيم.. يا من احطمتونى بمشاعركم الدافئة، وأمطرتمونى بدموعكم التى ألهبت مشاعرى وعواطفى.. أود أن أقول لكم قولا صريحا مدوياً إذا أنا تقدمت للأمام فاتبعونى، وإذا أنا تراجعت للخلف فاقتلونى، وإذا هم قتلونى فاثأروا لى.

كانت الجماهير الغفيرة البائسة تتضرع إلى الله أن يشفى موسولينى الأسطورة التى تمشى حية على قدمين كالبشر، لم يكن هؤلاء يملون من الصلوات فى الكنائس من أجل شفائه، وهو الذى أنكر وجود الله واستخف بالسيد المسيح وأساء إلى تعاليم الإنجيل، وهاجم رجال الدين المسيحى طوال حياته، لكنه حب الجماهير حيث ظنت أن الحياة ستوقف بموته.

وأن شعلة الأمل التى تضئ وتنير إيطاليا ستطفأ وهى التى تشتعل من نور عينيه، ومن ثم لم يكن مستغرباً أن يطوف أهل إيطاليا شوارعها ويتوقفون فى ميادينها ينتحبون ويلطمون الخدود أملاً فى تماثل الدوتشى للشفاء.

ولم يكن هناك ما يلفت الأنظار حقيقة عندما كانوا يصرخون جميعا فى صيحة واحدة تهز أرجاء إيطاليا: قلوبنا معك يا دوتشى.. نحن نحبك يا دوتشى .. كلنا فداؤك يا دتشى تموت من أجلك يا دوتشى.

وفيما كانت الجماهير تبكى وتصرخ وتنتحب صاح مساعده والسكرتير العام للحزب روبرتو فاريناتشى: إن العناية الإلهية تحرس الدوتشى...إنه يا شعبنا الوفى أعظم وأنبل من أنجبته إيطاليا، بل هو خليفة بوليوس قيصر، من جانب آخر لم يتوقف هدير الجماهير المحتشدة تدعو للثأر والانتقام ممن أراد به سوءاً وحاول إيذاءه!!

وحيث إن الدتشى قد تنبه لهؤلاء الذين أبهرهم وسحرهم، وألقى على أعينهم غشاوة لا تبصر ماهيته وحقيقته فقد استغل هذا الحادث وما تبعه من حوادث أخرى، قيل أنها كثيرة، كان هو المستهدف والمطلوب، فقد قرر فرض سيطرته على جميع المناصب الخطيرة والمؤثرة.

كان الدوتشى يتذرع بما يتعرض له من مخـاطر تستهدف حياته، الأمر الذى قد يلقى بظلال قـاتمة على البلاد إذا سقط صريعـاً فى أيدى أعدائه الذين هم أعداء الأمة والوطن.

الشاهد أن الدوتشى استحوذ على جميع السلطات فى توظيف جلى لشاعر لشعب نحوه، وذلك أثناء محاولات اغتـياله، الأمر الذى أثار فى نفسى شكوكاً وهواجس تدفـعنى للقول بأن هذه المحـاولات ما هى إلا خطـط ربما رسمـها الدروتشى بدعم ومساندة من سكرتير حـزبه الذى كان ذراعه اليمنى من أجل إزاحة الآخرين، والتكويش على مفاتيح الأمن والاسـتخبارات، وشتى مناحى الحياة الـسياسية والحـزبية والعسكرية، ثم كـيف يتباطأ فى استـغلال هذا المناخ الذى تهيـأ له أو ساهم هو ومن حـوله فى تهيئـته وهو الذى بات المعـبود بل وخليفة يوليوس قـيصر ذلك الإمبراطور الذى كان معـبود الشعب الإيطالى فى زمن العصور التاريخية الرومانية القديمة.

ويبدو أن الدوتشى كـان متأثراً بشخـصية يوليوس قـيصر الذى كان يجـيد مخاطبة الشعب الإيطالى والتأثير على مشاعره، وقد تجلى ذلك حين عاد ذات مرة على رأس قوات جيـشه مهزوماً، وحين أراد أن يستدر عطف شـعبه قبل أن يغضب فيعصف به راح يقف وسط جماهير روما قائلاً وقد اغرورقت عيناه بالدمـوع: (يا شعب رومـا العظيم، إذا كـان لدى أى منكم بقـية دمـوع. . . فليذرفها الآن)،وهى العبارة التى ألهـبت عواطف الشعب فالتف حوله يؤازره ويساند ويدعم مسيرته ويطالب ببقائه.

على أية حال انفرد الدوتشى بالسلطة على نحو غير مسبوق، وعبر مسالك ملتوية تركزت على استقطاب جماهير الأمة الإيطالية، ومن ثم صار هو نفسه رئيس الوزراء ووزير الخارجية ووزير الداخلية ووزيراً للتعاون والقائد الأعلى لمليشيات القمصان السوداء، بل كان هو أيضاً وزير الحربية ووزير البحرية وقائد سلاح الطيران ورئيس المجلس الأعلى للسياسات!!

إذن لم يكن الدوتشى منفرداً بالسطلة، بل الواقع أنه كان مستحوذاً على جميع السلطات ممسكاً بكافة الصلاحيات، حتى أن زوج ابنته قد شغل فيما بعد منصب وزير خارجية إيطاليا.

ولأن الدوتشى كان دكتاتوراً متسلطا مستبداً طاغية فقد فتح أبواب السجون والمعتقلات، وزج بداخلها الآلاف ممن لا يروق لهم طريقته فى الحكم، وممن لا يتصفون بالجبن والسذاجة، وأولئك الذين لم تنطل عليهم مثل هذا الألالعيب السياسية.

فعاشت الصحف فى عهده تتغنى بمآثره وأمجاده وإنجازاته دون أن تقترب من المساس به أو بمن معه من قريب أو حتى من بعيد، حيث لم يعد لصحف المعارضة وجود بعد أن مارس مع مسئوليها وأصحابها أبشع أساليب القمع والقهر والتنكيل، ولم تكن أحزاب المعارضة أوفر حظاً حيث تعرضت للتعسف والإغلاق، فاستقبلتهم زنازين المعتقلات طوال سنوات حكم الدوتشى.

وعلى الرغم من أن موسولينى قد تعرض للاعتقال كثيرا فلم يكن ذلك ليشفع لأحد من خصومه أو يعفو عن أحد معارضيه، وقد قال ذات مرة فى حديث صحفى :(لقد تعرضت للسجن أكثر من عشر مرات عانيت وكابدت

فيها المتاعب وواجهت خلالها المصاعب.. وكان السجن يمنحنى متعة وراحة وسعادة لم أكن أحصل عليهم خارجه.. ولعل ذلك هو السبب فى أننى لا أشعر قط بالحقد على سجانى) وحين أجاب على سؤال الصحفى الذى سأله عن رأيه فى هؤلاء الذين زج بهم فى غياهب سجونه المترامية فى أنحاء البلاد قال فى ثقة وخيلاء: أنا ؟ لا .. لا إطلاقا.. فأنا لا أتردد، لقد كانوا هم الذين بدأوا فى إعتقالى وسجنى، واليوم جئت لأرد لهم دينهم بنفس طريقتهم).

ولعل ما رواه الكاتب الإيطالى الشهير ألبرتومورافيا فى حوار صحفى نقله كريستوفر هيربرت بالنص يبرهن على مدى طغيان الدوتشى حيث يصف مورافيا أحوال إيطاليا الثقافية والصحفية قائلاً: (كنا فى أثناء معارك الحرب العالمية الثانية بما حملته من فاشية طاغية ورقابة حازمة صارمة كنا نقدم ما نكتبه من يوميات أو مخطوطات إلى وزارة الثقافة الشعبية لنيل موافقتها، وكانت تلك الوزارة مزدحمة بمعلمى المدارس الأولية، حيث كانوا يتقاضون ثلاثمائة ليرة مقابل مراجعة كل كتاب.

وكان أغلبهم إمعانا منهم فى الحفاظ على وظيفته يسجل توصية بمصادرة الكتاب حتى ولو لم يتضمن الكتاب ما يدعو لمثل ذلك، لكنهم كانوا يبرهنون بالمنع والمصادرة على مدى ولائهم ومحبتهم وخوفهم على نظام حكم الدوتشى ورواتبهم أيضاً.

وأذكر أننى تقدمت ذات مرة بمقال إلى الوزارة أما الذين بادروا بقراءتها امتنعوا عن اتخاذ أى قرار نحوها، وتمت إحالتها إلى مساعد وكيل الوزارة،

وعلمت من مصادر موثوقة أن الرجل كان يعـانى اضطراباً نفسيا خوفا من أن يصدر حكما سلبياً لا أستحقه وأن يوافق على نشرها فيتعرض للتنكيل إذا تبين للسلطات عدم ملاءمتها للنشـر، ولم يجد الرجل مفراً من هذا العذاب سوى رفعها إلى وكـيل الوزارة نفسه للتخلص من المسئولـية، ثم واجه وكيل الوزارة نفس المشاعر المتـضاربة والمخاوف والهواجس فاضطـر بدوره أن يبعث بها إلى مكتب وزير الثقافة الذى استخف بنفسه واستصغر منصبه فى اتخاذ ما يلزم إزاء هذه المخطوطة الملعونة، فما كان منه سوى أن سلمها بيده إلى موسولينى!!

وهكذا كان يدير موسولينى شئون بلاده بالحديد والنار، حيث لم يكن هناك من يجرؤ أو يتـجاسر على اتخـاذ قرار قد يكون تافـها أو سطحيـا ما دام فى صدر الدوتشى قلب ينبض بالحياة وعين تبصر الأشياء ويد تبطش بالأعداء.

* * * *

الفصل الثامن
الدوتشى الفاشى والفوهرر النازى

ما من شك أن الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية قد كان لهما تأثير بالغ، لعلى لا أبالغ إذا قلت أن العالم قد حبس أنفاسه طوال وجود الفوهرر أدولف هتلر والدوتشى بنيتو موسولينى على سدة حكم بلديهما.

لقد تزامن ظهور الحركتين معاً فى أجواء ملبدة بالغيوم، حيث إن ألمانيا كانت تلعق مرارة هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى وتداعياتها التى أسفرت عن سيطرة الفرنسيين على أحد أجزائها، الأمر الذى ألقى بظلال قاتمة وكئيبة لدى الشعب الألمانى الذى كان يتعجل ساعة تحرير أرض الأجداد وتطهيرها من دنس الفرنسيين على حد تعبير الألمان حينئذ، ولأن هتلر كان يتطلع كالنمر لالتهام النمسا على اعتبار أن الدولتين لا ينبغى انفصال أى منهما عن الأخرى وأن لألمانيا حقوقاً تاريخية فى النمسا، فقد كانت الأجواء فى أوروبا تدعو للتشاؤم.

من ناحيته لم يك الدوتشى رغم ثوريته المتأججة معجباً بالفوهرر أودلف هتلر، ومن ثم أبدى انزعاجه بصورة علانية إزاء تصريحات هتلر ورجاله التى كانت تستعرض مستقبل التحركات الألمانية .

ومن ثم لم يكن موسولينى يميل إلى التقارب مع الساسة الألمان حرصا على مصالح إيطاليا العليا، حيث إن الاعتداء على النمسا شأنه أن يهدد الاستقرار

فى إيطاليـا، فضـلاً عن أن توحش القوة الألمانيـة أيضاً قـد يوثر على سـلامة الأراضى الإيطالية ويهـدد أمنها أمام رجل عنيد وصلب ومـتوحش وطامع فى تأسيس إمبراطوريته .

قد تكون إيطاليا ضمن مـخططاته التى يتطلع للاستيلاء عليها مسـتقبلاً، لا سيما وأن برنامج أودلف هتلر كان ضبابياً لساسة أوروبا، حيث حار الجميع فى قراءة عـقل الرجل وكيفيـة التفاهم معـه، أضف إلى ذلك أن بنيتو مـوسولينى الثورى لم يكن ممـن تروق لهم الحركة النازية وتجـربتهـا، وكثيـرا ما دافع عن فاشيته محاولاً على نحو أو آخر التمييز بينها وبين النازية.

كان مـوسولينى يـرى أن الفاشيـة تتضـارب مع النازية فى رفـضها الـقاطع للديمقـراطية، وعـدائها لليـبرالية والنظم البـرلمانية، واعـتمادها علـى التسلط والحشد الشـعبى، بيد أنه لم يكن يؤمن بما نادت به النازية مـن ضرورة تفوق الجنس الآرى وفقاً لما ورد فى نظرية الفيلسوف الألمانى (كارل هاو سهوفر) الذى كان قد عرض تفاصيلها على أودلف هتلر أثناء وجوده فى السجن قبل وصوله إلى السلطة.

وأصل الحكاية أن رودلف هس النائب الأول للزعـيم أدولف هتلر كان على علاقة وطيدة بالفـيلسوف كارل هاوسهوفر، وكان شديد الإعـجاب بما يسمعه منه، حتى أنه راح يلح على هتلر أثناء اعتقالهما فى أحد سجون ألمانيا بضرورة أن يلتقى مع هذا الفيلسـوف الذى يحمل فى رأسه مشروعـا فكريا يحتاج إلى زعيم يتمكن من تفعـيل نقاطه وعناصره وخطوطه على أرض الواقع، وبيد أن هس كان على يقـين من أن هتلر هو الزعيم القادم الذى تنتظره الأمـة الألمانية

فقد كان أيضاً على نفس الدرجة من اليقين بأن كلا الرجلين فى حاجة ملحة لبعضهما البعض.

وتحت ضغط وإلحاح هس اضطر هتلر إلى التقدم بطلب إلى إدارة السجن بطلب خلاله استقبال أحد أقاربه من الأم ويدعى كارل هاوسهوفر فى خديعة رسمها بالاتفاق مع هس.

وحين قام الفيلسوف بزيارة هتلر داخل السجن دار بينهما حوار مطول أسهب فيه هاوسهوفر وصال وجال يشرح ما يؤمن به من أفكار ورؤى مستقبلية، فيما لاذ هتلر بالصمت، وبدا وكأن الطير قد استقر على رأسه فى دهشة بالغة ولسان حاله يقول: أحسنت يا هس .. لقد أهديتنى كنزاً ثميناً لا ينبغى التفريط فيه قط.

استمرت اللقاءات الثنائية داخل السجن تجمع بين الرجلين متى سمحت إدارة السجن بذلك.

أما الفكرة فقد شرحها الفيلسوف لهتلر، وكانت تدور حول رؤية الرجل للمجال الحيوى الألمانى، حيث إن هاوسهوفر كان قد سافر ذات مرة عبر البحر الأبيض والبحر الأحمر ثم المحيط الهندى حتى استقر به بالمطاف فى طوكيو، كانت تلك الرحلة فى بواكير عام ١٩٠٩ وكان قد اقتطع خلالها بضعة أيام للراحة والتنزه فى قبرص والإسكندرية وعدنا والهند ثم سنغافورة.

الشاهد أن الرجل استخلص من رحلته أن الأساطيل اليابانية والبريطانية والأمريكية كان لهم السبق فى فتح آفاق المجال الحيوى أمام بلدانهم ، ومن ثم

أدرك مدى حاجة ألمانيا هى الأخرى لخلق مـجال حيوى، وهو أمر لا يتأتى إلا بعد أن تتأمل السياسة الألمانية بإمعان وبدقة جدوى رؤية الجغرافيا السياسية.

والجغرافيا السياسية التى أشار إليها هاوسهوفر تعنى وفق مفهومه تلك العلاقة التى تربط بين طبيعة الأرض وبين التطورات السـياسية التى ترتكز فى الأساس على معطيات جـغرافيا تتضمن الـتاريخ والجغرافيا وعلم الأجناس والاجـتماع وعلم النفس والاقـتصاد، وعلومـاً أخرى يمكنهـا إذا توحدت مـعا أن تصنع وتشكل قوة الدولة مـتى تم تحريكها بكفاءة واقـتدار لتنصهر كلهـا داخل بوتقة واحدة.

وكان هاوسهوفر يردد على مســامع هتلر بصورة ملحة أن من يملك البحر يملك العالم. وهو قول صحيح على حد بعيد، ولعل سيطرة الولايات المتحدة الأمـريكية فى عـصرنا الحـديث تبـرهن على صحـة هذه المقولة، حـيث إن أساطيلها البحـرية الحربية وبوارجها وناقلاتها تجوب بحار الدنـيا ومحيطاتها دون أن ينبس أحد ببنت شفه احتجاجا أو امتعاضا ،ثم إن فرنسا وإنجلترا كانت لهما اليد الطولى فى العالم بفضل قدراتهما فى السيطرة على البحر وبهدف السيطرة على العالم.

ومن يعود بالذاكرة التـاريخية إلى العصور القديمة والوســطى يتأكد له مدى عراقة وأصالة هذه الفكرة التى أحياها هاوسهوفر وأشعلها فى رأس هتلر.

صحـيح أنها لم تكن الفـكرة الوحيدة التى طـرحها، بل طرح علـيه فكرة الأجناس، وضرورة تفوق الجنس الآرى ليكن الشعار هو ألمانيا فوق الجميع.

أضف إلى ذلك عداء هتلر للجنس اليهودى وملاحقته له داخل ألمانيا تبنى سياسة عنصرية لتنقيه وتطهير الجنس الآرى وعدم امتزاجه بدماء اليهود، وهى النظرية أو الأفكار التى لم تكن تروق للدوتشى بنيتو موسولينى، وكثيرا ما شن عليه هجوما لاذعاً وعنيفا.. رافضا تأييد بلاده لها لتعارضها مع مبادئ الفاشية الإيطالية.

الحاصل أن موسولينى الذى سمى تلك الدعوة العنصرية بأنها بلادة وسخف مطلق وإنه لا توجد فى إيطاليا مشكلة يهودية ولا يمكن أن تقوم مثل هذه المشكلة فى بلاد تتمتع بنظام حكم سليم وفق ما ذكره، فقد التقى أدولف هتلر فى صباح الرابع عشر من يونيو ١٩٣٤ فى مدينة سترا المطلة على نهر برنيتا القريبة من مقاطعة بادوا .

كان اللقاء يتعلق بالأحداث الجارية والتهديدات التى يطلقها هتلر من حين لآخر لاحتلال النمسا، بيد أن حالة من النفور انتابت الرجلين حتى إن المراقبين السياسيين أجمعوا على أن كلا الرجلين بدا وكأنه على حلبة ملاكمة، يتربص ويتوعد كل منهما الآخر.

ويروى أتباع الرجلين أن موسولينى قد بدأ ممتعضاً من الرجل الذى ظهر أمامه بعينين شاحبتين وشعر يتدلى على عينيه، ثم إنه سريع الكلام وعصبى المزاج ويتسم بالتفاهة، حتى أن موسولينى أخبر وزير خارجيته قائلا: أنا لا أطيق رؤية هذا الرجل الكريه. قالها بالفعل خلال استراحة قصيرة كان قد اقترحها موسولينى لنيل قسط من الراحة على أن تعود المباحثات بينهما مرة أخرى بعد ساعة فقط.

الغريب أن موسولينى أكد فى مـذكراته أن هتلر رجل مجنون بالفعل، ومن ثم لم يكن مستغـربا ما جرى بينهما من صراخ وصياح خـلال المباحثات حتى كادا يشتبكاً معاً.

وهو ما دفع وزير خـارجيـة هتلر (قسطنيطن فـون نوارث) ليصف الواقـعة بقوله: (لقد بدا الزعيمان أمامى ككلبـين من كلاب الدرواس الكبيرة الضخمة يعوى كل منهما نحو الآخر) .

ولتهدئة الأجواء السـاخنة اصطحب موسولينى ضيفه العنيـد المتحجر أدولف هتلر إلى رحلة بحـرية على متن قارب صغـير جمـعهمـا فقط، فيـما التف حولهما على بعد أمتار رجال حرسـهما الخاص. وبينما كان موسولينى يهدف إلى تهدئة أعصابهـما وتبريد سخونة الموقف بينهمـا راح هتلر يتوتر حول نظرية تفوق الجنس الآرى على جميع الأجناس بما فـيها الجنس الإيطالى الذى اختلط بالجنس الزنجى، الأمر الذى أثار امتعاض موسولينى، وتظاهر بعدم الاهتمام بما يقول، حـيث قاطع مـحدثه الفظ قـائلا: هلا تأملت يا فـوهرر هذه الطبيـعة الساحرة الخلابة؟! إنها خاصة بإيطاليـا فقط دون غيرها، وكأن موسولينى يريد أن يخبره بـضرورة التوقف عن الاسترسـال فى الحديث، والاستمـتاع بالمناظر الطبيعية الجميلة.

ويقال أن موسـولينى راح يغمغم بكلمات إيطالية لمحـها رجاله الذين بادروا بسؤال عما كان يتمتم به جـانبا، فأجاب: كنت أقول فى نفسى يا له من رجل مجنون!!

لكن يبقى السؤال: إذا كان موسولينى لم يكن يطيق رؤية هتلر فى اللقاء الأول الذى جمعهما، فهل كان ذلك فى مصلحة البلدين؟ وبمعنى آخر: هل هذا البرود والجفاء يصب فى خانة إيطاليا أم ماذا.

وبعد أن انتهى اللقاء بينهما وعاد الرجلان لبلديهما لتدارس الأمر وتأمل ما جرى بينهما اكتشف الدوتشى أنه من الأهمية بمكان توثيق العلاقة مع هتلر، حيث إن جدواها ومتافعها كثيرة ومتعددة، على عكس العلاقة مع الدول الأخرى كفرنسا وبريطانيا مثلاً.

والواقع أن الدوتشى الديكتاتور المستبد ارتاح للعلاقة مع هتلر بوصفه دكتاتوراً وطاغية ينتهج نفس منهجه الاستبدادى، ومن ثم فاللقاء بينهما يخلو من اللوم والتأنيب والمقارنة بين الديمقراطية والديكتاتورية والعدل والظلم، والتمييز والمساواة، بل كان اللقاء مع هتلر يتصف بالتوافق والتناغم والانسجام مهما كانت الخلافات التى شهدها لقاؤهما الأول.

واقع الحال أيضاً أن موسولينى لم يكن يملك القدرة على توثيق علاقاته مع بلاد تدعو لتفعيل الحرية والديمقراطية رغم ما حظيت به حركته من إعجاب أفصح عنه زعماء أوروبا، لكن على أى حال خشى عدوى الديمقراطية والإصابة بفيروس الحرية القاتل لحركته، فارتمى فى أحضان هتلر، حيث إنه هو الآخر عدو للديمقراطية وأحد المؤمنين بالحكم المستبد.

أضف إلى ما سبق رغبة موسولينى فى تسوية النزاع بين النمسا وهتلر بصورة هادئة حفاظا على سلامة حدوده المتاخمة مع النمسا وألمانيا.

وما من شك أن نفس المشاعر التى يحملها الدوتشى فى صدره نحو هتلر هى نفسها التى كانت مستقرة فى صدر الفوهرر نفسه، وحتى الهدف من توثيق العلاقة بينهما كانت كلها أفكار مشتركة وموحدة، ومن ثم سعى الرجلان لتدعيم أواصر العلاقة بينهما للتواءم مع التحديات التى تشكلها بريطانيا وفرنسا.

وفى إحدى خطبه راح بنيتو موسولينى يبشر العالم بأن روما وبرلين بصدد تدشين محور يجمع العالم من حوله، لا سيما تلك البلدان المحبة للسلام والاستقرار.

وكانت دعوته الحماسية عقب لقاء جمعه بمبعوث أرسله هتلر حاملاً برقية تدعو الدوتشى لزيارة ألمانيا.

فى تلك الاثناء كان الدوتشى يعتصر ألماً من السياسات الإنجليزية المستفزة لبلاده، وقد تجلى ذلك حين أعلنت إنجلترا عن إبرام اتفاق جديد مع فرنسا بغرض فرض حماية بحرية على السفن الفرنسية التجارية فى البحر المتوسط بعد سلسلة طويلة من الاعتداءات والقرصنة التى مارستها إيطاليا وأسبانيا ضدهما، وهو الأمر الذى ابتهج منه هتلر، حيث أدرك أن موسولينى قادم فى الطريق ولن يتردد فى التحالف معه، كما أن الدعوة التى وجهها الملك البريطانى جورج السادس إلى هيلا سلاس إمبراطور الحبشة الذى كان يناصب موسولينى العداء السافر لزيارة بريطانيا بمثابة الطعنة الغادرة القاتلة التى لم يقو موسولينى على تحملها.

كان موسولينى أيضاً يسعى إلى توثيق عـلاقاته مع ألمانيا لإجهاض أى اتفاق مستقبـلى قد تعقده مع بريطانيا، وما يمكن أن يمثله ذلك على مـصير إيطاليا مستقبلاً.

إذن لا مفـر من قبول الدعوة التـى بعث بها هتلر وقبـولها لتدشين قـواعد علاقة جديدة ينبـغى الإسراع فيها لمواجهة التكتـلات العالمية التى بدت خطيرة ومثيرة.

وفى ظهر الثـالث والعشرين من سـبتمـبر ١٩٣٨ كان مـوسولينى فى زيارة تاريخية لألمانيا حيث اصطفت الجمـاهير الألمانية على جانبى الطريق بمدينة ميونخ لرؤيته والاحتفاء به.

كان الدوتشى الذى لم يكن يميل إلى ارتداء أفخر الـثياب قد أصدر أوامره بتجهيز ثيـاب رسمية أنيقة صممت خصـيصاً لهذه الزيارة، وبدا للمرة الأولى فى أجمل صورة لم يكن أحد قـد اعتاد رؤيتها من قبل، كـانت الزيارة مثيرة ومؤثرة ،حيث لاقت إعجابا هـائلاً لدى موسولينى الذى لم يكن يظن أن ألمانيا كلها ستخرج فى استقباله .

ولم تكن حرارة اللقاء الشعبى هى أهم دواعى إعـجاب موسولينى، بل دقة وتنظيم وبراعة وروعة وعبقرية العروض والمناورات العسكرية والشعبية هى التى أبهرت الدوتشى، الأمر الذى دفعـه للقول ذات مرة بأن هذه الزيارة لم تبارح رأسه قط، ولا سيما أن مشيـة الأوزة التى كان الجنود الألمان يخطونها أمامه قد أعجبته، حتى أنه أمر قادة جيشه باقتباسها وتطبيقها فى صفوف جيش بلاده.

لكن ملك إيطاليا أبدى سخطه ورفضه لتطبيق خطوة الأوزة مما أثار حنق موسوليني الذى نهض من مكانه مخاطبا مبعوث الملك بقوله: (أوه.. إن عصر المكلية حانت شمسه أن تغيب بغير رجعة.. وجلالة الملك فى السبعين من العمر وأنا أنشد الطبيعة أن تساعدنى فى التخلص منها، لقد تحملت ما لا طاقة لى حرصا على استقلال وسيادة بلادنا، وما زلت أتحلى بالصبر، فلا داعى لاستنفار أعصابى).

الشاهد أن زيارته لألمانيا لم تقتصر جداوها على اقتباس مشية الأوزة، بل إنها امتدت إلى ما هو أعمق وأوثق من كل هذه المظاهر والشكليات، حيث اضطر موسولينى أن ينحى منحى الفوهرر أدولف هتلر فى دعم سياسة التمييز العرقى ضد اليهود كتلك التى انتهجها الفوهرر، وأدت إلى استقرار الأوضاع داخل الأمة الألمانية، أو هكذا ظن.

وعلى ضوء إيمانه بتعكير صفو اليهودى الإيطاليين، وهى الكارثة التى كان يستنكفها ويستنكرها ويلوم النازى على انتهاجها اضطر موسولينى إلى اتخاذ إجراءات عقابية وتأديبية وعنصرية ضد اليهود ،وقد علق على ذلك بقوله: (إن هذه الإجراءات سوف تزيد من كراهية الأجانب لإيطاليا .. حسنا، فليكن.

أما الإجراءات التى اتخذها الدوتشى فقد كانت مماثلة لنفس تلك التى قررها الفوهرر من قبل، وتمثلت فى حرمان اليهود من العمل فى قطاعات الصحافة والبنوك والتعليم والمحاماة، وطرد جميع اليهود الذين وفدوا على إيطاليا بعد عام ١٩١٩، ثم كان أن أسس مدارس ابتدائية خاصة بتعليم أطفال الأسر

اليهودية، كما أنه أمر بعدم الزواج من غير أبناء الجنس الأرى، وحبس كل من يتزوج من إفريقيات أو من يتورطون فى علاقات جنسية!!

والحقيقة لم يكن أحد يعرف هل موسولينى كان يملك قناعة كافية عند إصدار حزمة الإجراءات العقابية المضطهة لليهود، أم أنه كان يغازل الألمان ويبرهن على حسن نواياه ووفائه لهم بالعهد.

أغلب الظن أن الدوتشى الذى كان صعب المراس يتعذر على من هو على شاكلته أن يتغير كليا هكذا إلا إذا كان بفى وراء الأسمة ما يتعذر على سواه رؤيته واستكشافه.

وظنى أن موسولينى لم يكن كارها لليهود بقدر ما كان يسعى جاهدا للتقريب مع النازيين قبل إتمام أية اتفاقيات بينهما وبين الإنجليز بعد أن ترددت أنباء مفادها أن تحركات سرية تجرى بين الجانبين على قدم وساق.

وقد تأكد ذلك حين أبلغ موسولينى أحد رجاله الذى نقل إليه المأساة التى يتعرض لها اليهود بقوله: إننى أشاطرك الرأى تماما.. فأنا بالفعل لا أؤمن قط بنظرية العداء للسامية رغم أنى أطبقها لأغراض سياسية بحتة.

وشهدت إيطاليا ملاحقات أمنية لليهود واضطهاداً عرقياً حيث أصدر موسولينى قراراته الرامية لمصادرة امتلاكات اليهود فى ١٩٣٩، بهدف مغازلة هتلر والتأكيد على التضامن معه علاوة على أن ذلك قد يؤدى إلى تحسين الأوضاع المعيشية للشعب الإيطالى إذا ما استرد أموال اليهود وممتلكاتهم.

ولم تقف الأمور عند هذا الحد المسرحى بين الرجلين، بل امتدت ليصل إلى التفاهم بينهما بشكل جوهرى وعميق من خلال توقيع تأسيس حلف بينهما باسم (ميثاق الصلب) ممت أزعج البلدان الأوربية والغرب لا سيما وأن أطماع الرجلين لم تكن خافية على أحد.

وقد ترددت أنباء مؤكدة تشير إلى اعتزام الفوهرر أدولف هتلر ضرورة استعادة الأرض الألمانية المستقطعة لصالح فرنسا، فضلاً عن رغبته فى تطبيق نظرية المجال الحيوى على الأرض .

وللتأكيد على ذلك فقد اجتمع هتلر فى تلك الأثناء مع قادة جيشه فى غرفة مكتبه وأخبرهم قائلاً فى حزم وصرامة:

إن مدينة دانزيج ليست هى هدف برنامجنا الطموح. . لكن الهدف الأسمى والأعظم والأهم هو توسيع رقعة مجالنا الحيوى فى الشرق، وأمامنا قرار لا مناص منه، وهو أن نشن هجوماً مفاجئاً على بولنده متى لاحت لنا أقرب فرصة. . وليس فى وسعنا أن نتعرض فيها لنفس ما تعرضنا له فى تشيكوسلوفاكيا. . لأنه ستكون هناك حرب، وعلينا أن نحرق سفننا، ولم تعد القضية مسألة تتعلق بتمييز أيهما على خطأ وأيهما على صواب.

الحاصل أى الحلف الجديد كان يعتمد على التعاون العسكرى فى الاساس لاسيما وأن موسولينى وهتلر امتدت أطماعهما دون أن يتحكم أى منهما فى إخفاء نواياه الشريرة والماكرة والعدائية نحو أوروبا، وكان هتلر قد اقتحم تشيكوسلوفاكيا ويرنو ببصره صوب بولنده ،فيما كان موسولينى قد أرسل قواته

لاحتلال أسبانيا وألبانيا مما جعل مـوجة من الهلع والفزع تجتاح ساسة وعروش أوروبا.

وعلى ضوء معـاهدة الحلف العسكرى المشترك طالبـت الحكومات الأوربية من سفـرائها فى رومـا بالاستفـسار عن نوايا هذا الحلف وأهدافـه ومرامـيه، وانعكاساته على الاستقرار والسلام فى أوروبا.

والتقى مـوسولينى بعدد مـن السفراء الغـربيين، وقد تعـمد أن يبلغهـما بصورة غيـر مباشرة أنه يعتزم شـيئاً ما مستـقبلاً بقوله: «إننى فى حقيـقة الأمر أناضل لتدريب إيطاليا على الحرب» !!

أريد أن أقول: إن العلاقة بين الفـوهرر هتلر والدوتشى موسولينى ارتكزت على أوضاع روادتهما وزعامة شعبية أراد كلاهما تأكيدها وزعامة تاريخية سعيا منهمـا لتكريسهـا دون أن يعبأ أى منهـما بالآثار والعواقـب الوخيمـة التى قد تتداعى من جـراء تلك القرارات المجنونة والتى برهنت الأيـام بعد ذلك على أنها بالفعل كانت مجنونة لا تصدر من عقلاء أو حكماء أو زعماء.

* * * *

الفصل التاسع
الطريق إلى الحرب العالمية

ما من شك أن طريق الدوتشى إلى أتون الحرب الثانية الكبرى كان مرصوفاً بالنوايا الماكرة التى كانت تتجلى لدى جميع الأطراف، وكان كل فريق يتربص للآخر ويتحين الظرف الملائم للانقضاض على الآخر، خصوصاً وأن حلف الصلب أو الحديدى بين ألمانيا وإيطاليا قد كان له تداعيات خطيرة على استقرار أوروبا التى أدركت أن الزعيمين قررا اصطياد بلدان أوروبا واحدة بعد الأخرى، وأنه ينبغى التصدى لهما قبل أن يستفحل خطرهما.

لكن وبصراحة لم تكن أسباب الحرب العالمية الثانية منفصلة أو بعيدة عن نتائج وآثار الحرب العالمية الأولى، أو بمعنى أدق لم تكن الحرب العالمية الثانية سوى إنهاء هدنة بعد استراحة محارب طال أمرها منذ عام ١٩١٨ حيث تهيأ المسرح الدولى لحرب مجنونة تستكمل وتحقق ما عجزت عنه الحرب الأولى.

وأصل الحكاية أن ألمانيا عقب انقشاع غمامة الحرب العالمية الأولى وإسدال الستار على خشبة مسرحها اضطرت تحت وطأة الهزيمة القاسية التى منيت بها أن توقع على هدنة فى الحادى عشر من نوفمبر ١٩١٨، كانت هذه المعاهدة قد قضت إملاءات مجحفة وشروطاً قاسية منها الانسحاب إلى ما وراء نهر الراين، ثم تتسلم ألمانيا بقية المستعمرات.. أضف إلى ذلك الشعور بالمرارة والإحساس بالمهانة التى راودت الشعب الألمانى أمام صلف وعناد وصفاقة وابتزاز المفاوض الفرنسى المتغطرس والذى أكد الحط من الشعب الألمانى.

وكانت فرنسا الدولة بضغط هائل من قيادات الجيش قد تمسكت خلال مفاوضات الهدنة بتوسيع حدودها الشرقية باستقطاع أراضى ألمانية مواجهة لفرنسا ناحية نهر الراين، رغم اعتراض حلفائها كالولايات المتحدة والمملكة المتحدة، ثم كان أن استقطعت بلجيكا هى الأخرى أجزاء من الأراضى الألمانية وفق معاهدة الهدنة والصلح، ومن ثم أصبحت مناطق أوين ومالبدى ضمن مناطق النفوذ والسيادة البلجيكية.

كما أن هولندا قد حصلت على أجزاء من الأراضى الألمانية أيضاً، حيث ضمت إليها مناطق يوستانيا وبوميدانيا وسيليزيا العليا.. وكان الحلفاء يهدفون من وراء توسيع وتضخيم بولندا لتتحول إلى دولة كبرى تمتد حدودها لتستقطع من روسيا والنمسا وألمانيا لصد الأفكار الشيوعية، ولتبقى هى حائط الصد المنيع الذى تتكسر عليه موجات المد الشيوعى.

ولم تتوقف أطماع الحلفاء المنتصرين عند هذه الشروط القاسية والظالمة، بل إن فرنسا أصرت على امتلاك مناجم إقليم «سار» الألمانى حتى يتحدد مصيره بعد مرور خمسة عشر عاماً على وضعه تحت إدارة لجنة انتداب خماسية تتبع مباشرة عصبة الأمم.

ثم بلغت المأساة الألمانية حداً غير مسبوق حين استقطع الحلفاء أراضى السوديت الواقعة فى منطقة شرق ألمانيا لتوسيع حدود دولة تشيكوسلوفاكيا بهدف عرقلة نمو أى اتحاد أو تعاون مستقبلى بين ألمانيا والنمسا، لا سيما وأن تشيكوسلوفاكيا قد نهضت وتوسعت بعد أن استقطع لها الحلفاء أجزاءً هائلة من

الإمبـراطورية النمساوية، أمـا الشروط العسكرية فـقد كانت أشـد ظلماً وذلاً ومنها:

- تحديد أعـداد الجيش البرى بما لا يزيد علـى مائة ألف مقـاتل من حملة الأسلحة الخفيفة لحفظ الأمن الداخلى.

- منع استعمال الأسلحة الثقيلة من جميع وحدات الجيش.

- نزع أسلحة الجيش الألمانى المتمركز فى منطقة شرق الراين.

- تدمير الأسطول الـبحرى الألمانى باستثناء عـدة قطع بحرية صغيـرة وغير ذات جدوى.

- إغلاق جـميع المدارس العـسكرية باسـتثناء عـدد محدد تحـت إشراف الحلفاء.

- إقرار ألمانيا بتحمل المسئولية كاملة عن أسباب الحرب وتداعياتها.

- الموافقة على صرف تعويضات لضحايا الحرب.

- منح ألمانيا بعض سفنها التجارية لفرنسا تعويضاً عما لحق بها من خسائر.

- إخـضاع بعض أراضى الراين لقـوات الحلفـاء لحين الانتـهاء من سـداد التعويضات.

- إعلان حالة الطوارئ فى الإقليم المحتل.

وهكذا تضمنت معاهدتا فرساى شروطاً كـانت مهينة وقاسية، حيث غالت فرنسـا وتشددت تحت تأثير نـشوة الانتصـار الساحق بيد أن الألمان كـانوا قد

أبرموا تلك المعاهدة تحت ضغط الهـزيمة المدوية ومن ثم لم تكن لديهم القدرة على معارضة هذه الشروط التى أدت إلى تفسخ وتشرذم دولتهم العظيمة.

فى أعقاب معاهدة فرساى مضت الأمور نحـو مستقبل محفوف بالمخاطر، حيث ظل الشعب الألمانى يـعتصر ألماً ويكتوى جـزناً، ويعض نواجذه على ما تعرضت له أرض الأجداد التى سلبها الفرنسيون الطغاة.

كان الألمان جميعاً يتطلعون إلى زعيم يرد لألمانيا كرامتها ويسترد لها أراضيها المنهوبة، ومن ثم كـان هتلر هو الزعيم المرتقب الذى ينتـظره الشعب الألمانى، ويحمله مسئولية تطهير أراضى الآباء من دنس الفرنسيين الطغاة.

تجدر الإشـارة هنا إلى أن إيطاليا قـبل عهـد الدوتشى كانت ضـمن قوات الحلفاء، ولما توثقت الـعلاقة بين النازى والفـاشى، وألقى كل منهما بنفـسه فى أحضان الآخر حـرصت إيطاليا على إخراج ألمانيا من عزلتـها، وتفكيك أغلال معـاهدة فرسـاى بدعم غير مـسبـوق لجوستن ومعنوى توج فى نـهاية المطاف (بحلف الصلب) الذى عزز العلاقات وكرس قواعد صداقة متينة بينهما.

وعلى أساس هذه العلاقة المتميزة بادرت إيطاليا عام ١٩٣٣ إلى إعلان جلى عن نواياها الطيبـة إزاء الألمان لتطالب دول الحلفاء بأهميـة إعادة النظر فى بنود معاهدة فرساى، وتقويمها بما يتواءم مع المستجدات الدولية والأوضاع الراهنة.

كان الـدوتشى يعتـمد فى دعـوته على المادة ١٩ التى أشارت إلى إمكانـية إدخال بعـض التعديـلات إذا اقتضى الأمـر لتعـزيز سبل السـلام، ولم تكن مطالب إيطاليا قاصـرة على مجرد خطابات دبلوماسيـة مرسلة إلى ذوى الشأن

بل تضمنت مباحثات ومفاوضات شاقة خاضها الدوتشى بنفسه على أمل التوصل إلى اتفاق جماعى لمطالبه.

وأمام ضغوط الدوتشى ورغم احتجاج فرنسا وامتعاضها من الدعوة التى كانت بمثابة زلزال هز عروشها وهدد استقرارها اضطرت دول اللجنة الرباعية للانعقاد فى صباح السابع من يونيو ١٩٣٣ لبحث المطالب الإيطالية ومناقشتها فى محاولة جادة لإغلاق هذا الملف الشائك، إما بتلبية رغبات روما، وإما بإنهاء الأمر كلياً وفق ما سوف تتوصل إليه اللجنة الرباعية.

وبعد أن انفض الاجتماع أذيعت التوصيات التى لم تكن سوى أقراص مهدئة للأعصاب شريطة أن تبقى الأوضاع على ما هى عليه أو تغييرها وفق رغبات الدول التى استقطعت الأراضى الألمانية لتوسيع حدودها.

وجاءت التوصية التى تمخض عنها جمل المباحثات فأراً مذعوراً حيث أصيب الدوتشى بخيبة أمل دفعته للتقارب مع ألمانيا وتحريض هتلر الذى كان يعيش على فوهة بركان يتحين اللحظة الملائمة لاستعادة أراضى الأجداد.

صحيح أن موسولينى لم يكن يهدف إلى تدعيم الفوهرر فحسب، بل كان يعمل على قدم وساق من أجل إفشال مخطط التعاون المشترك المزمع تأسيسه، والتحالف الوليد بين النمسا وألمانيا، لا سيما وأن تحركات وأنشطة النازيين فى النمسا لم تكن خفية أو عصية على أحد لكى يتفهم دوافعها وبواعثها.

بالطبع كان هذا التقارب النمساوى الألمانى من شأنه أن يزعج الدوتشى الذى لم يكن مستعداً لقبول اتحاد (نمساوى ألمانى) على حدود بلاده، ومن ثم سعى

على نحو أو آخر لإجهاض هذا المخطط، وكلما أخفق راح يبحث عن بديل قبل أن تقع الفأس الألماني النمساوى فى الرأس الإيطالى ويحدث ما لا تحمد عقباه.

* * * *

احتلال إيطاليا للحبشة

كان الدوتشى تتنازعه أطماعه الإقليمية الدولية، ومن ثم راح يرقب الخريطة الدولية، ويتفرس خطوطها وتضاريسها لعله يحظى بما عجزت عنه حكومات إيطاليا السابقة فى اقتناص أى بلد أفريقى يسلب خيراته وينهب ثرواته تمشياً مع السياسة الاستعمارية التى امتازت بها لندن وباريس.

ولما تأمل الدوتشى الخريطة الإفريقية أبصر استقلال ليبريا والحبشة، فسال لعابه وزاغ بصره عليهما، لا سيما وأن أطماع إيطاليا فى الحبشة على وجه الخصوص لم تكن وليدة رحم سياسة الدوتشى، بل كانت سابقة على ذلك، فضلا عن أن ثأراً يتوجع منه الإيطاليون عقب هزيمتهم التاريخية فى موقعة عدوة بالحبشة عام ١٨٦٥، وهو الجرح الذى ظل ينزف فأصاب الإيطاليين بالرعب والفزع من تكرار ما جرى من قبل.

لكن الدوتشى أثر القفز على هذه المحنة، وتصفية هذه العقدة التى تمددت كالعنكبوت فى نفوس الإيطاليين، وقرر إرسال قوات عسكرية ضخمة إلى الحبشة لبسط نفوذه عليها، لا سيما وأنه قد تأكد من موافقة أوروبا التى لاحت

أمامه بالصمت تارة وبـاللامبالاة تارة أخرى، الأمر الذى اعتبـره ضوءاً أخضر لتمـرير مشروعه فى إحـياء أمجاد إيطاليـا وبسط سيادتهـا ونفوذها على بعض المناطق المستقلة.

كان موســولينى قد احتلت قواتـه أراضى الصومال بموافقة أوروبـية، بيد أن أطماعـه لم تكن ترضى بالصومال فيـما كانت لندن وباريس قـد تقاسمتـا معاً الكعكة الأفـريقـية والأسـيـوية دون أن يبـدى أحد أى قـدر من الاحـتجـاج والمعارضة.

والحقيـقة أن لندن وباريس كانتا تخـشيان معاً تنامى القـوة الإيطالية وتوحش أطماعـها ومردود ذلك عـلى الخريطة الاستـعمارية إذا تهـيأت لإيطاليـا سبل السيادة والهيمنة.

وفى الخامس من ديســمبر ١٩٣٤ قرر الدوتـشى اقتحام الحـبشة واحتـلالها زاعما أن الأحباش حاولوا الاعـتداء على القوات الإيطالية المرابطة على حدود الصومال أثناء ترسيم الحدود بين الحبشة والصومال.

والواقع أن القوات الإيطالية كانت تتذرع بترسـيم حدود الصومال مع الحبشة لتوسيع حـدود الصومال على حساب جـارتها، فضلاً عن استفـزاز الأحباش وجر شكلهم لعل الصدام يندلع بينهما وتندفع القوات الإيطالية لاجتياح الحبشة بعد أن احتدمت نيران الفتنة بين البلدين.

وللتأكيد على أن الدوتشى كان قد اعتزم احتلال الحبشة من قبل وقوع هذا الصدام الحدودى فإن إمدادات وتعـزيزات عسكرية قد وصلت الصومال وهو

ما يقطع بالنية الحقيقية لاحتلالها، وبغض النظر عن الأسباب، فالدوافع كانت كامنة فى العقول، والبواعث مستقرة فى القلوب، والقرار كان ممهوراً ينتظر ساعة الصفر.

وفى أوائل العام ١٩٣٥ وبعد مناوشات حدودية اجتاحت القوات الإيطالية الضخمة حدود الحبشة لتنطوى تحت لواء الفاشية الإيطالية وسط صمت أوروبى مريب، رغم أن هذا الاجتياح قد مثل تهديداً خطيراً على الاستقرار الاستعمارى الذى فطن لوحشية الإيطاليين، ومن ثم آثر أن تتقوقع إيطاليا داخل هذه البلدان: أريتريا والصومال والحبشة على أن تظل بداخلها دون أن تتمدد وتتوسع على حساب الدول الاستعمارية.

* * * *

على أية حال كان شبح الحرب الثانية العظمى يتراقص أمام ساحة أوروبا وفقاً لأوضاع السياسة المتدهورة بين إيطاليا وأوروبا من ناحية، وألمانيا وأوروبا من ناحية أخرى، بل وتعميق العلاقة بين إيطاليا وألمانيا مع توافق سياسى ويشبه بعضه بعضاً، وأطماع وطموحات تنتفض وتنشد الخلاص والانطلاق.

ولما أدركت أوروبا مدى صعوبة الأوضاع القائمة وانعكاساتها على السلام والاستقرار فى أوروبا وفى شتى أرجاء العالم قررت بريطانيا التحرك الدبلوماسى لعلها تستطيع نزع فتيل أزمة على وشك الانفجار قد تحرق الأخضر قبل اليابس، من هنا جاءت مساعى الإنجليز تهدف لتهدئة الأجور الملتهبة وتبديدها قدر الإمكان، وهو ما دفع تشمبرلين إلى إقناع الفوهرر

أدولف هتلر بالتعاون قدر الإمكان مع باريس ولندن وروما لتوثيق العلاقات بينهم جميعاً.

كان تشمبرلين رئيس الحكومة البريطانية قد ألمح للفوهرر من خلال مبعوثه الشخصى إمكانية تقويم بعض بنود معاهدة فرساى لا سيما الشروط التى كبلت حرة الألمان الذين عجزوا عن تحرير وطنهم.

كانت التلميحات البريطانية تتضمن مسألة نزع لسلاح وإعادة بعض المستعمرات الألمانية لها، والنظر فى كيفية عودة ألمانيا إلى عصبة الأمم إلى جانب استخدام تعبير «تعديلات طفيفه على الوضع الراهن».

على الجانب الآخر كانت ألمانيا النازية تشهد تنامى القوة العسكرية بصورة لافتة للنظر وسط موجة من التهديدات التى كان يطلقها لفوهرر من حين لآخر لانتزاع صيحات وصرخات الجماهير الغفيرة التى كانت تحتشد تحت حبات المطر الغزير لتستمتع ولتتعاطى منه جرعات الأمل نحو مستقبل أفضل لألمانيا ملوحاً بشعاره الأثير «ألمانيا فوق الجميع».

ومن ثم تقرر بعد اجتماع عاجل عقده الفوهرر مع قادة جيشه أن رسالة تشمبرلين لا ترقى إلى مستوى طموحات الألمان، وأن الإنجليز إنما يبحثون عن مرحلة هادئة ينشدون خلالها الاستقرار والسلام حفاظا على إمبراطوريتهم التى بدا الوهن يدب فى أوصالها، والشيب يجتاح رأسها، والرعب يتملكها من تنامى القوى الأمريكية التى تتطلع إلى أن تتبوأ الصدارة بدلاً منها.

المهم.. أن محاولات الإنجليز ومساعيهم قد باءت بالفشل.

جدير بالذكر أن العلماء الألمان كانوا قد توصلوا إلى تصنيع أسلحة حربية حديثة لم يشهد لها العالم مثيلاً، وهو ما أدى إلى انتفاخ فى ذاتية الفوهرر المتغطرس والساعى والمندفع والمهرول نحو حرب مجنونة مدمرة اعتماداً على تقنيات حديثة ألهبت خياله وأطلقته كالجواد الجامح.

وتجدر الإشارة إلى أن النازى قد أحيى القوة العسكرية الألمانية حتى بدت على وشك الانفجار من فرط قوتها وتعاظم قدراتها، ولأن القادة العسكريين يحذرون دوما من الإفراط فى حشد الأسلحة وتكديس الذخائر وتدريب الجنود والارتقاء بمستواهم إذا لم يكن هناك حرب يترجمون ما بين أياديهم وفى أذهانهم إلى واقع فقد ينفجرون بين لحظة وأخرى فى أصحاب القرار بتهمة التواطؤ أو الخيانة أو لسبب آخر لتبرير انفجارهم.

ولأنها نظرية جديرة بالتأمل فما من شك أن الفوهرر الذى استطاع ضم مليون ونصف مليون جندى فى صفوف القوات المسلحة الألمانية وقد تلقوا أرقى وأقوى البرامج التدريبية الميدانية، كما أنهم قد تدربوا على أحدث الأسلحة، فقد كان هتلر يجنح إلى الطرف المناهض للسلام والمنادى بضرورة استرداد أرض الأجداد بالقوة ما دامت المفاوضات أضعف، والرسل أعجز من أن يعبدوا المسلوب والمنهوب.

كانت الاستعدادت نحو حرب عالمية وشيكة تجرى فى ألمانيا على قدم وساق، حيث وضع هتلر خطة تعبئة شاملة تضمنت عمليات الإمداد والتموين والتخزين، وتطوير الصناعات وتحفيز العمال على تصنيع ما أوكل إليهم عبر حوافز ماليه ومكافآت تشجيعية.

كما تزينت جدران البنايات الألمانية بالخطب الهتلرية الرنانة والعبارات الحماسية الداعية للقتال والاستقلال.

وبالطبع لم تكن روما بعيدة عما يجرى فى برلين حيث كانت الأمور فى دولة الفاتيكان تتحرك نحو جبهة القتال الدامى على نفس الخطى الألمانية التى كانت أشبه بقفزات حصان.

صحيح أنها خطى حصان جامح لا خطى أوزة نازية، ومن ثم أصدر الدوتشى أوامره بتخزين المواد الغذائية والعمل على زيادة الإنتاج الاقتصادى لمواجهة أعباء الحرب ونفقاتها الباهظة فضلاً عن ذلك فقد اهتم الدوتشى بالتدريبات العسكرية وتزويد وحدات جيشه الضخم بأحدث الأسلحة الثقيلة والخفيفة.

* * * *

لكن على الرغم من درجة التأهب القصوى التى أعلنت فى ربوع إيطاليا فقد كان موسولينى يتطلع إلى فترة سلام تمتد خمس سنوات كاملة حتى يفرغ الجيش الإيطالى من تدشين قواعده ورسم خططه وتوفر قوته وأسلحته وذخائره ومتطلباته وحاجياته، لا سيما وأن الحرب لن تبقى ولن تذر.

ولأن رغبة الدوتشى كانت مدروسة وحكيمة وعاقلة، وثبت فيما بعد صحتها، فقد أرسل إلى الفوهرر مبعوثا سريا حاملاً رسالة عاجلة أكد فيها بوضوح أن إصرار الألمان على خوض أية حروب فى الوقت الراهن هى مغامرة مجنونة محفوفة بالمخاطر، وقد أشار على هتلر فى خطابه بضرورة تحاشى الهجوم على بولندة، حيث إن معظم النار ستشتعل من مستصغر

الشرر، وقد تكون بولنده نقطة البداية، لكن لا أحد يدرى أين محطة النهاية، وماذا بينهما؟!

كان موسولينى يعى ويدرك مدى المخاطرة التى يعتزم هتلر الإقدام عليها، وما سوف يترتب على هذه المخاطرة من خسائر رهيبة وفادحة، وخراب شامل سيطول الجميع، ولن ينجو منه أحد، لكن المدافع والطائرات والعيون الألمانية كلها مصوبة نحو بولنده، والعد التنازلى يقترب من ساعة الصفر، حيث لم يأبه هتلر بما ورد فى رسالة الدوتشى.

كان موسولينى يتميز غيظا من اندفاع هتلر وغطرسته، وعدم إدراكه لما هو قادم، وجهله بقراءة العلوم العسكرية على أرض الميدان، كما عاب عليه هرولته نحو الحرب، رغم أن الانتظار لسنوات ثلاث أو حتى خمس قد تجعل الموازين العسكرية تصب فى خانة المحور، بيد أن العناد الهتلرى لم يكن ليلبى رغبات الدوتشى ويطيع أوامره، حيث كان هتلر لا يسمع سوى صوته، ولا يلبى سوى ندائه.

من هنا أدرك الدوتشى أن هتلر قد جذبه إلى مستنقع قد يشهد نهايتهما وزوالهما، لا سيما وأن إيطاليا كانت قد بسطت نفوذها على ألبانيا، وهو ما يتطلب تهيئة الأجواء داخل مستعمراتها حتى لا ينفرط عقدها وتتأزم الأمور وتتعقد الأوضاع.

وقبل أن يتحرك الفوهرر النازى بقواته إلى احتلال بولندة للبدء فى أولى خطوات الحرب العالمية الثانية كان قد أرسل إلى الدوتشى خطاباً مقتضباً جاء فيه ما يلى:

عزيزى المخلص الدوتشى بنيتو موسولينى، أخبرونى أنك تتطلع إلى تسويف موعد اندلاع الحرب، وأنا أقدر لك هذه الأمنية، لكن كنت أصبو إلى أن تضع نفسك فى نفس موضعى، فماذا أنت فاعل؟ أنا على يقين يا عزيزى أنك كنت ستتخذ ما اتخذته أنا الآن، ومن ثم أراك تتفهم موقفى، أليس كذلك؟

فما كان من الدوتشى سوى أن بادر بالرد العاجل قائلاً: عزيزى الفوهرر / هتلر.

كم يؤسفني أنكم لم تحيطونى علماً مسبقا بما اتخذتموه من خطوات مصيرية بوصفى شريكاً وحليفاً لكم، وبيننا اتحاد صلب، لكن انفرادكم بالقرار قد أثار حنقى، لا سيما وأن الأمر بات خطيراً ومزعجاً للغاية.

ولأننى ناشدتك كثيرا بالحرص على تسويف المواجهة القادمة لحين الانتهاء من استعداداتنا، فإننى أود أن أبلغك بموقفنا حتى تتخذ حساباتك وقراراتك وفق موقفنا الطارئ والمستجد، إذ إننا لا نستطيع الآن دعمكم ومساندتكم عسكرياً حسبما كنا نظن، حيث لم تكتمل استعداداتنا حتى الآن، لا سيما وقد طلبنا منكم أننا قد نستطيع خوض أية حرب قادمة فى غضون خمس سنوات من الآن، وهى الرغبة التى لا نزال نتمسك بها، ومن ثم لا يسعنى سوى أن أشارككم وأدعمكم سياسيا واقتصاديا فحسب، ولذا أرجو قبول اعتذارى، وتفهم موقفى، وليتكم تدرسون موقفى بعناية، وتضعون أنفسكم موضع منصبى وما يمكنكم اتخاذه، وأنا لا يخالجنى الشك فى أنكم ستقررون ما قررته، وتتخذون ما اتخذته من قرارات أراها منطقية وعقلانية فى مرحلة تتطلب الحكمة والعقلانية وتوخى الحذر.

ولما تلقى هتلر الرسالة أدرك أن الدوتشى قد تخلى عنه فى ساعة الحسم التى كان ينبغى عليه التواجد خلالها كما كان متوقعا منه، وحين علم الدوتشى أن هتلر يتميز غيظا ويعتصر ألما على الموقف الإيطالى المفاجئ والمزعج أحس الدوتشى بالضيق ووخز الضمير رغم قناعته بما اتخذه وتمسك به، بيد أنه أراد تخفيف حدة الأمر والتهوين من موقفه، وإرضاء الفوهرر، وتهدئة خواطره، حيث إن الدوتشى لا يقبل أن يكون هو الذى تخلى وغدر وخان.

ومن ثم أرسل الدوتشى أحد مبعوثيه لكى يشرح لهتلر المرامى والأهداف التى كانت وراء ما اتخذه وقرره، فضلا عن رغبة موسولينى فى إجراء وساطة سلمية بين هتلر والحلفاء لانتزاع فتيل الأزمة التى باتت على وشك الانفجار.

لكن هتلر قد قرر عدم العودة إلى الوراء قيد أنملة، حيث إن قواته العسكرية سواء البرية أو البحرية والجوية تقف على قدم وساق فى حالة تأهب قصوى بلغت أقصى درجاتها وينتظرون بين لحظة وأخرى ساعة الصفر، ومن ثم بات التراجع لا محل له من الإعراب.

ولأن التحرك العسكرى قد بدأ بالفعل خلال وجود مبعوث موسولينى فقد استقبل الفوهرر النازى مبعوث الدوتشى وأخبره أن بنقل للدوتشى تحياته، ثم اختتم رسالته التى سلمها للمبعوث بقوله: بالرغم من أن طريقنا قد افترق الان.. فقد كنت واثقاً من أن المستقبل سيعمل لصالح وحدتنا.. وليس لدى شك أيها الدوتشى فى أنك لا تختلف معى فى ذلك قط.

والواقع أن وساطات عديدة جرت بين بولندة وألمانيا، بيد أن البلدين تمسكا بموقفهما دون اللجوء إلى تقديم أية تنازلات من أى نوع، وإن صدر هتلر قد بات أكثر ضيقا من ثقب الإبرة كما أن صبره بات رصيده صفراً.

حتى إن مبعوث بولنده الذى أراد مقابلة المسئولين الألمان قد تلقى رداً حاسما يعنى بأن السيف قد سبق العزل، ولم يعد هناك مجال للتباحث والتعارض فيما لا طائل من ورائه.

وجاءت ليلة ٣١ أغسطس ١٩٣٩ ليجتمع الفوهرر طوال ساعات الليل مع مجلس الحرب المصغر لمتابعة الأوضاع، والوقوف على حقيقة الاستعدادت والتحركات لحين بلوغ ساعة الصفر التى تحددت فى تمام الساعة الرابعة فجراً، حيث بادرت الجيوش الألمانية بإطلاق الرصاصة الأولى فى مسرح الحرب العالمية الثانية ليتحول العالم إلى ميدان رماية لا تتوقف فيه طلقات وقذائف وقنابل وصواريخ الجيوش طوال ست سنوات خلف ملايين القتلى وأضعاف هذا الرقم من الجرحى والمفقودين والمرضى النفسيين

ودارت معارك حاميه الوطيس كانت الغلبة فى نهايتها لصالح النازيين الذين كانوا قد حشدوا على الجبهة البولندية أكثر من ٢٠٠٠ طائرة و ٥٨ فرقة عسكرية .

فى حين كانت القوات البولندية تمتلك ٣١٠ طائرة ونحو ٣٩ فرقة عسكرية فقط، وقد أبلت تلك القوات بلاء حسنا فى ميادين القتال حتى استمرت الحرب طوال أسبوعين كاملين، تكبد فيها الجانبان خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد، حتى كانت الكلمة الأخيرة للجيش الألمانى العنيف.

والحقيقة التى لا تخفى على أحـد أن أدولف هتلر كان يراهن على أن فرنسا وإنجلترا لن تشاركا فى حرب تدميـرية للدفاع عن بولندا وغيرها، ومن ثم كان متمسكا بالمضى قدما لتحقيق أهدافه وغاياته.

وكانت إسكندناوة هى جبهة القتال الثانية التى شهدت جحافل القوات الألمانية تصبح صيحتها الشهيرة : «هاى هتلر» وتغنى شعارها الأثير «ألمانيا فوق الجميع».

ولأن الانتصارات الألمانيـة كانت ساحقة ومـاحقة فقد اسـتولى الغرور على رأس الفوهرر، وتحت تأثيرات نشوة الانتصارات قرر أن يجتاح الحدود الفرنسية ظنا منه أن ما حققه من انتصـارات من شأنه أن يردع الفرنسيين ويبث المخاوف فى صدورهم.

وفى العاشر من مايو ١٩٤٠ أعلن الحرب على فـرنسا، لا سيما وأن ألمانيا التى كانت قـد خاضت حربها على بولـندا بحوالى ٥٨ فرقة تسـتطيع أن تغزو فرنسا بأكثـر من مائة فرقة من جملة ١٩٠ فرقة هى الـرقم الاجمالى للجيش الألمانى.

كانت فرنسا لا تستطيع الدفاع عن نفسها، وكانت تلقى بالمسئولية على كاهل الحكومـة البريطانيـة التى كـانت تمتلك أسطولا بحـريا يفوق قـدرات الأسطول الألمانى، بيد أن القوات البريطانية كانت موزعة على مستعمراتها فى شتى أرجاء العالم لحـماية مصـالحها، ومن ثم باتت المواجهـة مع الجيوش الألمانيـة الجرارة تتطلب مزيداً من الوقت لدراسة الأمر وتوفير الأعداد والعتاد اللازمة، والواقع أن القوات الفـرنسية كـانت فى حال من التـحلل لا تقوى معـها على مقـاومة

الجيوش الألمانية الغازية باستثناء تدشين خط ماجينيو الذى كانت تعتمد عليه باريس اعتماداً كلياً لحين توفير الاستعدادت الكاملة.

ولم يكن الهجوم الألمانى بواسطة البوارج البحرية أو القوات البرية، بل اشتمل على الطائرات الحربية التى كانت أخطر المفاجآت فى ميادين القتال، خصوصا وأنها المرة الأولى التى تستخدم فيها الطائرات لهذا الغرض، وهو ما ألقى بظلال قاتمة على الحلفاء الذين عادوا يدبرون أمرهم فى كيفية التصدى لهذا السلاح الجديد والمفاجئ.

ولم يكن هتلر يتطلع إلى فرنسا فحسب، بل امتدت أطماعه إلى احتلال بلجيكا وهولندا رغم ما عرف عن الدولتين من انتهاج رسمى لسياسة الحياد، وهو ما كلف البلدين ما لا طاقة لهما به.

ورغم الاحتجاجات الدولية الواسعة على انتهاك سيادة درل حيادية، فقد بررت القيادة الألمانية قرارها بأن خط ماجينيو قد شيد على طول الحدود الألمانية الفرنسية، ومن ثم بات الأمل معقوداً على نقاط ضعف وثغرات واسعة تتسلل من خلالها القوات الألمانية، فكان القطاع الشمالى المقابل لهذين البلدين هو أهم وأبرز النقاط الضعيفة التى يمكن اختراقها، ورغم سقوط هولندا المدوى والسريع فقد كانت بلجيكا على العكس من ذلك، حيث ناضلت وقاتلت، وظلت تتصدى وتقاوم حتى كادت تحقق نصراً ساحقا ولولا الإرادة الألمانية الفولاذية لظلت بلجيكا على صلابتها وقوتها كما كان عهد الحلفاء بها فى الحرب العالمية الأولى.

وبينما كانت الحـرب دائرة على صفيح ساخن كان هتلر قـد أصدر أوامره بضرورة الدفع بفرقة مدرعـات لتحترق الجبهة الفرنسية عـبر المنطقة الممتدة بين أخـر نقطة فى خط مـاجنيو وبيـن الحدود البلجـيكيـة، حيـث لاحظت فرقـة الاستطلاع الألمانيـة أن هذه النقطة على وجه التـجديد تشـهد فراغـا عسكرياً فرنسياً ينبغى استغلاله، الأمر الذى حدا بالفوهرر للتحرك الحاسم فى استغلال عبقرى لهذه الفرصة.

وعلى إثر هذا الاختـراق الناجح توغلت القوات الفرنسـية حتى مـيناء بفيل الواقع فى منطقة الشـمال الشرقى لفـرنسا، وكانت ألمانيـا تسعى من وراء هذه المحاولة الناجحه إلى فصل وعزل قوات الحلـفاء التى تمركزت فى شمال فرنسا وحدود بلجيكا وبين بـقية الجبهة، الأمـر الذى أدى إلى تدهور الموقف الميدانى لقوات الحلفاء.

ولم تقف الجيوش الألمانية عند هذا الحد، بل إن أطمـاعهم دفعتهم لتنشيط حركاتها وتعاظم دورها لتنخر كالسوس فى عظام الحكم الفاشى الذى بدا مهترئاً ومنكسراً.

فـفى الوقت الذى كان الدوتشى يرصـد أنفـاس أسرة الملك والنبـلاء الذين يحرصون على إزاحته والتخلص منه كـانت قوى معارضة أخرى تمارس أخطر أدوارها للتخلص من موسولينى الذى غفل عنها ولم يفطن لخطورتها وأهميتها.

كان موسولينى يعتمد على الوجود الألمـانى لحمايته رغم كراهيته له، وحتى الألمان أنفسهـم قد ظنوا أن أعداء موسولينى مـن طبقة النبلاء مما عجـل بانهيار الفاشية ودفعها إلى أتون جحيم مستعر.

كانت النكات الساخرة واللاذعة تنتقد موسولينى وتحط من شأنه، ولا تعبأ بما قدمه، حيث تبين للشعب الإيطالى أن الدوتشى لم يكن عبقريا أو زعيما محنكاً بقدر ما كان مجرد خطيب مفوه اقتفى أثر هتلر وراح يرتمى فى أحضانه، ومن ثم وجب سداد فاتورة هذا الاختيار الذى كان نابعا من ذاته دون ضغط أو إكراه.

كان السخط والندم يجتاح أرجاء إيطاليا، وراح البعض يصبو إلى ساعة الحسم التى تسدل الستار فيها على هذا الحاكم الطاغية المستبد الذى أهدر إمبراطورية يتعذر تأسيسها مرة أخرى بعد أن تغيرت خريطة الدنيا وتبدلت أحوال العالم، وعلى الرغم من التحذيرات والإنذارات التى كان يتلقاها من راشيل وشقيقة إيدفيج حول انهيار الأمور . فلم يكن يعبأ بها أو يعيرها قدراً ولو بسيطا من اهتمامه، وكان يقول فى خيلاء: إننى على يقين من ولاء الملك لى، فلا تصغون لأقوال السفهاء وأعداء الفاشية.

وحين أبلغوه أن رفاقه من الفاشيين يجهزون للانقضاض عليه ابتسم قائلاً: هذا سخف وجنون، إنهم أبنائى. وعندما شرحوا له حقيقة الأوضاع العسكرية السيئة لجيوش المحور كان يضحك كالذبيح قائلاً: ولكن عندى أمل أن الأوضاع ستتغير وستتحول لصالحنا فى النهاية، انتظروا واصبروا وتريثوا، وسوف ترون.

ولما أخبروه عن أعداء الفاشية برقت عينه وراح يصدر أوامره الصارمة ببناء معتقلات جديدة لاستقبال نزلاء يناصبونه العداء، وحان التخلص من وجوههم

الكريهة. وإذا ما اشتدت أوجاع الناس وتزايدت شكاواهم وراح أغلبهم ينتفض ويتظاهر أقـال مسئـولى الأمن الداخلى، ويوم أبلغوه أن الشـائعات تنتـشر فى البلاد كـالنار فى الهشيم حـول تدهور صحته وترديهـا على نحو مخـيف دعا أعضاء حزبه وأبناء الشعب الإيطالى وراح يطل عليهم مـن شرفة قصر البندقية وألقى خطبة حماسـية أكد خلالها أنه لا يزال ينبض بالقوة والحـيوية والحماس، حيث قـال لهم بصـوته الجهورى: (أيـها الشعـب الإيطالى العظيم . . . يا أبناء روما التاريخية. . يا أيها الفاشيـون الأوفياء. . يا أحفاد قيصر. . ما لى أرى فى عيونكم وأحس فى أصواتكم خـفق الإيمان الذى لا يخالجه ذرة شك. . أراكم خائفين. . لا تخشوا شيئا يا ساده فالنصر النهائى سيكون لنا. . وليس لدى أدنى شك فى أن تضحياتكم ستحصدون ثمنها، فأنا لا أشك فى هذا، كما أننى لا يساورنى الظن فى عدالة الله، وإن إيطاليا العريقه ستظل خالده.

والواقع أن هذه الخطبة النازية لم تكن سوى نهـاية خطب موسولينى، وطلته على أبناء أمته المخدوعـين، حيث أعلنت قوات المحور فى إفريقيا استـسلامها دون قيد، وسرعان ما اجتاحت نيران الحلفاء لاجتياح إيطاليا للقضاء على أنصار الفاشية وعناصر النازية المتـمركزة فى شوارعها وميادينها تمهيـداً لتصفية الوجود النازى فى ألمانيا بأسرها.

كانت تلك الأنباء المزعجة والمؤسفـة قد أشعلت نيران الغضب داخل أوساط الشعب الإيطالى الذى فاض به الكيل من الهزائم المتوالـية، فيما كان الدوتشى لا يزال يتغنى بخطبه وبأناشيد الشـعب وهتافاته، مما يبرهن على أن الرجل كان غائباً لا يدرى ما يجرى من حوله.

وأمام هذه التطورات تحرك الملك بإيعاز من ونستون تشرشل وستالين الذين نصحاه بإنتهاز اللحظة التى أصبحت ملائمة، فلم تكن كذلك من قبل، حيث ينبغى توظيف وتسخير غضب الشعب وسخطه للإطاحة بالديكتاتور المستبد.

وعلى ضوء هذه التـداعيات راح الملك الإيطالى يستدعـى المارشال بادوليو الذى جاء على عـجل، وقد بادر الملك بسؤاله عمـا إذا كان يمكنه أن يخلف موسولينى متى تمت الاطاحة به أم لا؟ أجاب على الفور أمرك يا جلالة الملك، فأنا رهن إشارتك متى أبلغتنى بذلك.

بيد أن علامات القلق لاحت على محيـاه، فأخبره الملك قائلاً: أعرف يا أيها المارشال أنك قلق من الدوتش أليس كذلك؟ أجاب المارشال: نعم يا جلالة الملك كيف السبـيل إلى ذلك؟ فأجاب الملك لقد تلقيت نصـائح ذهبية تطالبنى بصدق وإخلاص بإصـدار قرار عاجل بالقبض على مـوسولينى فى أحد أيام الأسـبوع الإثنين أو الخـمـيس، حيث أنه يذهب فى كـلا اليـومين إلى قصـر الكيرنيالى أو فيلا سافويا للقائنا.

ولما ترامت للألمان أنباء تفيد باقتراب نـزول موسولينى عن الحكم قسراً هاتفه الفوهرر للمقابلة بينهما على جناح السـرعة لتوضيح ما غاب على الفوهرر أن يراه، فضـلا عن مطالب الفـوهرر المستـمرة فى ضـرورة قبول الـقادة الألمان المتواجدين فى إيطاليا والرضوخ لأوامرهم.

لكن سقوط صقليـة وغارات الحلفاء العنيفة على روما ضاعـفت من استياء الشعب وآمـال الملك الذى خدع مـوسولينى عند لقـائه به، جمـعت مقـابلته الدوتشى مع الفـوهرر، حـيث أبلغـه الملك بنبرات لا تـخلو فى ظاهرها من

الصدق وفى باطنها من الغدر والخيانة، وقد قال بالحرف لموسولينى: أعتقد أنك تعـيش يا دوتشى أياماً مفـزعة، ولكن بمقـدورك أن تثق وتطمـئن إلىّ، ومن الحماقـة أن تتصور أن جميع الناس سيـتركونك وحيداً بمفـردك، أو يقفون من حولك مكتوفى الأيدى رغم ما قدمتـه لبلادنا العظيمة.. على أية حال اطمئن يا عزيزى الدوتشى، أنا مـعك قلباً وقالبـاً، ولن أتخلى عنك قط، وإذا تخلى عنك الجميع سأكون أنا آخر من يفعل ذلك.

رغم أن تشيـافو وزير خـارجية إيطاليـا وزوج ابنة الدوتشى قد نقل إليـه ما يجرى سراً بين أعضاء الحـزب الذين لا يدخرون جهداً فى الإطاحة بالدوتشى عند خروجه من قصر الملك، بيـد أن الدوتشى كان يقول بصوت واهن: إنهم مجانين وجبناء، ولا يريدون سوى إشعال النيران فى ربوع بلادنا ذات الحضارة لعريقة.

كانت كلمـات الدوتشى لا تعكس حقـيقة الرجل الـذى أشعل لنيران كـما أشعل نيـرون من قبله بيد أن نيرون كـان يغنى كلما ازدادت الحرائق اشـتعالا وارتفعت ألسنة اللهب، فيما كـان الدوتشى يخطب ويهتف كلما سقطت مدينة بعد أخرى، ولا أظن أن هناك ما يميز أحدهما عن الآخر.

الشاهد أن المؤامـرات التى كان تحـاك ضده وتستـهدفه كـان تضاعف من صلابته وعناده وتحـجره لا سيما تلك الـتى ترامت لمسامعه حول تحـرك رفاقه القدامى وفى طلـيعتـهم (بوتاى) أبرز وألمع القادة الفاشـيين والذى تميـز بقدرته وبراعته فى تكريس النظرية الفاشية وقد قاتل وناضل من أجلها.

فى تلك الأثناء كان موسولينى يتذكر هتـافات وصيحات أولئك الذين تشير الأملاء حـول ضلوعـهم فى مؤامـرة انقلابيـة ضده، ومن ثم لم يكن يبـالى بالتحذيرات والنصـائح ،وكيف لمثله أن يحتاط ويحـذر ممن قال له أحدهم منذ أسابيع: إن حياتى وروحى وإيمانى كلهم رهن إشارتك. وآخر يقول فى نبرات حمـاسية: أنت أعظم من أنجبته إيطاليا. ثم إن الـشعار الذى يتصـدر جدران بيـوت وبنايات إيطاليا لا يزال بـراقاً ، مـشرقـاً، وجليا، ذاك الشـعار الأثيـر «موسولينى على حق دائماً».

لكن المجلس الأعلى للحزب الفاشى كان قد قرر عقد جلسة عاجلة لإبلاغ الدوتشى بضـرورة اتخـاذ مـا يراه مناسـباً ومـلائمـاً وفق الأوضـاع الطارئة والمستجدة لإنقاذ إيطاليا من دمار شامل وخراب قادم.

وفى بداية انعقاد الاجتماع كانت نظرات الدوتشى للحضور تبرهن كما أراد على أنه لا يزال الرجل الأوحـد والزعيم الملهم والقـائد المحنك الذى لا يزال يمسك بيديه كل خيوط اللعبة فى المسرح الإيطالى، وأن ما يتناثر من أقاويل إنما هى أباطيل وأراجيف لا ترتكز على حقائق بقدر ما تستند على أوهام.

الشاهد أن موسولينى استهل الاجـتماع قائلاً بصوت هادئ النبرات يعكس حكمته وعقلانيته حيث يقول:

تشهد الحـرب الآن مرحلة خطيرة للغاية حيث جـرى على أرض الميدان ما كنا نحسـبه مستـحيلا، بل لا أغالى إذا قلت أنه كـان مجرد افتـراض ساذج، على الرغم من دخـول أمـريكا الحـرب فى منطقـة حـوض البـحـر الأبيض

المتوسط، ويمكن للمرء أن يقول: إن الحرب الحقيقية سرعان ما اندلعت عقب سقوط بانتلاريا، وكان الهدف من حرب الساحل الأفريقى هو تحاشى هذه الفرضية وإحباطها، وفى مثل هذه الأوضاع كان مألوفا أن تتوحد كل الاتجاهات الفكرية والرسمية أو غيرها فى مخاصمتها لنا، أو بالأحرى عدائها لنا خفية أو بصورة علنية.

كان الخطاب اعتذاريا وتبريريا وتفسيريا للسقطات التى أدت إلى انهيار إمبراطورية إيطاليا.

كان الدوتشى يتحدث بطلاقة وإسهاب رغم الآلام المبرحة التى داهمته، وبدا يعض على نواجذه من فرط قسوتها وشدتها، وقد خيم الصمت على القاعة ولاذ الجميع بالسكوت خوفا وأملاً، حيث خشى البعض غضبته وتطلع أغلبهم إلى قرار شجاع وحكيم يشير إلى اعتزامه التنحى عن السلطه، ونقل جميع صلاحياته إلى قادة المجلس الأعلى ليتخذ قراره المناسب لإدارة الأزمة.

لكن نظرات البعض لم تكن تخلو من استخفاف مما يقول، فكانت العيون كاشفة وفاضحة، الأمر الذى دفع الدوتشى للقول دفاعا عن نفسه: هلا علمتم أننى كنت وسأظل أرغب فى استلام القيادة العليا للقوات المحاربة فى ميدان المعركة، تلك المهمة التى حملتها على كاهلى بإلحاح من المارشال بادوليو. . وأذكر أننى عندما أصبت بوعكة صحية فى أكتوبر عام ١٩٤٢ قررت أن أتخلى عن مهام القيادة، لولا أننى تصورت آن من الحماقة أن أتخلى عنها فى هذا الوقت بالتحديد الذى كانت تجنح يميناً تارة ويساراً تارة أخرى بفعل عواصف هوجاء هبت عليها من كل ناحية، ومن ثم كنت قد اتخذت قراراً هاما بالمضى

قدمـا فى قيادة السفـينة ريثما تنجلى شـمس نهار جديد من بين عتـمة الليل وظلمته السوداء، وهى اللحظة التى لم تأت بعد.

وأنهى خطابه الطويل والختامى لحقبته قـائلاً: واجبنا أن نقر ونشير إلى أهمية القول بقدر هائل من الوفاء والإخلاص بأن أصدقاءنا الألمان عاملونا دوما بروح عاليه لا تخلو من الكرم والتقدير والاحترام.

وأضاف قائلاً فى ختـام كلمته التى وجهها للحـضور: إن المشكلة الكبرى التى تواجهنا الآن هى التقرير بين الحرب والصلح، أو بين الاستسلام والمقاومة حتى النهاية.

كان الخطاب مفعـما باليأس زاخراً بالمعاناة والبؤس، حـتى أن الحاضرين قد اعتبـروه وثيقة تنازل قدمهـا الدوتشى بملء إرادته، وأن شمسه حـانت للمغيب بعد وهج وإشراق استمر أكثر من عشرين عاماً.

كان الخطاب بابا ملكيـاً لعبور موجة هائلة من النقـد واللوم للدوتشى للمرة الأولى منذ أن تولى مقـاليد السلطلة حيث تجلى أعـضاء المجلس الأعلى وفى طليعـتهم جراندى الذى بادر قائلاً فـى شجاعة نادرة ومـؤجلة موجهاً حـديثه للدوتشى الذى كـان كمن يلفظ أنفـاسه الأخـيرة ولا يقوى على الـرد والصد والصياح كما كان معتاداً، ومما قال (جراندى) بالحرف: إنك يا سيدى الدوتشى فرضت سيـاستك الديكتاتورية على إيطاليا كلها، حـتى إنك كنت قد أمسكت بيديك مفاتيح السلطة فى الوزارات الثلاثة المرتبطة بالقوات المسلحة.. ولكن ما الذى أنجزته؟ ما الذى أحرزته؟ لقد كسرت إرادة قواتنا المسلحة، وحطمت روح رجالها القتالية، وقد أدخلتنا جميـعا زنازين بحجم إيطاليا نرتدى قمصاناً سوداء

حداداً على ماذا؟ على سجننا وإذلالنا وامتهـان كرامتنا؟ أى غاية كنت تقصدها من وراء هذا القـميص الملعـون؟ لقد مـضت الأيام وتوالت الشـهور ودارت السنوات وأنت تختار من هم أسوأ وأبشع وأحط أنواع البشر.

وراح عدد من الحـضور يتـحدث فى تلك اللحـظة التاريخـية التى يتـحدد خلالها مـصير إيطاليا ومستـقبل الدوتشى، وكلها لا تخلو من اتهامات قـاسية وحادة جاءت فى ساعة متأخـرة من الليل ومن حكم موسولينى، وكان جيتنانو بولفيـريللى وزير الثقافـة الشعبيـة وكارلو البرتو بيـجينى وزير التربيـة،وأنطونيو ترينجالى كـازانوفا رئيس المحكمة الفـاشية وايتـزوجالياتى رئيس أركـان الحرس الفاشى، وتشيانو وزير الخارجـية، ولوحظ خلال تلك الجلسة أن الدوتشى بدا قزما متـقوقعاً مسلوب الإرادة فى صورة أسطورية يتعـذر على العقل إدراكها وقبولهـا حتى خيل للحضـور أن الصرح العملاق يتهـاوى شيئاً فشـيئاً، وربما جاءت الكلمة التى ألقاها جاليـاتى بمثابة قبلة الحياة التى أنعشت الدوتشى، ولا سيما حين صاح على طريقـة الدوتشى قائلاً بصوت عال: إن الشعب الإيطالى بأسره يلتف حولك يا أيها الدوتشى وقد اتحدوا فى تأييدك أنت دون سواك.

ولأن كلمة تشـيانو مثلث طعنة غـادرة فى ظهر وقلب الدوتشى فقـد كانت مرارتـه منه بوصفـه زوج ابنته كـما يقـول الشاعـر: وظلم ذوى القربـى أشد مضاضـة وهو ما اضطر معه لأن يعـاود الدوتشى الكلمة مرة أخرى مـدفوعا بالكلمـة الرائعة التى ألقـاها جاليـاتى والأنباء السـيئة التى وردت حـول النوايا الشريرة التى يضمرها لـه تشيانو زوج ابنته واعتزامه تولى الخـلافة، فضلا عن

رغبتـه فى تفنيد آراء المتحـدثين، وقد انبرى الدوتشى قائلاً فى حـدة وغضب وهو ينظر إلى زوج ابنـته تشيـانو: من عـادة المرء أن يغـفل فى خـضم تلك الأحداث تلك الاتهامات التى يوجهها إلى شخص بوصفى الحاكم الفعلى لهذا العهد. . ولعل التهمة الشائعة التى تتلوكها دون كلل أو ملل ألسنة أبناء الشعب هذه الثروات الخيـالية التى جمعها أغلبكم ثم راح ينظر شـذراً إلى تشيانو، ثم صاح زاعقاً بقول: أنت بالطبع ستكون على رأس هذا الطابور. ثم عاد يحملق غاضبا فى عيون الحاضـرين متوعداً أو مهدداً: ولدى هنا من الأدلة والبراهين ما يكفى لإرسالكم جميعا إلى المشنقة.

ومـا من شك أن تهـديد الدوتشى قـد أدى إلى إحداث فـوضى شـملت القاعة، وبات الاجتماع مهدداً بالفـشل، حيث انقسمت إلى فريقين: أحدهما ينادى ببقاء الدوتش يتحمل المسئولية فى تلك الظروف الراهنة، فيما كان الفريق الآخر ينادى بإعـفاء الدوتشى من جميع مناصـبه، وعزله حقنا للدمـاء وانقاذاً للبلاد وتجنبا للخراب. .

ولما لاحظ مـوسولينى غلبـة الفريق المناهض لبـقائه راح يـقول فى محـاولة أخيرة: اسـمعونى أيها السـادة. . اسمعونى جيـداً، إذا أنتم تخلصتم منى. . فسأظل أكتم فى نفسى نوعية السـلاح السرى القادر على إنهاء الحرب، وينبغى أن تتأكـدوا إذا حققـتم ما أردتموه فسـوف تفقدون فى وقت واحـد النصر وأنا ورقابكم.

ودارت مشاحنات عنيـفة وكلمات أشبه بلكمات ولطمات بـين الجميع، بيد أن دينو جراندى قد نهض قائلاً: إننى أشتم فى حـديث الدوتشى شيئاً ما من

البلطجة والتـهديد، أليس كذلك يا سادة؟ فصـاح مؤيدوه نعم. . . نعم، هذا صحيح.

وفعـاد جراندى يـقول: إذن ماذا تـنتظرون، إننى تقدمت بمشـروع الرئيس المجلس الأعلى وأرجـو منكم تأييده وتمريره لإنقـاذ إيطاليا. . . إن مـشروعى

يا سادة يدعو بصورة عاجلة وفورية إلى عودة أجهزة الدولة للإمساك بزمام أمورها كما كانت من قبل، كمـا يدعو أيضاً إلى أحقية الملك والمجلس الأعلى والحكومة والبـرلمان والاتحادات المهنية فى اسـتعادة كـافة صلاحـياتها المفـقودة وجميع واجباتها المقررة لها بموجب الدستور والقوانين الأساسية.

كما أن المشروع يا سادة يدعو رئيس الحكومة إلى مطالبة حضرة ملك البلاد الذى توليه قلوب الأمة جـمعاء بالثقة والولاء أن يتـولى إذا أراد ورغب للحفاظ على كرامة الأمة والعمل على إنقـاذها بقدر ما هو ممكن ومستطاع، وعلى أن يتولى أيضاً قيادة القوات المسلحة متمتعا بكافة الصلاحيات الواجب توظيفها عند اتخاذ مـا يلزم من قـرارات، وهو حق تمليه علينا قـوانين البلاد، وهو تقـليد عريق لا أظنه حديث العهد بنا، ولتبـقى بلادنا حرة أبية، ولتبقى العزة، وليظل المجد مرفوفاً دوما على قصور آلـ سافوى العظيمة.

وفى ختام كلمته التى ألقاها حول بنود مـشروعه لاقى جراندى حفاوة بالغة حتى أن الدوتشى نفسه نهض قائلاً: لقد بلغت السـاعة الثالثة صباحا الآن وها هو جدالنا العقيم يطول دون جدوى، حتى أننى أرى أن الإعـياء قد استبد بكم ولم ستـتمنى منكم أحـد ومن كم دعوتى أطرح عـليكم ثلاثة اقتـراحات وإن

كنت أرى من جانبـي أن أقتراح جـراندى ينبغى أن يحظى بالأولوية والقـبول، لكن الأمـانه تقتـضى أن أعـرض عليكم ما لـدى دون مجـاملة. وراح يملى اقتراحاته الأخرى، بيد أن مـشروع جراندى كان قد حظى على ١٩ صوتا من مجموع ٢٨ صوتاً هـم عدد أعضاء المجلس الأعلى.

وعلى أثر ذلك غادر موسولينى القاعـة وهو يقول بثقة: إن إنجلترا والولايات المتحدة لا يرغبـان فى التخلص فحسب، لكنهما يريدان تدمـير إيطاليا أيضا.. ولن يستطيع أحد غيرى إلحاق الهزيمـة بهم، أو أن يعقد صلحا معهم، بل ما سوف يحدث بدونى إنما هو ذل ومهانة وعبودية.

عاد مـوسولينى إلى بيتـه يجر أذيال الهزائم المتنوعـة والمتكررة وهو لا يقوى على أن يتأمل وجه ابنتـه راشيل المضطرب وعيون زوجته الدامـعة، وقد أشار عليهم بالاستعـداد للرحيل إلى بيتهم الريفى بعيدا عن تلك الأجـواء الملتهبة، وهو ما دفع ابنته راشيل لتصرخ فى وجهه ماذا تقول يا أبى.. ألم تصدر قراراً باعتقالهم جميعا؟ مفاجأها قائلاً: كلا يا راشيل فلم تعد لقراراتى قيمة بينهم!! لكنى بصدد أن ألقى القبض عليهم جميعا، تأكدى سوف أفعل ذلك.

دارت كل هذه الأحداث الدامية فى ليلة ٢٤ يوليو ١٩٤٣، وفى مساء هذه الليلة تلقى موسولينى برقية عـاجلة من ديوان قصر آلـ سافوى تدعوه إلى زيارة الملك للتباحث فى شئون الحكم، وما يـجب اتخاذه من قرارات المرحلة الدقيقة والحرجة.

ولأن الأجواء كانت ساخنة وملتهبة فقد ساورت زوجته الهواجس، وراودت

ابنته راشيل طاحونة من الشكوك، وراحت الابنة والزوجة تتوسلان إليه ألا يلبى تلك الدعوة خوفا من أن يكون الملك قد أعد له مؤامرة الإطاحة به واعتقاله أو اغتياله.

لكن بنيتو موسولينى ما زال على يقينه وإيمانه بولاء الملك ولا تزال كلماته ترن فى مسامعه وتلح على خاطره .. ألم يهمس الملك فى أذنه قائلاً: أعتقد أنك تعيش يا دوتشى أياماً مفزعة، ولكن بمقدورك أن تثق فى وتطمئن إلى .. ومن الحماقة أن تتصور أن جميع الناس سيتركونك وحيداً بمفردك أو يقفون من حولك مكتوفى الأيدى رغم ما قدمته لبلادنا العظيمة... على أية حال اطمئن يا عزيزى الدوتشى أنا معك قلباً وقالباً.. ولن أتخلى عنك قط، وإذا تخلى عنك الجميع فسأكون أنا آخر من يفعل ذلك!

لكن لا يزال البعض يطالب ببقائى، ومن ثم لن يتخلى عنى الملك ... هكذا كان لسان حال الدوتشى وهو يتجاذب أطراف الحديث مع ابنته وزوجته.

كانت التعليمات تشير إلى الامتناع عن ارتداء الثياب العسكرية، وألا يتأخر عن الساعة الخامسة عصراً، وألا يصطحب أحداً من رجاله باستثناء سكرتيره الخاص فقط.

ورغم ذلك كان الأمل يحدوه والشفقة تستولى على نفسه، على عكس المحيطين به أولئك الذين لم يتخلوا عنه بعد.

كان الملك فى تلك الأثناء قد اتخذ قراراً يقضى بتنصيب المارشال رئيساً للحكومة لا سيما وأنه اشتهر بكفاءته القتالية وعدائه للفاشية، الأمر الذى أزعج

جراندى، ذاك الـذى كان يأمل فى اسـتخلاف الدوتشـى موسولينـى، بيد أن مساعيه وجهوده قد باءت بالفشل.

وفى الساعة الرابعة وأربعين دقيقة انطلقت سيارة الدوتشى إلى مجهول ينتظر قدومـه داخل دهاليز قصر آلـ سـافوى لمقابلة الملك الذى وعـد وعاهد، ومن يأمن للملـوك وعـودهم كـمن ينكر على التـعـالب مكـرها، وعلى الذئاب غدرها، وعلى الأسود بأسها وعلى الجـرذان جبنها فى تلك الأثناء كان الملك يتنزه فى حديقـة القصر الملكى بصـحبة بعض من رجـال الحاشية مـرتديا ثيابا عسـكرية، وقد أصـدر أوامره قبل مـجىء الدوتشى بالاعـتقـال عقب انتـهاء المقابلة.

كان الملك يبدو لناظريه مبـتهجا سعيداً متـألقا بما لا ينسجم مع الأجواء التى تشهدها البلاد، وسرعان ما اصطحب الملك ضيفه الدوتشى، ومضى به داخل البهو، وقد شرع موسولينى فى عرض تقريره الشفهى حول جلسة الأمس التى كان أحـد أبطالها داخل المجلس الأعلى، وحـاول الدوتشى التهـوين مما جرى داخل الجلسة فى مـحاولة منه للتأثير على الملك وإقناعـه بأن قرارات المجلس الأعلى واقتراعاته غير ملزمة، وهو ما دفع بالملك ليخبره بأنه على العكس من ذلك يحـترم ويقـدر ويتمـشى جمـيع قرارات هذا المجلس، ثم انبـرى الملك يقول: إن الأمور تتدهور من سئ إلـى أسوأ، وإن الخراب عم البلاد، والجنود لم يعد فى وسـعهم وضع أصابعـهم على زناد بنادقهم حيث اليـأس يعصف بهم..

وكثيرا ما سمعتم بأذنى يتغنون فى أسى: ليسقط الدوتشى قاتل الجنود.

كانت كلمـات الملك المطرقة التى هوت على رأس الـدوتشى وكأنه لا يزال داخل قاعة المجلس الأعلـى ينصت على غير هوى للانتقادات الـعنيفة، لكن بنيتو الذى كـان يثق فى إخلاص الملك صاح قائلاً: لكنك وعـدتنى ألا تتخلى عنى ولو كانوا قد تخلوا عنى جميعاً؟

فإذا بالملك يقـول وهو يربت على كتفيـه: نعم لكن واجبك ألا تشك لحظة فى حقـيقة مشاعـر الشعب الإيطالى نحوك، فـأنت ربما لا تعرف أنك الرجل الأوحـد الذى أجمـعت إيطاليا كلهـا على كـراهيتـه. . لكن أنا فقط سـأظل صديقك الذى يحفظ صداقتك، ومن ثم دعنى أقول لك: لا تخشى شيئاً على حياتك سـأضمن لك للحمـاية، لكن الواقع يا عزيزى بنيتو أننـى قد أصدرت مرسوماً ملكياً يقضى بتعـيين المارشال (بادوليو) رئيسا للحكومة خلفاً لك. وهى العبارة التى نزلت على الدوتشى كالصاعقة فـأفقدته صوابه حتى خر على أحد المقاعـد لا يقوى على الوقوف أن اصـفر لونه وتصبب وجـهه عرقـاً من فرط دهشتـه وقد قال للـملك: إذن انتهى كل شئ . . انتهـى كل شئ، أجل لقد انتهى كل شئ.

ثم سرعان مـا استرد عافيتـه ونهض من مقعده مجـففاً عرقه الغـزير ليقول للملك بعد أن انتصبت قـامته واستدعى أعصابه واسـتجمع قواه: إذا كنت يا جلالة الملك على حق فيما أخبـرتنى به. . فبوسعى الآن أن أبادر بأن أقدم لك استقالتى.

فما كان من الملك سوى أن أجابه قائلاً: وأنا قبلتها دون شروط!!

ويبدو أن الدوتشى إراد طرح استقالته تجنباً لملاحقته قانونيا، وحتى يجاهر أمام الجميع بأنه هو الذى تطوع من تلقاء نفسه بالتنحى، ومن ثم لا محل لمسألته أو محاكمته وهى الأمنية التى اصطدمت بصخرة العناد الصلبة.

بيد أن موسولينى عاد يقول لجلالة الملك: لاحظ يا جلالة ملك البلاد أنك تتخذ قراراً خطيراً، حيث إن المرحلة الراهنة ستجعل الشعب يعتقد أن الصلح مع الحلفاء على الأبواب .. لأن الرجل الذى أطلق نفير الحرب قد أقيل من منصبه، ومن ثم سوف تكون الصدمة التى ستصيب معنويات رجال الجيش مرعبة وخطيرة، وستعتبر الأزمة انتصاراً ساحقاً لأعدائنا.. على أى حال، فأنا أرجو لمن يخلفنى أن يحالفه التوفيق.

وتصافح الرجلان بحرارة كانت أشبه بحرارة المناخ الساخن داخل بهو قصر سافوى ثم كان أن غادر الدوتشى البهو متوجهاً إلى درجات السلم الرئيسى قاصداً سيارته، فإذا بآخر ضباط الجيش يتقدم منه وقد أدى التحية العسكرية، وقد طالبه باصطحابه إلى سيارة إسعاف كانت فى انتظاره فأدرك الدوتشى أنه بات رهن الاعتقال، فتناهت لمسامع ذاكرته توسلات زوجته ومناشدات ابنته، فاتضح له مدى سذاجته لشقته بملك لا يوفى بما يتعهد به، وهو الذى ظن به خيراً.

التزم موسولينى الصمت ولبى أوامر حراسه الجدد المدججين بالسلاح، وثارت فى رأسه هواجس عنيفة وهو يتساءل فى دهشة: ماذا يجرى بالضبط ومن هؤلاء الرجال المدججين بالسلاح.

* * * *

الفصل الأخير
نهاية موسولينى

لقد كان الخامس والعشرون من يوليو ١٩٤٣ يوماً عصيباً ورهيباً وكئيباً، وربما كان أسوأ أيام الدوتشى حتى الآن، لا سيما وأن الرجل كان مفرطاً فى الأمل مسرفاً فى التفاؤل، لا يخالجه الشك فى ولاء الذين من حوله على اعتبار أنهم كانوا قد أقنعوه بملء إرادتهم أنه الإله والأب والأسطورة والإعجاز الذى يمشى على قدمين.

نهايته. . كان الدوتشى قد قفز برشاقة مصطنعة إلى داخل سيارة الإسعاف على أمل أن السيارة وحملة الأسلحة إنما هى لحمايته، وإن تنازعته الهواجس من أنه ربما يكون فى طريقه إلى مكان مجهول يسدل الستار على حقبة امتدت أكثر من عشرين عاماً.

وبعد أن قطعت السيارة مسافة زمنية لا تقل عن نصف ساعة هبط الدوتشى فى فناء معسكر الكارينييرى فى منطقة (كويتتينو سيلا)، وقاده قائد الحرس فى أدب جم إلى مكتب القائد، وقد فوجىء بأن المكتب خاو من المسئولين، وقد أشار عليه قائد الحرس بأن هناك غرفة ملحقة بالمكتب تشتمل على مكتب وأوراق بيضاء ربما رغب فى تسجيل خواطره ويومياته إلى جانب فراش مجهز خصيصاً له لكى يحظى بقسط وافر من ساعات نوم هادئة.

وهنا فقط أسقط فى يد الدوتشى الذى أدرك أنه بالفعل كما ظن فى بادئ الأمر رهين الاعتقال، وأن الآمال التى راودته بأن السيارة وحراسها جاءوا

لحمايته قد كانت ذلك ضـربا من الأوهام، وإسرافاً وتبذيراً فى التفاؤل الذى لم يكن مشوبا بالحذر.

لكن موسولينى لاذ بالـهدوء وتحلى بالصبر على هذا البلاء، بيـد أن وجهه قد بدا كمن بات على مشارف الموت مما أثار مـخاوف قائد حرسه الذى هرول لإحضار طبيب الثكنة العسكرية، وقد تولى إجـراء فحوصات عاجلة أوضحت أن الدوتشى يشكو هبـوطاً حاداً فى الدورة الدموية، من جـانبه أصـر الطبيب على تزويده ببعض الأقراص لضبط الدورة الدموية وتنظيم ضربات القلب، ثم سرعان ما استرد حيويته بعد لحظات كاد يلفظ خلالها أنفاسه الأخيرة.

وغاص الدوتشى فى سـبات عميق كـأنه لا يريد أن يفتح عينيه لـيرى ما لا يمكن له أن يتـصوره أو يتوقـعه فى أسوأ سـيناريو صاغه أكـثر الناس تشـاؤماً وتبرماً.

لكن الواقع أن الدوتشى لم يعد هو الشـيفاليـه بنيتو موسـولينى، أو الحاكم الزعيم، بل أصـبح المتهم السجين، وها هى شـوارع روما تتزاحم بالجمـاهير الغفيرة التى خـرجت على بكرة أبيها لتتأكد من صـدق الشائعات التى راجت حول هروب الدوتـشى إلى برلين، وأن هناك من يخلفه لحكم الـبلاد بموجب مرسوم ملكى صدر فى ساعة مبكرة.

كانت الأنباء غـير مؤكدة، ومن ثم اقتصـرت الحشود الشعبيـة على مجرد الاستفسار عن مصير الدوتشى ومستقبل الوطن، وظلت التساؤلات والشائعات والأقاويل والأكـاذيب والأباطيل تدور بين شوارع رومـا، وتسرى فى ربوعـها

سرى النار فى الهشيم حتى ضاق الناس ذرعاً بالأمر، مما اضطر جموع المواطنين للتوجه مباشرة إلى القصر الملكى ريثما يصدر القصر بيانا ينهى عذابات الناس ويقضى على ظنونهم وهواجسهم.

وعلى أثر الازدحام الرهيب والتدفق المخيف حول أسوار قصر آل سافوى راح الملك يأمر معاونيه بإصدار بيان للشعب يعلن فيه المرسوم الملكى الصادر فجر اليوم.

وتلى مندوب الملك البيان الملكى الذى أكد أن جلالة الملك قبل ليلة أمس استقالة فخامة الدوتشى بنيتو موسولينى من رئاسة الحكومة الإيطالية، ومن السكرتارية العامة للدولة، واختار جلالة الملك خلفاً له المارشال الشيفالييه بيترو بادوليو.

وما أن أنهى المندوب الملكى تلاوة بيانه الذى أذيع عبر الإذاعة حتى انفجرت صياحات الجماهير، وعلت هتافاتهم كالبركان وكالإعصار، كالطوفان، حيث انطلقت جموعهم لتكسير وتحطيم وإزالة وحرق صور الدوتشى وتماثيله وشعاراته التى زينت بها الشوارع والميادين، كما أضرموا النيران فى مقار الحزب الفاشى حتى طالت ألسنة اللهب وأعمدة الدخان عنان السماء، كما أن المتعصبين منهم راحوا ينتقمون من أعضاء الحزب وذوى القمصان السوداء الذين كانوا قد أشاعوا الرعب والفزع فى صفوف الشعب، وقد حانت اللحظة للتخلص منهم.

كانت الحرائق تشتعل فى كل صورة أو رمز أو علم أو سارى أو عمود يتزين بأية شعارات فاشية وتتصدرها صور الدوتشى.

وبلغ الأمـر بالجمـاهير أن طالبت بـرأس الدوتشي لفصلهـا عن جسـده، وراحت الجماهير تهتف بأعلى الصرخات: ليذهب الدوتشي إلى الجحيم، أين أنت؟ أين الخـائـن؟ أين أنت يا عـمـيـل النازية الموت لذيل الفـوهرر الموت للدوتشي . . . الموت للدوتشي.

وبينما كانت حلقات الرقص وحفـلات الغناء تعم أرجاء إيطاليا كان الدوتشي يتفحص رسالة بعث بها إليه الشيفاليه بنيتو موسوليني حيث أكد له فيها ما نصه: (إلى فـخامـة المارشال بيـترو بادوليـو . . . يود رئيس الحكومـة الذى ذيل هذه الرسالة بتوقيـعه أن يؤكد لفخامتك أن الإجراءات والتـدابير التى اتخذت كانت تهدف فى الأساس إلى توفير الحمـاية لكم وتأمين حياتكم، وهو يحرص على التأكيد لفخامتك بأن تصحبك حراسة كافية وأمنية للمكان الذى ترغبه)

تفضلوا مع وافر الاحترام

التوقيع: رئيس الحكومة

المارشال بيترو بادوليو

وطوى الدوتشي ورقة الخطاب وأشار فى صلف إلى مـبعوث رئيس الحكومة بادوليو لإحضار ورقة وقلم لكتابة ما سوف يمليه عليه، وجاء فى رده ٢٦ يوليو ١٩٤٣ - الساعة الواحدة صباحاً:

بادئ ذى بدء، أتوجه بعظيم الشكر للماريشال بادولـيو لحرصه الشديد على توفيـر الحمـاية لسلامـتى. . والحقـيقة أن المسـكن الوحيد المـوجود الآن تحت تصرفى هو (روكاديل كاميناتى) وإنـى على استعداد لأن أذهب إليه فى الوقت

الذى ترونه مناسباً. . كما أنى أرغب فى التأكيد للمارشيال بادوليو متذكراً عملنا معاً فى الأيام الماضية أنه لن يواجه أية متاعب تصدر من جانبى، حيث إنى سأتعاون معه فى جميع القطاعات ثم دعنى أؤكد لكم كم أنا سعيد لاتخاذكم القرار بالمضى قدما فى طريق الحرب لمشاركة حلفائنا، لأن كرامة الأمة تستدعى ذلك، وإنى لأرجو من مكنونات فؤادى أن تتكلل أعمالكم الخطيرة بالنجاح الذى تحمل المارشال بادليو مهامه، وليوفقه الله، وإنى أتوجه بالشكر لصاحب الجلالة ملك البلاد الذى يتحمل معنا أعباء البلاد، وهو الذى كنت خادمه الأمين طوال عشرين عاماً، وسوف أبقى كذلك ما دام فى صدرى قلب ينبض بالحياة.

التوقيع

عاشت إيطاليا.. موسولينى

وفى صباح اليوم التالى اقتيد الدوتشى السجين إلى سيارة سوداء برفقة البريجادير بوليتو قائد قوات الشرطة العسكرية، وانطلقت السيارة بسرعة جنونية تتقدمها دراجة بخارية لتهيئة وتأمين الطريق ثم بعد بضع ساعات توقفت به فى منطقة تسمى جاييتا للعيش داخل إحدى قلاعها الشهيرة، تلك التى احتضنت من قبل البابا لويس التاسع الذى لجأ إليها عام ١٨٤٨، وآن مازيتى البطل التاريخى العظيم قد سجن بداخلها عام ١٨٧٠، لكن هذا تعارض تماماً مع ما ذكره من رغبته فى الاقامة فى (روكاديل كاميناتى)، وهى الرغبة التى تبدلت دون مشورته، لكنها دائرة الأيام وغدر الزمان الذى لا يبقى على حال من

يصدق أن الدوتشى يعيش على غير ما يهوى، وينام على غير ما يرغب، ويأكل على غير ما يشتهى، ويضحك مجاملاً، ويبكى نادماً، فما أقسى هذه اللحظة، على أية حال لم تكن هذه القلعة هى ملاذه الأخير كما ظن، لكنها كانت محطة انتقالية لحين توفير زورق بحرى ينقله إلى جزيرة بونزا.

لكن موسولينى لم يكن راضياً عن مستوى المعاملة رغم ما ورد من تأكيدات وتطمينات فى رسالة بادليو، ومن ثم ثار هائجاً أمام قائد الشرطة، وأبلغه أنه يتعرض لمعاملة غير لائقة بمكانته التاريخية، وأن واجبه يحتم عليه أن يبلغ رئيس الحكومة بتدهور الأوضاع.. أما لماذا صاح الدوتشى هكذا ثائراً فقد لاحظ أن الأهالى قد تجمعت لرؤيته فضلاً عن أن أحداً لا يجيب على تساؤلاته باستثناء الاسهاب فى الحديث مع قائد حرسه حول مغامرات قائد الحرس وعملياته التى كانت أهم مسوغات ترقيته وتدرج مناصبه!

ثم حين استقر الزورق البحرى على ساحل سانتا ماريا انتفض كالأسد المصور يحذر من مغبة هذه الأساليب، مهدداً بأن لهذه التصرفات انعكاسات مستقبلية خطيرة لا سيما وأن الصداقة العميقة التى تربطه بالفوهرر أدولف هتلر قد تدفع هتلر لمساعدته على نحو أو آخر؟!

وبالطبع كان لـلعبارة الأخيرة وقع غريب على مسامع القائد الذى ابتسم كمن يسخر مما يقوله رجل أصابه مس الجنون، حيث أن الفوهرر الذى غاص فى مستنقع الحرب ما كان ليبحث عن صديقه الذى خذله وأحبط مخططاته بفشله الذريع.

أما الدار التى نزل بها داخل الجزيرة فقد كانت أشبه بالسجن، وربما أحس الدوتشى خلال إلقاء النظرة الأولى عليها أنه بالفعل بات سجيناً، حيث كان المكان لا يخلو من القذارة والروائح العفنة والأثاث الحقير والمفروشات البالية.

وفى صباح اليوم التالى الموافق التاسع والعشرين من يوليو الموافق لعيد ميلاده أقبل بعض صيادى الجزيرة لتهنئته وتسريته عبر إهدائه ما يسمى بسرطان البحر أبو جلمبو، فضلاً عن حبات الفاكهة الطازجة بغرض التخفيف عنه.

وفى هذا البيت القذر بدأ موسولينى يومه بالاستيقاظ المبكر فى السابعة صباحاً ليتناول الإفطار الذى يتكون من كوب حليب وبيضة واحدة، فيما يتناول عند الغداء بعض شرائح الطماطم، وإلى جانبه بيضة واحدة وثمرة فاكهة ورغيف من الخبز، أما فى العشاء فقد كان يكتفى بتناول قدح واحد من الحليب، ويقضى طوال النهار فى تسجيل خواطره ويومياته ليصف مأساته التى أرجعته مخلصاً إلى المسيحية التى كان يستخف بها، فضلاً عن تفكيره العميق فى مصيره وما يريده أولئك الأوغاد الذين دبروا له هذه المؤامرة فى ليل.

وبعد مرور سبعة أيام على وجوده داخل هذه الجزيرة التى تكاد تخلو من مقومات الحياة سقط الدوتشى مغشياً عليه، وقد أحضروا طبيباً على جناح السرعة لفحصه ومتابعته وعلاجه، حتى تماثل للشفاء، ولم تمض خمسة أيام على تماثله للشفاء حتى تلقى أمراً بالتأهب لترحيله من الجزيرة إلى مكان آخر.

وفى فجر آخر تلك الأيام وجد الدوتشى نفسه محاطاً بحراسة مشددة لتقتاده إلى سفينة كانت راسية على صفحة مياه الجزيرة، وكانت تدعى السفينة (با نتيرى).

وانطلقت السفينة الحربية تمخر عباب البحر وهى تحمل على متنها الرجل الذى كان حديث أوروبا، ومعبود الجماهير الإيطالية، وزعيمها الأوحد، ها هو يتأمل صفحة المياه والأمواج اللاهثة والطيور الشاردة، حيث إنه كان أشبه بتلك الأمواج التى تجرى إلى مجهول لا تعرفه، وبالطيور المهاجرة التى لم تكن قد استقرت بعد على عش يأويها، والدوتشى لم يكن أوفر حظاً من تلك الطيور، فلم يكن قد استقر ونام قرير العين وما أبشع قسوة الحياة التى يعيشها المرء بعد نعومة وطراوة ورفاهية وراحة ونعيم.

كانت السفينة قد رست فى قاعدة مادالينا التى كانت موضع اختيار دقيق من جنرالات الجيش وقادة الحكومة الجديدة ، بعد أن وردت أنباء تفيد بأن القوات الألمانية تخطط لفك سراحه عبر عملية عسكرية فدائية أمر بها الفوهرر أدولف هتلر صديق الدوتسى الوفى.

والحقيقة أن الفوهرر كان يعتصر ألماً ويتميز غيظاً من المصير الذى آل إليه صديقه ورفيقه فى النضال والقتال والكفاح والعداء للغرب، ومن ثم لم يألو جهداً فى إطلاق سراحه، إما عبر وساطة يقوم بها لدى الملك والحكومة، وإما بواسطة عملية عسكرية إذا فشلت مساعيه مع الملك وحكومته.

وبعد رحله بحرية طويلة وشاقة وجهيدة توجه الدوتشى إلى أحد البيوت الريفية بالقرب من مادالينا، تلك الجزيرة الواقعة شمال سردينيا، وقد كانت جزيرة خالية من السكان بعد أن تعرضت لغارة جوية إنجليزية عنيفة باستثناء عدد من الصيادين وبعض أفراد الجيش الإيطالى الذين هم خفر السواحل.

ورغم أن أثاث المنزل وجغرافيته أجمل من تلك الدار التى غادرها بالأمس بيد أنه أدرك أن المكان يتسم بالوحشة والقسوة والبرودة التى لم يعهدها من قبل فى أى من الأماكن التى قضى بها فسحة من الوقت.

وظل بها ثلاث أسابيع لا يغادر غرفته قط، يقلب صفحات مجموعة من الكتب كانت السلطات قد سلمتها له كهدية بعث بها هتلر إليه لمؤانسة وحشته وتبديد وقته، وتحطيم الملل الذى قد يتسرب إليه.

ومضى موسولينى على هذا النحو بضعة أيام حتى تلقى معلومات تشير إلى قرب نقله إلى مكان آخر، حيث إن المخاطر تحيط به من كل جانب، وفق ما تذرعت به الحكومة الجديدة.

وفى فجر الثامن والعشرين من أغسطس انتقل الدوتشى من داره إلى رصيف الميناء ليستقل طائرة بحرية ضمن طائرات الصليب الأحمر، طارت به إلى بحيرة براسيانو، ومنها استقل سيارة بصحبة حراسه، اتجهت به إلى روما ثم جهة الشمال، وعبرت جسراً يعلو نهر النيبر ثم سرعان ما انحنت جهة طريق سابين، ومضت السيارة تشق طريقها الطويل حتى استقر بها الأمر فى مرتفع عمودى يبلغ ثلاثة آلاف قدم، ليصل فى نهاية تلك الرحلة العسيرة إلى هضبة المعسكر الإمبراطورى، وهى أعلى قمة فى قمم جبال الأبنين، وترتفع مسافة تبلغ ٦٥٠٠ قدم أعلى سطح البحر، وبمسافة عشرة أميال تحت قمة جبل كورنو.

وكان على هذه الهضبة فندق يتسم بالهدوء والروعة الجمالية، ويسمى فندق (البيرجو - ريفوجيو).

وعلى عجل كانت مديرة الفندق فى انتظار قدوم الدوتشى الذى سيستقر لحين تلقى تعليمات أخرى طارئة وعاجلة.

كانت السيدة بدورها تتلهف لرؤية الرجل الأسطورة الذى كان يلهب خيالها وتترع حماستها بخطبه الرنانة وشعاراته الملتهبة الساخنة، لكنها لاحظت أن الرجل لم يعد هو الذى كان مثار إعجاب وانبهار الأمة، حيث بدا شاحباً شارداً تائهاً.

وعاش داخل الطابق الثانى وسط حراسه وموظفى الفندق الذين كان يدفعهم الفضول للتحدث إليه، وكثيرا ما شوهد شارد الذهن زائغ النظرات يتأمل تلك الصخرة الرائعة من نافذة غرفته، كأنه ينتظر شيئاً ما فى الأفق البعيد.

وما من شك أن معنويات الدوتشى داخل الفندق كانت أسعد حالاً من تلك الأماكن التى تردد عليها من قبل، لا سيما وأن السلطات الأمنية قد سمحت له بالاستماع إلى الإذاعة، ورغم ذلك فقد لوحظ أن تدهوراً سيئاً قد تعرض له، الأمر الذى أثار موجة من الذعر لدى حراسه خوفا من أن يتخذ قراراً سرياً ومباغتا بالانتحار، ومن ثم تضاعفت الحراسة وتشدد أفرادها على نحو غير مسبوق، ولم يكن مألوفاً بالطبع له، والحقيقة أن مديرة الفندق وحراسه حاولوا التخفيف عنه بقدر الإمكان، حتى أنهم ناشدوه أن يلعب معهم الكوتشينة ويتجاذب معهم أطراف الحديث كما كان حاله فى بدء مجيئه إلى الفندق، واستجاب الدوتشى لدعواتهم وعاش بينهم.

ولأن موسولينى كان على موعـد مع أحد الرعاة الأجلاف الذى أصر على دخول الفندق بغرض شـراء زجاجة نبيذ بيد أن الحـرس كان قد رفض إدخال الرجل، ولما عـلا صيـاح الراعى أمر مـوسولينى حـرس الفندق بالسمـاح له بالدخـول لانهاء النزاع بينهـما، وما أن دخل الـراعى حتى راح يشن هجـوماً لاذعاً على موسوليـنى واصفاً سياسته بالفـاشلة والمخزية، حيث ارتكزت على فرض الضرائب على الفلاحين والرعـاة، وما أن فرغ الرجل من تناول زجاجة النبيـذ حتـى نهض يربت على كـتف الدوتشى قـائلاً فى ثقـة أثارت ذهول الجمـيع: حاول أن تحـافظ على نفسك يا مـوسولينى، وأشكرك على زجـاجة النبيـذ: لكن موسولينى الذى كـان يتميـز غظياً من هجوم الرجل راح ينفـجر ضاحكا كأنه أصابه مس من الجنون، ولم يتوقف عن الضحك إلا حين ترامى لمسامعه عبر الإذاعة أن الحلفاء يشترطون تسليمه لوقف الهدنة.

بالطبع كاد موسولينى يسقط مغشيـا عليه، وتحسس مسدسه بصورة عفوية، وأدرك أنه منزوع السلاح، ومن ثم أسرع إلى غرفتـه يبحث عن شفرة حلاقة لقطع شرايين يده لكى يتخلص من هذا الشرط، حـيث إن تلسيمه إلى الحلفاء إذلال ومهانة لا يتحملهما قـط، ولولا أن أسرع رجال الحرس إلى غرفته لكان آنذاك فى عداد الموتى.

وعلى الفـور تخلص الحراس من كـافة الأدوات التى قـد يستـخدمـها فى الانتحار وراح قـائد حرسه يربت على كتفه ويهـدئ من ثورته وسخطه، وكأن لسان حال القائد يقول: لا يا دوتشى لن تسمح بتسليمك أبداً.

مضت الأيام واسترد الدوتشي عافيته، وبينما كان يقضي بعض الوقت ينظر بعيداً عبر نافة غرفته، لاحظ أن طائرة تهبط على الصخرة المواجهة للفندق، ثم سرعان ما تبعها عدد من الطائرات، وفي أعقاب هذا المشهد المثير لمح فرقة من الجنود يندفعون من باطن الطائرة ومضوا نحو الفندق زاحفين.

وبينما كان موسوليني غارقاً في تفسير ما يرى واستكشاف حقيقة الأمر فوجئ بقائد حرسه يصرخ قائلاً يا صاحب الفخافة.. إنهم الألمان، إنهم الألمان يا سيدي الدوتشي.

في تلك الأثناء هبطت طائرة صغيرة أمام باب لفندق خرج من كابينتها ضابط شاب ألماني يدعى النقيب أوتوسكورزيني أبرز ضباط وحدة (فريد ينتال) إحدى أقوى وحدات الحرس النازي، واندفع نحو الطابق الثاني وقد شاهد موسوليني يطل من النافذة، ثم سرعان ما أمره بالدخول إلى الغرفة لتجنب النيران.

ولبى الدوتشي أوامر الضابط الألماني الذي أسرع إلى غرفته ليقول له بعد أن أدى له التحية العسكرية: سيدي الدوتشي.. لقد أمرني الفوهرر أن أحضر إلى هنا لإحضارك، والقرار قرارك يا سيدي .

كانت المفأجاة قد ألجمت موسوليني بعض الوقت، حتى أن عينيه قد اغرورقت بالدموع، ثم وجد نفسه يرتمي في أحضان لضابط قائلاً: كنت على يقين بأن صديقي الفوهرر سيفعل ذلك.

وعلى الفور أبدى الدوتشي رغبته في الرحيل إلى أي مكان، واصطحبه الضابط الألماني إلى الطائرة التي كانت مجهزة من أجله، وقد حرص على

مصافحة حراسه الإيطاليين الذين كانوا فى حالة من الذهول، ورغم الصعوبات التى واجهتها الطائرة فقد انطلقت جهة الجنوب الغربى نحو وادى أفيزانو.

وسرعان ما هبطت الطائرة فى مطار اسبيرن بالعاصمة فيينا، ثم استقل سيارة توقفت به أمام فندق الكونتيننتال قاصداً أحد أجنحته الفخمة ليقتطع قسطاً من الراحة بعد رحلة عناء طويلة منذ أن وقع كالفأر فى مصيدة أعدائه.

وما أن دخل إلى الجناح حتى وجد أمامه الفوهرر أدولف هتلر يلقى عليه التحية النازية، فارتمى فى أحضانه شاكراً له مسعاه وحرصه وإطلاق سراحه رغم المخاطر العظيمة، وبعد حديث قصير تبادله الزعيمان غادر هتلر الجناح لكى يحظى الدوتشى بالراحة والنوم.

وفى الثالث عشر من سبتمبر ١٩٤٣ وعلى متن طائرة عسكرية طار الدوتشى إلى ميونخ ليفاجأ بوجود زوجته وابنته راشيل وأولادها ينتظرونه على سلم الطائرة، ودارت أحاديث طويلة حول الصعوبات التى واجهها فى الأيام المنصرمة التى كان فيها رهن الاعتقال.

كان الدوتشى يتحدث بثقة حيث استرد كبرياءه المسلوب، واستعاد حيويته وكأنه أمسك بزمام الأمور ببلاده، لكن عجز عن إخفاء كراهيته لقصر آل سافوى الذين خدعوه وشردوه،وكم تاق إلى إحراق هذا القصر للتخلص من الملك وأسرته.

وفى صباح الخامس من سبتمبر ١٩٤٣ كان الدوتشى على موعد مع الفوهرر أدولف هتلر فى بروسيا الشرقية.

وما أن التقى الزعيمان حتى أمسك أحـدهما بيد الآخر احتفاء وامتناناً، ثم استقلا سيارة سوداء أقلتهما إلى إحدى القلاع ليتناولا ما ينبغي عليهما القيام به بعد هذه التطورات، وفى بداية اللقاء بادر الفوهرر بسؤال موسولينى عما يعتزم القيام به، فإذا بالدوتشى يؤكد له رغبتـه فى اعتزال الحياة العامة، وهو ما أثار فزع الفوهرر، وانتفض غاضباً يلقى محـاضرة زهاء ساعة كاملة يلح فيها على الدوتشى ضرورة العـمل على عودته رئيـساً للحكومة، والتـخلص من الملك والخـونة الذين غدروا به، ثم أضـاف الفـوهرر أن مصلحـة ألمانيـا فى تشكيل حكومة فـاشية لتـخويف الحلفـاء، ولكى نبرهن لهم أن إيطاليا لـم تتخلى عن ألمانيا، وأن قدرتهما على مواصلة الحرب ما زالت حية.

من جـانبه اضطر الدوتشى الذى كـان قد أصـابه الوهن ولم يكن مـقتنعـاً بمحاضرة هتلر، بيـد أنه تعذر عليه إفشال مـخطط هتلر وهو الذى بادر بإنقاذ حيـاته وسعى لتوفـير السلامـة لجمـيع أفراد أسرته، الأمـر الذى دفعه لقـبول العرض صاغراً، إيماناً منه برد جميل هتلر.

كان هتلر قـد استضاف مـوسولينى ثلاثة أيام يتـبادلان خلالها المشـروعات المستقـبلية، وقد لاحظ هتلر أن موسولينى لم يـعد هو ذلك الدوتشى صاحب الخطوة المليئة بالخيلاء، فقد لمح فى عيون الرجل مسحة من الحزن، وفى حديثه نبرة من اليأس، وهو مـا حدا بالفوهرر لحثه على اسـتعادة حماسـه واسترداد قواه للانتقام ممن أذلوه.

وبنصيحة من جويلز وزير دعاية هتلر توجه موسولينى إلى دار الإذاعة لبث كلمة إلى جمـوع الشعب الإيطالى يدعوه من خلالهـا لنصرته ومؤازرته ودعم

عودته لإحـياء إيطاليا العظيـمة، ولم تكن الكلمة مـؤثرة بقدر ما كانت مـدعاة لدهشة الإيطاليين الذين بـاغتهم أبناء هروبه حيث لـم يعد من بينهم من يدرى إلى أين ستنتهى الحال بهذا الوطن المنكوب بزعمائه.

وما أن فرغ موسولينى من خطبته حتى بادر بإعلان تأسيس ميلاد الجمهورية الإيطالية الاشتراكية، وقد تضمن الإعلان بنود دستور الجمهورية الجديدة، وقد نص على تولى الدوتشى مـقاليد الـسلطة العليا فى توجـيه مسـار الفاشـية فى إيطاليا، علاوة على مسئوليته التنظيـمة للحزب الفاشى، وأن ينتقى بنفسه أفراد الحراسة ومحاكمة الانقلابيين الخونة.

وبعد أسبوعـين عاد الدوتشى إلى مكانه الأثير، والذى كان متلهـفاً للعيش به، حـيث استـقـر وسط حراسـة ألمانيـة شديدة بداره فى مـنطقة (روكـاديل كاميـناتى)، وقد استقـبل بداخلها أعضاء حكومـته الجدد الذين وقع اخـتياره عليهم من الفاشين القدامى الذين تمسكوا بمبادئها، فى طليعتهم روبرتوفاريناتش وجيوفانى بريزيوسى وجيدو بوفاريتى جيدى وفيرناندو ميزاسوما.

وكان قد اسـتقبل أحد الصحـفيين الإيطاليين الامعين فى مـقر داره، حيث كانت عـلاقة قديمـة تربطهما منذ طفـولتهمـا، كما استـضاف أيضاً صـديقه الشيوعى (نيقولا بومباكى) الذى كان مـوسولينى لا يدخر جهداً فى مساعدته عندما تعرض لازمـة حانقة كادت تعصف به وبأسـرته، رغم ما كان بينه وبين موسولينى من عـداء، وقد حملها هذا الرجل فى نفســه وآثر دعم موسولينى حتى الرمق الأخير لعله يستطيع رد صنائع معروفه معه.

ومع توالى التحذيرات بسقوط روما على يد الحلفاء وانسحاب الألمان منها اضطر موسولينى إلى نقل مقر حكومته الوليدة إلى بلدة صغيرة تسمى حرجنانو التى تبعد عن سالو بضعة أميال.

وفى داره الجديدة قضى موسولينى حياته الكئيبة وسط حراسة ألمانية لا حصر لها.

ورغم أن ألمانيا كان لها الفضل فى إطلاق سراحه لكنه ضاق ذرعاً من تلك الحراسات المكثفة التى كانت تهدف إلى رصد تحركاته والتجسس على مكالماته ولقاءاته وأحاديثه.

وامتثالاً لأوامر هتلر جرت محاكمات الانقلابيين رغم أن الدوتشى لم يكن راضياً على ذلك، لكنها التدخلات الألمانية السافرة.

وبالفعل جرت وقائع المحاكمة العاجلة على الخونة بما فيهم تشيانو زوج ابنته إليد التى توسلت وناشدت والدها العفو عنه بيد أن الدوتشى كان كثيرا ما يصرخ قائلاً: لو قدر لى أن أقتله بيدى لقتلته فهو خائن، وإيطاليا لا تغفر للخونة يا ابنتى.

وبعد عدة جلسات وجهت خلالها عريضة بالاتهامات لخمسة من أبرز الانقلابيين: اميليودى بونو، وتوليوشيانيتى، وجيوفانى مارنيللى، ولوشيانوجوتاردى، وكارلوباريش ،وتشيانو، وقد صدرت ضدهم أحكام تقضى بالإعدام رمياً بالرصاص.

وكعـادة الشعـوب التى تستـظل بمظلة الديكتاتورية والحكـم المستبـد راحت جمـوع الشعب الإيطالى تخـرج عن بكره أبيها لتـهنئة الدوتشى على انتـصاره على خصومه السـياسيين وكانت الهتافـات تعلو: يحا الدوتشى، أينما وصل، حتى الجدران والأعمدة والبنايات الحكومية والبيوت الأهلية، إنها عادة الشعوب المقهورة دائماً.

وكان موسـولينى قد عاودته نوبة صحـيان أحيت له كبرياءه وشـعوره بالعزة فراح يصـيح وسط الجماهير الغـفيرة قائـلاً فى صلف: لو لم ينجح الانقلاب لكنت الآن فى القاهرة أو فى قناة السويس، وهى أحلام كانت تراود موسولينى من حين لآخـر، حيث كـثيـراً ما تطلع إلى احـتلال القاهرة مـتى سنحت له الفرصة التى لم تأت أبداً.

وكان مـوسولينى يحاول جـاهداً أن يستفـسر ممن حوله عـما سوف يكتـبه المؤرخون عنه، وقـد ردد ذلك خلال فتـرة اعتقاله، ولـم يكن يحظى بجواب يشفى غليله، حيث كان يشعر فى نـفسه أن التاريخ لن يرحمه، ولن يكون له شفيعاً وسـيقول حتما: إنه الرجل الذى أحرق روما وهو يلقى خطبـه الحماسية التى كان يستميل بها الجبناء وتنطلى على الدهماء.

ورغم زيارته للجـبهـة والميادين التـى تكتظ بالجمـاهير فـقد كـان الدوتشى منكسراً مسكوناً بالحسـرة والألم لا تفارقه تلك الأيام التى اقتيد فيـها كالفأر لا يقوى على الحراك والجدال، بل كان يستجـدى سجانه، ويتعطف خليفته، لعله يحظى برضاه السامى.

ومن ثم عاش الدوتشي كأنه يندم على إطلاق سراحه متمنياً لو استمر الحال حتى يلفظ أنفاسه، أو كان يطلق الرصـاص على رأسه قبل أن يقتاد إلى أماكن مجهولة بمؤامرة دبرها الملك الخائن.

وفى ذلك وصفت زوجتـه راشيل حالته المعنوية فى مذكـراتها قائلة: وبمرور الأيام كان يزداد وجومـاً وإمعانا فى التفكير، وبات بمـقدورى من الطريقة التى كان يتحدث إلى فيها بين الحين والآخر أن أستشعر معاناته من عذاب دائم من هذا الصراع المميت بين الإيطاليين وراء جبهة القتال.. وكان يظل على وجومه وحيرته وشـرود ذهنه، حتى وهو يتناول طعامه، وكـثيراً ما أصغى إلىّ صـامتاً وكنت أسمعه قاطعاً صمته بقوله: عم كنت تتحدثين؟!

وفى عام ١٩٤٤ كانت خلايـا المقاومة السرية قد صعّدت مـن حده نشاطها ضد الجنود الألمان المتمركزين فى إيطاليا، وكانت عصابات المقاومة متواجدة فى جميع أنحاء الشمال الإيطـالى، وكانت ضرباتهم الموجعة تؤرق هتلر وتمنع نوم الدوتشى، لما لهـا من تاثـير بـالغ على مـعنويات الجنود الألمان، فـضـلاً عن انعكاساتها الخطيرة أيضاً على معنويات الدوتش نفسه.

كانت حركـة المقاومة تتضمن عـناصر شيوعيـة أشعلت جذوة حماسـتها، وكانوا يقفون وراء الاغتيالات وأعمال تخريبية، الأمر الذى دفع الدوتشى لشن حرب عسكـرية ضد المقاومة لإجـهاض مخططها الرامى لتـأليب الشعب على الوجود الألمانى وعلى أركان نظامه الحاكم، وأمـر الدوتشى أصحاب القمصان السوداء بحمل السلاح لمجابهة هؤلاء، لتدخل البلاد نفق حرب أهلية شهدت

حمامـات دم غزيرة، وسرعان مـا أصدر قراراً يقضى بالإعـدام الفورى حال القبض على أى عضو من أعضاء المقاومة السرية.

والواقع أن قرارات موسـولينى لم تلق قبولاً، حيث خـشى الشعب الألمانى من أن يطول أمد الحرب الأهلية التى قـد لا تبقى ولا تذر، ومن ثم دعا القادة الشيوعيون إلى الإضراب العام لوقف الحرب الأهلية ودغدغة أعصاب الدوتش الذى بدا كالأبله لا يلبى سوى رغبات الفوهرر، ويطيع أوامر العسكريين الألمان ولو كانت على حساب أمته .

ورغم ذلك فـقد كـان الشعب الإيطالى يهـتف للدوتشى ويصرخ مـتى رآه الأمر الذى كان يثـير دهشة الدوتشى، وهو ما جرى بـالفعل خلال زيارته إلى مدينة ميلان، حـيث شقت الهتافات عنان السماء، وبدأ الدوتشى سـعيداً أمام الجنود الألمان الذين أثارهم هذا الجنون الشعبى للدوتشى.

ومـضت الأيام والدوتشى يتطلع إلى إمكانيـه إحراز الـنصر على الحلفـاء، لاسيمـا وأن بعض الوحدات الإيطالية قد أبـلت بلاء حسناً فى معاركـها ضد الحلفـاء خلال الأسـابيع الأخيـرة مما أحيـا الأمل فى نفوس الإيطاليـين وعلى رأسهم الدوتشى.

وحـيث إن الدوتشى لم يكن فى مـوضع تتـوافـر لديه من خـلاله بيـانات ومعلومات دقيقة حول حقيقة سير المعارك، أو أوضاع الجبهات، وظروف الألمان على وجه التحـديد، فقد كانت الصورة لـديه ضبابية ومشـوشة لا يستطيع أن يستـبين منها شـيئاً سـوى خزعبلات وأسـاطير يروجهـا الألمان لتحفـيزه على الاستمرار والمضى قدما فى طريق الحرب.

لكن على الجانب الآخر كـان القادة العسكريون الألمان يتفـاوضون سراً مع الحلفاء على استـسلام الجيوش الألمانية فـى إيطاليا، وكان رئيس أساقفـة ميلان الكاردينال ايدلفونسو شوستر يحمل على كاهله أعباء تلك الوساطة لما اشتهر به من حكمة وعقلانية ورصانة وموضوعية.

ومضت المباحثات دون توقف حـتى كللت بالنجاح فى نهاية المطاف، حيث إن الوحدات الألمانية كـانت قد تلقت أوامر سرية بالانسـحاب فى السادس من أبريل ١٩٤٥ فى الوقت الذى كان الجنرال الألمانى فينجوف يبذل قصارى جهده لإقناع الدوتشى بأن هذه الأوامر مجرد خديعة كبرى للحلفاء، وذلك رداً على استفسـارات الدوتش الذى ترامت لمسامعه فى الآونة الأخيرة أنبـاء تفيد بنجاح المفـاوضات الـسرية بين الجـانبـين، والتى جـرت وقـائعهـا فى إحـدى المدن السويسرية.

على إثر ذلك ورغم المقـاومـة الإيطاليـة العنيفـة ضـد الحلفـاء فقـد أدرك موسولينى أن الأمور على وشك أن تفـلت مرة أخرى من بين يديه، وأن شبح السجن عاد يراوده، لا سيما وأن الغلبـه باتت جلية لجيوش الحلفاء، وأن الألمان تتدهور أوضاعهم، ومقاومتهم العنيفة ما هى إلا صحوة موت قادم لا محالة.

وبالفعل سـاءت أحوال الجبهة العـسكرية، وخارت قوى المقاومـة الإيطالية، وبات العدو قريباً من ميلان، فيما تواصل القوات الألمانية انسحابها.

وأمام هذه التطورات الخطيرة رفض الدوتشى الاستماع إلى نصيحة قدمها له أحد خلصائه تدعوه للهرب سراً مع أسرته إلى سويسرا أو أسبانيا، الأمر الذى

رفضه موسولينى رفضاً قاطعاً، وحين أشارت عليه إحدى عشيقاته بأن يلحق بها إلى الأرجنتين بعد أن يفتعل حادثاً وهمياً يدور حول اغتياله إثره حادث سيارة، كان يسخر ويتهكم من كل هذه الدعوات التى كانت تسعى إلى إنقاذ حياته وضمان سلامته.

كان موسولينى لا يزال يعيش فى أوهام نصر قادم وانتعاشة فاشية قادمة، أو هكذا عاش دوماً غارقاً حتى أذنيه فى مستنقع أوهامه وأحلامه وجنونه.

وكانت الدعوات التى وجهها البعض لموسولينى تستجديه الحرص على حياته قد تحولت بمرور الوقت ومع تعاظم الأخطار إلى مناشدته الحفاظ على حياة الشعب الإيطالى حقناً لدمائه وصيانة لأرواحه ،وحفاظاً على ثرواته وتاريخه وأمجاده وكفاه ما لحق به من عار وهزائم مخزية.

كانت التوسلات حادة لا تخلو من تهديدات وتحذيرات قادها بعض وجهاء البلاد، ورغم رفض موسولينى فقد اضطر إلى الرضوخ حين التقى مع الكردينال شوستر الذى همس فى أذنه قائلاً: أرجوك، لا داعى لأن تلهث خلف أوهامك يا دوتش فأنا أعرف من سيتبعك إلى هناك من أصحاب القمصان السوداء، وهم لن يزيدوا على ثلاثمائة لا ثلاثة آلاف كما أوهمك البعض، وقدم له الكردينال قصة القديس بنديكت بعد أن ألقى عليه مواعظه ونصائحه.

وكان وفد من لجنة التحرير الوطنى يترأسه الجنرال كادورنا قد أقبل إلى مقر الدوتشى فى محاولة لمواصلة الضغط عليه، ودار حوار طويل بينهما انتهى إلى الخروج من ميلان.

كانت انتفاضة العمال تهز أرجاء إيطاليا، وقد نما لعلم الدوتشى أنباء كفاحهم ضده حين وصل مع أتـباعه الفاشيـين إلى كومو، وقد تملكه الذعـر واستولى عليه الرعب لا يدرى ماذا ستصنع به الأيام القادمـة لا سيما وأن أتباعه لا يزيد عددهم فعلا عما ذكره الكردينال شوستر.

وحـيث إن الأخبـار لم تكن على مـا يرام فى مـدينة كـومو فـقـد اضطر الدوتشى إلى مغادرتها فى الوقت الذى خارت قوة الفاشيين من أتباعه .

وكانت المعضـلة فى انتشار رجال المقاومـة السرية فى جميع أرجـاء إيطاليا، الأمر الذى بث الرعب فى صدور الفاشيين الموالين له، والذين يتبعون خطواته، ولا يدرى أى منهم إلى أى جهة ذاهبون.

ومن أجل توفير الحـماية للدوتش اقترح أتبـاعه أن يستقل إحـدى السيارات المدرعة تجنبا لهـجمات المقاومة السريـة وهو ما وافق عليه الدوتشى دون تردد بعد أن علم من محافظ كومو مدى قوة أفراد المقاومة وكثرة أعدادهم.

لكن كـان الدوتشى على موعـد آخر مع الاعتـقال، حـيث تربص له أبناء المقاومة السرية الـذين أعدوا الأكمنة لاصطياده رغم أنه استقل سـيارة مدرعه وتبع ذلك اصطياد جمـيع أتباعه الذين كانوا يرافقـونه، وقد استسلموا جمـيعا دون أبداء أية مقاومة .

لكن كانت المعضلة فـى أن أبناء المقاومة يجهلون ملامح الدوتشى لا سـيما وأن وجهه تغير عما كان قبل الاعتقال الأول، حـيث أصبح مخيفا شاحباً أصفر اللون زائغ النظرات، يتعذر أن يـتعرف عليه من لم يلتق معـه من قبل بصورة مباشرة.

وراح رجال المقاومـة يسابقون الزمن فى البـحث عن الدوتشى وسط رجاله الفاشيين وبعض الجنود الألمان، وكان أحدهم يعرف الدوتشى.

ومر على جميع الفاشيين يتفحص وجوههم ويتأمل ملامحهم، وفى داخل إحدى السيـارات رفع رأس أحدهم تظاهر بأنه يغط فى سبـات عميق، وراح يسأله: هـل أنت إيطالى؟ فرك الرجل عـينيه ورمـقه بنظرة ذات معـنى قائلاً: نعم، أنا إيطالى، فصاح الرجل بأعلى صوته .. أوه يا فخامة الدوتشى.. أنت صاحب الفخامة، أليس كذلك؟

وعلى الفور أسرع رجال المقاومة يلقون القبض عليه دون تردد، وقد لاحت علامات الذهول على موسولينى وبدا كمن شاخ وبلغ من العمر أرذله، فبهت لونه وخارت قواه، وبدا كمن فقد النطـق وأصابه العمى، حيث اسودت الدنيا وضاقت بين عـينيه ،ومـا كان من رجال المقـاومة سوى أن جـذبوه إلى خارج السيارة ثم نزعوا منه سلاحه الخاص و استـولوا على حقيبتين تكتظ كل منهما بأخطر الوثائق.

وقيـد موسولينى إلى مـبنى البلدية للتحقـيق فيما أقـدم عليه من سيـاسات أضرت بالبلاد ،حيث كان المحقق قد أعد عريضة من الاتهامات التى تتعلق بما آلت إليه سياساته المجنونة.

وبعد أن فـرغ المحقق اقتيـد الدوتشى إلى قمة جـبلية خوفا من القـيام بأى محاولة أخرى لتحريره من قبضتهم ،لا سيما وأن تعليمات لجنة التحرير الوطنية

أمرت رجال المقاومة بإخفاء الدوتشى فى مكان أمين تحسباً لأية عمليات تحدث لإنقاذه.

* * * *

وعلى الرغم من المصير الذى آل إليه الدوتشى فقد تجلى فى أروع صوره حين فوجئ الكونت بلليلنى بالسيدة كلاريتا بيتاشى وقد ألقى القبض عليها تطلب أن تلحق بالدوتشى لإخلاصها ووفائها له، حيث بررت علاقتها الشرعية معه أنها كانت تجسيداً لقصة حب عنيفة بينهما، ولم تكن لمجرد أنه حاكم ديكتاتور، بل لأنها أحبت هذا الرجل بجنون.

على أية حال انتقل موسولينى إلى منطقة جيرماسينو ثم إلى قرية بليفيو ثم استقل سيارة أخرى تشق الطرق الجبلية الوعرة وسط سيول من الأمطار إلى إحدى القرى الريفية، وبعد رحلة طويلة كان موسولينى ترافقه عشيقته يناما ما تبقى من ساعات الليل داخل إحدى الدور الريفية وسط حراسة شديدة من رجال المقاومة السرية.

* * * *

وفاة موسولينى

كان موسولينى يتجاذب أطراف حديث طويل لا ينتهى مع عشيقته لعل ذلك تخفف من وطأة المصير الذى ينتظرهما معاً، لا سيما وأن الإعدام بات فى حكم المؤكد، ومن ثم وجب عليهما إهدار الوقت فى استرجاع ما بينهما من ذكريات مضت وتولت.

وبينما كان العاشقان يتحدثان فوجئ موسولينى برجل طويل القامة يدق أبواب البيت الريفى الذى يقيم بداخله ويتقدم منه قائلاً: لقد جئت إلى هنا من أجل إنقاذك يا سيدى.

فإذا بموسولينى يجيب ساخراً وهو يتأمل مدفعه الرشاش: أوه يبدو أنك رجل لطيف وخفيف الظل.

ثم سرعان ما جذب عشيقة موسولينى بقوة، ودعاها لتلحق بهما قبل أن يداهم الأمريكان المنزل.

ويبدو أن موسولينى قد انطلت عليه الحيلة كغريق يمسك بقشة لعلها تنتشله.

وأمرهما الرجل الذى زعم أنه جاء لإنقاذهما بدخول السيارة التى كانت تنتظرهما على بعد أمتار قليله من باب الدار الريفى، أدركت عشيقة موسولينى أن الرجل فى طريقه إلى تنفيذ الإعدام رمياً بالرصاص، ومن ثم صاحت بأعلى صوتها أن يقتلوها قبل أن يطلقوا عليه النيران، وراحت تبكى وهى تحتضن موسولينى الذى كان صامتاً لا ينطق ولا يحرك شفتيه قط.

أما الذى ادعى كذباً أنـه جاء بصدد انقاذه فقـد أشهر مدفـعه وراح يصوبه نحو موسولينى، بيد أن عطلاً مفاجئـاً قد أصاب المدفع، فانتزع مسدس سائق السيـارة ليلتفت ناحية مـوسولينى الذى رمقـه بنظرات قاسية قـائلاً له فى ثبات وسط نحيب وصراخ عشيقته أطلق الرصاص على صدرى لا تتردد يا رجل.

ودون تردد أطلق الرجل الرصاصة الأولى نحو صدر كلاريتا تبعتها رصاصة أخرى استقرت فى صدر موسولينى، ثم عاود الرجل إطلاق الرصاص بعد أن لاحظ أن صدره مـا زال يعلو ويهبط، حتـى بلغت عشر رصـاصات سكنت وغاصت فى جسده النحيل وسط ضحكات الرجال.

وفى اليوم التـالى ٢٩ أبريل ١٩٤٥ انتقل جثـمان موسولـينى وعشيقـته إلى سيارة خاصة بنقل الموتى، توجهت بهمـا إلى ميدان لوريتو الذى كان قد اكتظ بالجماهير الغفيرة التى جاءت لتتـشفى فى الرجل الذى أحال حياتها إلى جحيم مستـعر بعد أن أولته ثقتهـا وولاءها وما أن أنزل أحد رجال الإسعاف الجـثتين حتى هجـمت عليه الجماهيـر تضرب جثة مـوسولينى بالتحـديد بالأقدام على مؤخرته وعلى وجهه وسط حالة رضا من البعض وسخط البعض الآخر.

ولـم يكن ذلك فحـسب، بل إن إحدى السـيدات قد أخـرجت مسدسـها وأطلقت نيرانه على جثة موسولينى، ثم هاجت الجماهير المحتشدة تطالب برفع الجثتـين إلى أعلى لا سيمـا وقد انضمت إلى الجثـتين أكثر من خـمس جثث لأتباع موسولينى .

وجاء نفر بالحبـال ووثقت معاصم الجثث، وبدت جثة موسـولينى معلقة إلى أعلى فتدلت رأسه إلى الأرض، ووجهه بدا أمام الجـماهير المحتشدة وقد تلون بالدماء، وراح البعض منهم لا يتورع فى أن يبصق على جـثة موسولينى إمعانا فى الانتقام من سنوات حكمه البغيض.


بينما ارتفعت جـثة عشيقته كـلاريتا عارية من ملابسها وقد بـلغت الصفاقة بأحدهم أن وضع عـصا بين فخـذيها وسط هدير من الهـتافات والصـرخات المدوية التى اقتصرت على شعار لعن الله الدوتشى. . إلى الجحيم يا دوتشى.

أسـدل الستـار على رجل لم يكن أهلاً لثـقة أمـته، ولم يكن قط جـديراً بالأمانة التى حملها، ولم يكن مخلصاً لشعب كان له وفياً.

* * * *

الفهرس

الموضوعات | الصفحات


مذكرات قادة الحرب العالمية الثانية
جوبلز
ديجول
مونتجمري
آيزنهاور
تشرشل
موسولينى
رومل
أدولف هتلر
9789774361340
مكتبة النافذة
Bibliotheca Alexandrina
06672785